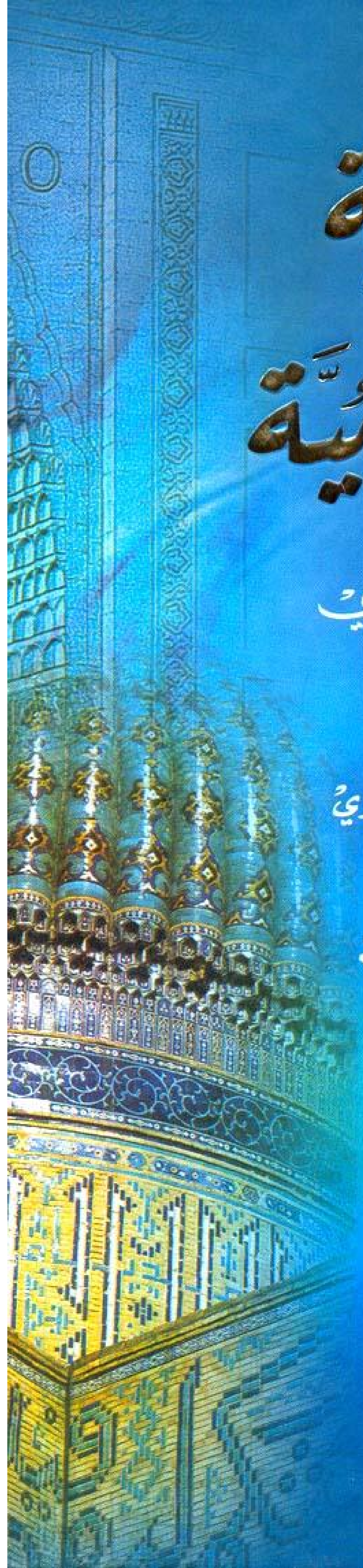


المِنَحُ القُدسِيَّة
عَلَى الحِكَمِ العَطَائِيَّة

لسيدي ابن عطاء الله السكندري
المتوفى ٧٠٩ هـ

تأليف

شيخ الإسلام عبد الله بن حجازي الشرقاوي
المتوفى ١٢٢٧ هـ

ومعه إفادات لكبار علماء الصوفية

اعتنى به وعلق عليه
الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

شرح حكم ابن عطاء السكندري

الحكمة الأولى

«من علاماتِ الاعتمادِ على العملِ نُقصان الرجاءِ عندَ وجودِ الزَّلَلِ»

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، فيقول المرتجي غفر المساوي، عبد الله بن حجازي الخلوقي، المشهور بالشرقاوي: هذه تقييدات لطيفة على حكم العارف بالله سيدي أحمد بن عطاء الله – قدس سره– وقصده بها الغالب خطاب المريدين الصادقين، وترقيهم إلى مقام العرفان، فينبغي لنا أن نقتصر على بيان مقصوده بحسب الإمكان.

قال رحمه الله:

(من علامات الاعتماد على العمل) أي: الجوارح من صلوات وأوراد وأذكار وغيرها، والمعتمد على ذلك العُبَّاد والمريدون، فالأولون يعتمدون عليها في دخول الجنة والتنعُّم فيها، والنجاة من عذاب الله تعالى، والآخرون يعتمدون عليها في الوصول إلى الله تعالى، وكشف الأستاذ عن القلوب وحصول الأحوال القائمة بها والمكاشفات والأسرار، وكلاهما مذموم، وناشئ من رؤية النفس، ونسبة الأعمال إليها حتى ينتج ما ذكر، أما العارفون فلا يرون لأنفسهم شيئًا يعتمدون عليه، بل يشاهدون أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، وأنهم محل لظهور ذلك فقط، وأشار المصنف رحمه الله تعالى إلى علامة يعرف بها العبد نفسه، فمن علامة كونه من القسمين الأولين: (نقصان الرجاء)أي: رجاؤه في الله تعالى أن يدخله الجنة، وينجيه من العذاب إن كان من العباد، وأن يوصله إلى مطلوبه للتقدم إن كان من المريدين (عند وجود الزلل) بأن تصدر منه معصية، كزنا وغفلة عن الله تعالى، وترك أوراد، ومن علامة كونه من العارفين، فناؤه عن نفسه، فإذا وقع في زلة أو أصابه غفلة شهد تصريف الحق فيه، وجريان فضائله عليه، كما أنه إذا صدرت منه طاعة، أو لاح له مشاهدة قلبية، لم ير في ذلك حوله وقوته، فلا فرق عنده بين الحالين؛ لأنه غارق في بحار التوحيد، قد استوي خوفه ورجاؤه، فلا ينقص العصيان خوفه، ولا يزيد الإحسان رجاؤه، فمن لم يجد هذه العلامة فيه، فليجاهد نفسه بالرياضات والأذكار حتى يصل إلى مقام العرفان.

ومراد المصنف بهذه الحكمة تنشيط السالك، ورفع همته عن الاعتماد على شيء سوى

مولاه، لا التزهيد في الأعمال؛ لأنها سبب عادي في الوصول إلى الله تعالى ولا تحقير ما تنتجه الأحوال وغيرها؛ لأن ذلك منة من الله تعالى لا ينبغي ردها.

الحكمة الثانية

«إرادتُك التَّجرِيد مع إقامة الله إيَّاك في الأسباب من الشهوة الخفيَّة، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمَّة العليَّة»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إرادتك التجريد) أي: ميل نفسك أيها المريد الصادق إلى التجريد عن الأسباب الظاهرية أي: خروجك عنها وعدم معاناتها، (مع إقامة الله إياك في الأسباب)، وعلامة ذلك أن يهيئها لك، وأن تجد السلامة في دينك عند معاناتها، وينقطع بها طمعك عما بأيدي الناس، ولا يشغلك عما أنت فيه من وظائف العبادات الظاهرة والأحوال الباطنة (من الشهوة) أي: من شهوات النفوس التي تدعو إليها (الخفية)، وكانت شهوة لعدم وقوفك على مراد سيدك، وموافقتك مراد نفسك، وخفية لأن ظاهر ذلك أن مرادك بالتجرد الانقطاع إلى الله تعالى والتقرب إليه، وباطنه أن مرادك الشهوة بالولاية لتقصدك الناس بالاعتقاد والتقرب إليك، فتنقطع عما أنت بصدده، فقد قال العارفون: "إقبال الناس على المريد قبل كماله سم قاتل".

وربما انقطعت بذلك عن وظائفك وأورادك، وصرت تتطلع لما بأيدي الناس.

(وإرادتك الأسباب) أي: التسبب والاكتساب (مع إقامة الله إياك في التجريد) أي: بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب، وجعل نفسك مطمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها، ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات (انحطاط عن الهمة العلية) لإرادتك الرجوع إلى الخلق بعد التعلق بالحق، ولو لم يكن إلا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه لكان كافيًا في دناءة الهمة.

فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه، ويرضى به حتى يتولى الله إخراجه منه، ولا يخرج بنفسه وإرادته وتسويل الشيطان، فيقع في بحر القطيعة، والعياذ بالله تعالى.

الحكمة الثالثة

«سَوابِقُ الهممِ لا تخرقُ أسوارَ الأقدارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها، وتصلح أيضًا لما بعدها كأنه قال: إرادتك أيها المريد خلاف لما أراده مولاك، لا تجدي نفعًا؛ لأنه إذا كانت سوابق الهمم أي الهمم السوابقأي: سريعة التأثير في الأشياء، وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الأشياء، وتكون للوليّ كرامة، يقال: فعل كذا بهمته إذا وجهها إليه، فوجد، ولغيره كالساحر والعائن إهانة لا تنفعل عنها الأشياء إلا بتقدير الله تعالىأي:: بإذنه سبحانه، فالهمم غير السوابق، كهمتك أيها المريد لا أثر لها من باب أولى، ففي هذا تبريد نار الحرص المشتعلة في قلبه حتى يخيل له أن ذلك الشيء طوع يده، وأنه يدرك لا محالة، والإضافة في قوله: (سوابق الهمم) من إضافة الصفة إلى الموصوف، كما تقرر، وفي قوله: (أسوار الأقدار) من إضافة المشبه به للمشبه.

الحكمة الرابعة

«أَرِحْ نفسَكَ مِنَ التَّدبِيرِ فمَا قَامَ بِهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لنفسِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أرح نفسك) أيها المريد (من التدبير) لأمر دنياك، وهو أن يقدر الشخص في نفسه أحوالاً يكون عليها ما تقتضيه شهوته، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ويهتم لأجل ذلك، وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه، وفي تعبيره بـ (أرح) إشارة إلى المطلوب تركه للمريد هو ما فيه تعب ومعاناة، أما تدبير أمور معاشه على وجه سهل يستعين به على مطلوبه، فلا بأس به، ولذا ورد: "التدبير نصف المعيشة".

(فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك) يعني: أن الأمر مفروغ منه إذ قد قام به غيرك وهو الله تعالى، وما قام به غيرك لا فائدة في قيامك به، فيكون قيامك به فضولاً لا ينبغي أن يتلبس به ذوو العقول، وأيضًا فيه ترك العبودية ومضادة لأحكام الربوبية ومنازعة القدر، وإنما خاطب المريد بذلك لأنه إذا توجه لحضرة الرب واشتعل بأوراد الطريق وأعماله تعطلت عليه أسباب معاشه في الغالب، فيأتيه الشيطان ويوسوس له، ويصير يدبر له في نفسه أمورًا لا يقع أكثرها، وذلك يشغله عما هو بصدده، فيرجع عما هو متوجه له، ودواء ذلك كثرة الذكر والرياضة حتى يرجع عنه الشيطان، وتحصل له الراحة من تعب التدبير.

الحكمة الخامسة

«اجتهادُك فيما ضَمِن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليلٌ على انطماسِ البصيرةِ منكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ولذا قال: (اجتهادك فيما ضمن لك) أي: تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلاً منه وإحسانًا، قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾[العنكبوت:60] إلى غير ذلك من الآيات، (وتقصيرك فيما طلب منك) وهو العمل الذي تتوصل به عادة إلى مولاك من أذكار وصلوات وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات.

قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:56] فالمطلوب من المريد السعي في قوت الأرواح وهو ذكر المولى، وفعل ما يقرب إليه، لا قوت الأشباح لأنه قائم به غيره، وهو مولاه (دليل على انطماس) أي: عمى (البصيرة منك) وهي عين في القلب تدرك الأمور المعنوية، كما أن البصر يدرك الأمور المحسوسة، وفي تعبيره (بالاجتهاد) إشارة إلى أن طلب الرزق من غير اجتهاد لا بأس به للمريد ولا يدل على انطماس بصيرته.

الحكمة السادسة

«لا يكن تأخر أمدُ العطاء مع الإلحاحِ في الدُّعاءِ مُوجِبًا ليأسِكَ، فهو ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لكَ لا فيما تختارُ لنفسكَ، وفي الوقتِ الذِي يريدُ لا في الوقتِ الذي تُريدُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم قال: (لا يكن تأخر أمد) أي: زمن (العطاء) بتأخر ما يقع فيه (مع الإلحاح في الدعاء) بزوال أوصاف بشريتك ورفع الحجاب عنك ووصولك إلى مولاك (موجبًا ليأسك) أي: من إجابة الدعاء (فهو ضمن لك الإجابة) بنحو قوله: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر:60] (فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد) فقد يكون دوام الحجاب على المريد خيرًا له ليجتهد في الأعمال ويدوم خوفه من مولاه، لكن الشيطان ربما أتى له، وقال له: لو كنت من أهل الإرادة لأجابك مولاك، وأزال أوصاف

بشريتك، وحصل لك مقصودك، وجهل أن عدم إجابته قد يكون خيرًا له، وقد تكون بشريته غليظة، فلا تنقطع إلا بعد مدة طويلة، وما أتي به من المجاهدات والرياضات لا يفيد ذلك في تلك المدة.

وقد شبه بعض العارفين الطبيعة بأرض ذات شوك، وقد يكون الشوك غليظًا كثيرًا لا ينقطع إلا بعد مدة ومعاناة تامة، وقد يكون قليلًا ضعيفًا أدنى شيء يزيله، وكذلك أوصاف النفوس، وقد تكون خبيثة كثيرة فتحتاج إلى مدة طويلة وشدة معاناة في قطعها، فإذا حصل المقصود ولو في آخر نفسٍ من عمره، كان هو الغاية القصوى، وكان ما تعب فيه حقيرًا بالنسبة لذلك، وقد تكون بضد ذلك، فلا تحتاج إلى طول مدة وكثرة معاناة.

الحكمة السابعة

«لا يُشَكِّكَنَّكَ في الوعدِ عدمُ وقوعِ الموعودِ، وإنْ تعيَّنَ زمنُهُ لِئَلا يكونَ ذلكَ قدحًا في بصيرتِك وإخمادًا لنورِ سريرتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يشككنك في الوعد) الذي وعدك به مولاك في منام أو على لسان ملك أو بإلهام روحاني، (عدم وقوع الموعود وأن تعين زمنه) أي: وأن كان زمنه معينًا بأن ألهمت أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح أو يحصل في العام رخاء أو غير ذلك (لئلا يكون ذلك) الشك (قدحًا في بصيرتك وإخمادًا لنور سريرتك).

فمن وعده مولاه شيئًا وإن كان معين الزمان، ثم لم يقع ذلك الموعود، فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقًا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها، ومن هذا القسم ما يقع لبعض الأولياء أن يخبر به بأنه يحصل في هذا العام كذا ثم لا يحصل، فيقع بعض الناس في إعراضهم، ومنه ما وقع له ﷺ عام الحديبية من إخباره للصحابة بالفتح، ثم لم يحصل في ذلك العام، بل في عام بعده، فإذا خطر للمريد خاطر رحماني أو ملكي، ثم لم يحصل مقتضاه، لا ينبغي أن يشك في حصول الموعود، بل ينبغي أن يعرف قدره، ويتأدب مع ربه ويسكن إليه فيما وعده به، ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده.

فمن كان كذلك، فهو عارف بالله، سالم البصيرة، منور السريرة، وإلا فعلى العكس من ذلك.

الحكمة الثامنة

«إذا فَتح لك وِجهةً من التعرف فلا تبالِ معها إن قلَّ عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تَعلم أن التعرف هو مُورِده عليك والأعمال أنت مُهديها إليه، وأين ما تهُديه إليه مما هو مُورده عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قَلَّ) (بفتح الهمزة) (عملك) أي: بقلة عملك، اعلم أن السالك لا بد له في سلوكه من كثرة الأعمال ليقطع عقبات النفوس، ويصل إلى حضرة الرب، فإذا شرع في المجاهدة وطالت عليه المدة، ربما كسل عن بعض أنواع العبادات والأوراد التي رتبت عليها، فيحصل عنده شدة الهم والغم، وربما تسول له نفسه الترك بالكلية مع كونه قد حصل عنده نوع من معرفة الله تعالى، فأرشده الشيخ ﷺ إلى أنه إذا فتح له وجهة من التعرف أي نوعًا من المعرفة، كأن عرف بطريق الذوق أن الله تعالى حاضر معه، مطلع على حاله، أو عرف ذوقًا أنه لا فاعل إلا الله بأن حصل له تجلي الأفعال الذي هو أول التجليات عندهم، فلا يبال حينئذٍ بقلة العمل؛ لأن القصد من العمل القرب من حضرة الرب، وفتح تلك الوجهة دليل على ذلك وعلى أنه معتنى به وأنه سيصير من أهل وده، وقد تكون قلة العمل بسبب مرض يعوقه عنه، فإذا حصل عنده نوع من المعرفة بأن عرف أن نزول المرض به خير من الصحة لما فيه من ترقيه، وأن الله يفعل به ما يريد، فلا يبال حينئذٍ بقلة العمل (فإنه ما فتحها) أي: تلك الوجهة (إلا وهو يريد أن يتعرف إليك) أي: يواجهك بفضله، ويقرب منك، ويتجلى عليك بصفاته وأسمائه، ولا شك أن ذلك أعظم من كثرة الأعمال الظاهرة (ألم تر أن التعرف هو مورده عليك) أي: محصله لك بطريق التفضل (والأعمال أنت مهديها إليه) وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك) فإن هدية العبيد وإن كانت جليلة هي صغيرة بالنسبة إلى هدية السيد وإن كانت قليلة، على أن هدية العبد هنا نفعها عائد عليه لا على السيد، وحاصل ما ذكر أن قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بدونها.

فإذا حصل للسالك بعض المعرفة ينبغي أن يوجه قلبه إلى حضرة مولاه ليزيده من معرفته وقربه، ويهتم بذلك أكثر من اهتمامه بالأعمال الظاهرة، ولذا كانت أعمال العارفين الظاهرة قليلة في أواخر أمرهم، وما زالوا يحنون إلى البداية لما فيها من كثرة الأنوار بسبب كثرة الأعمال.

الحكمة التاسعة

«تَنوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ بتنوُّع وارداتِ الأَحْوَالِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم قال: (تنوعت أجناس الأعمال) على العاملين (لتنوع واردات الأحوال) أي: الواردات التي تنتج أحوالاً قائمة بقلوبهم تقتضي ميلهم إلى تلك الأعمال، وواردات هي الأحوال فإن الوارد قد يسمي حالًا كما سيأتي، يعني: إن بعض المريدين نجده مشتغلًا بالصلاة، وبعضهم بالصيام، وهكذا، وسبب ذلك وارد إلهي اقتضى مثل هذا إلى كذا وهذا إلى كذا، وينبغي لكل أحد أن يعمل بمقتضى ميله المذكور إن لم يكن تحت تربية شيخ، وإلا فلا يشتغل بشيء إلا بإذنه وإرادته، وحاصل ذلك أن تنوع الأوراد في حق المريدين الصادقين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم، فينبغي لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم، ولا يعمل بمقتضى وارد غيره، ولا يتعرض على ذلك الغير في عدم اشتغاله بما اشتغل به هو.

الحكمة العاشرة

«الأعمالُ صورٌ قائمةٌ وأرواحها وجود سرِّ الإخلاصِ فيهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم قال: (الأعمال) الظاهرة (صور قائمة) أي: كالأشخاص التي ليس فيها أرواح، فلا نفع بها (وأرواحها) التي بها حياتها ونفعها (وجود سر الإخلاص) أي: سر هو الإخلاص (فيها) والإخلاص يختلف باختلاف الناس، فإخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي وكل ما فيه حظ النفس، فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلبًا للثواب، وهربًا من العقاب مع نسبة العمل إليهم، والاعتماد عليه في تحصيل ما ذكر، وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالاً وتعظيمًا؛ لأنه تعالي أهل لذلك، لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب، ولذا قالت رابعة العدوية: "ما عبدتك خوفًا من نارك، ولا طمعًا في جنتك" فنسبت العبادة إليه، وإخلاص العارفين شهودهم

انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم في ذلك حولاً ولا قوة، فلا يعملون العمل إلا بالله لا بحولهم ولا قوتهم، وهذا أرفع مما قبله.

الحكمة الحادية عشرة

«ادفِن وجودَكَ في أرض الخُمول، فما نبتَ مما لم يُدفن لا يتمُّ نَتَاجُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم ذكر ﷺ ما يعين على الإخلاص ويحصله بقوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول) أي: في الخمول، وهو عدم الشهرة الشبيه بالأرض، ودفن وجودك فيه ألا تتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه الصيت، فإن سلكت الطريق بعد شهرتك، فالواجب عليك التواضع، وألا ترى لنفسك مقامًا، ولا ترى ما أنت فيه من المناصب وغيرها شيئًا عظيمًا، بل ترى أن الخير في تركه، لكن لا تتركه إلا بإشارة أستاذك أو بإذن إلهك، ثم ضرب لذلك مثلًا بقوله: (فما نبت) من الحب (مما لم يدفن لا يتم نتاجه)، بل يخرج ضعيفًا مصفرًا لا ينتفع به الانتفاع التام، وإذا لم ينبت فالغالب أن يلتقطه الطائر، فلا ينتفع به أيضًا، وكذلك السالك، وإذا تعاطى أسباب الشهوة في بدايته، قل أن يفلح في نهايته، وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق، وإخمال الذكر، وعدم حب الشهرة حتى إذا فنيت أوصافه وبقي بربه، كان مع مولاه إن شاء أظهره وإن شاء ستره.

قال أبو العباس قدس الله سره: "من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله، فسواء عليه أظهره أو أخفاه).

الحكمة الثانية عشرة

«ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزلةٍ يدخل بها ميدانَ فِكْرَةٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما نفع القلب) أي: قلب المريد في التطهر من غفلاته، والقرب إلى حضرة مولاه شيء (مثل عزلة) أي: اعتزال عن الناس (يدخل بها ميدان فكرة) شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيول في الميدان، فالمريد إذا كان مخالطًا للناس اشتغل نظره بالمحسوسات، فلا يتفكر قلبه إلا فيها، ولا يزال ناظرًا إلا لعالم الشهادة، فإذا اعتزلهم انعكس الحال وجال القلب في عالم

الغيب، وقد جاء في الخبر: "تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة "، « وقيل لأم الدرداء "ما كان أفضل أعمال أبي الدرداء؟ قالت: التفكر»، وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء، وإلى تعظيم الله وتعظيم كل ما يرضيه، فيفعله، وتحقير كل ما يسخطه فيجتنبه ويطلع به على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو، وغرور الدنيا، ويتعرف به وجوه الحيل في التباعد عنها، ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها، وبالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التي هي أحد أركان الطريق الأربعة بالنسبة للمريدين، وباقيها: الصمت والجوع والسهر، وبهذه الأربعة تصير الأبدان أبدالًا، وهذا كله في حق المريد الذي سلك بنفسه، فإن كان تحت تربية شيخ، فلا بدَّ من مخالطته ومخالطة الإخوان الذين يعينونه على سلوك الطريق، فإذا ذهبت رعونات نفسه وصار من العارفين، فلا تضره مخالطة الخلق أجمعين؛ لأنه حينئذٍ لا يرى غير الله تعالى، واعلم أن الفكرة هي المقصود، والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها.

الحكمة الثالثة عشرة

«كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في مِرآتِهِ، أمْ كيفَ يرحلُ إلى الله وهو مُكَبَّلٌ بشهواته النفسية، أمْ كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حضرةَ الله وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَةِ غفلاته؟ أمْ كيفَ يَرْجُو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هفواته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف يشرق قلب صور الأكوان) أي: المكونات من الآدميين وغيرهم (منطبعة في مرآته) باعتقاده أنها تضر وتنفع، وتطلعه لها في حصول أثر ما من الأمور وتعلقه بها (أم كيف يرحل) أي: يسير (إلى الله وهو مكبل) أي: مقيد (بشهواته النفسية) والمقيد لا يمكنه السير (أم كيف يطمع أن يدخل) ذلك القلب (حضرة الرب) بأن يشاهده (وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته) أي: من غفلاته الشبيهة بالجنابة، فكما يمنع الجنب من دخول المسجد، كذلك يمنع من استولت عليه الغفلة من دخول حضرة الرب (أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار) وهي العلوم الدقيقة التي ترد على قلوب العارفين (وهو لم يتب عن هفواته) وهي ما يصدر منه من المعاصي، لا من قصد، وإنما تعجب المصنف ﷺ من ذلك لما فيه من الجمع بين الأضداد، وهو محال، وهذه الأشياء المذكورة متضادة، فإن إشراق القلب بنور الإيمان، واليقين مضاد للظلمة التي استولت

عليه بالركون إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها.

والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال في حبس الهوى والشهوات، ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة القلب ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات التي مقتضاها الإبعاد، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ** ﴾[البقرة:282] ومما روي في بعض الأخبار: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وكل واحد من هذه الأربعة سبب لما بعده، فانطباع صور الأكوان في مرآة القلب سبب في تكبله بالشهوات، والتكبل بها سبب في الغفلة، وهي السبب في كل هفوة، والهفوة سبب في عمى القلب.

الحكمة الرابعة عشرة

«الكونُ كلُّه ظلمةٌ، وإنَّما أنارَه ظهورُ الحقِّ فيه، فمَنْ رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسحبِ الآثارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم شرع ﷺ يتكلم عن شيء من المعارف لينشط المريد حتى يدرك ذلك ذوقًا، فتكلم على وحدة الوجود التي أفردت بالتأليف، فقال: (الكون) أي: المكونات أي: الموجودات بأسرها (كله ظلمة) أي: عدم محضٌ لا وجود له في نظر أرباب الشهود (وإنما أناره) أي: أوجده (ظهور الحق) أي: الله (فيه) كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، فليس هناك إلا وجود واحد، وهو وجود الحق وبظهوره في الأشياء وجدت على حسب ما تقتضيه طبائعها وليس لها وجود في ذاتها، وإذا كان كذلك (فمن رأى الكون) أي: شيئًا منه (ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه) أي: فاته (وجود الأنوار) الإلهية التي يدرك بها مشاهدة الله على أي وجه من الوجوه المذكورة (وحجبت عنه شموس المعارف)أي: المعارف التي كالشموس (بسحب الآثار)أي: بالآثار، وهي الأكوان التي كالسحب، جمع سحاب بجامع أن كلًا يحجب ما وراءه.

وأشار المصنف ﷺ بذلك إلى اختلاف أحوال أرباب المشاهدة في شهودهم، فمنهم من

يشاهد المكون قبل الأكوان، فإذا وقع بصره على شيء كحيوان يشاهد قيام الحق وظهوره فيه، وأنه المحرك والمسكن له قبل أن يخطر له كونه آدميًا أو شاه طويلًا أو قصيرًا.. إلى غير ذلك. ومنهم من يشاهده فيه وهو ظرف متسع، وهذا تقريب للإفهام، وإلا فهذا أمر لا يدرك إلا بالذوق وما كان كذلك تقصر عنه العبارة.

الحكمة الخامسة عشرة

«مما يَدُلُّكَ على وجودِ قهرِهِ سبحانِهِ إن حجبكَ عنه بما ليس بموجود معه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(مما يدلك على وجود قهره سبحانه، أن حجبك عنه) خطاب لعامة الناس (بما ليس بموجود معه) اتفقت مقالات العارفين وإشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكر من أن ما سوى الله، عدم محض من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله تعالى.

قال بعض العارفين: "أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية".

ومع كون ما ذكر عدمًا، فهو حجاب عن الله تعالى، فإن الناس لا يشهدون عند نظرهم للأكوان إلا هي، ولا يشاهدون مكونها، مع أنها لا وجود لها، والوجود إنما هو له سبحانه، فهذا مما ينفي منه العجب.

الحكمة السادسة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي أظهرَ كلَّ شيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم ذكر أدلة تدل على أنه لا ينبغي أن يحتجب بتلك الأكوان، وأن الاحتجاب بها إنما هو للعوام.

فقال: (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء) بما أشرق عليه من نور الوجود، وقد كان في ظلمة العدم كما تقدم.

فبظهوره في الأشياء ظهرت، وإذا كان ظهور الأشياء متوقفًا عليه، فيستحيل أن تحجبه حتى يكون خفيًا غير ظاهر، فإن الإظهار إنما يفيد ظهور المظهر لا خفاؤه.

الحكمة السابعة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبه شيءٌ وهو الذي ظهر بكل شيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء) حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ [فصلت:53] وذلك لأن الأثر يدل على المؤثر ويعرف به، فهذا مقام المستدلين الضعفاء.

الحكمة الثامنة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهر في كلِّ شيءٍ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء) بذاته كما يقوله أهل الشهود، أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقول أهل الحجاب، فالأشياء كلها مجالي ومظاهر لظهور معاني أسمائه التي هي تفاصيل معاني صفاته، فيظهر في أهل العزة كونه معزًا، وفي أهل الذلة كونه مذلًا، وفي الأحياء معني اسمه المحيي، وعند سلب الأرواح معني اسمه المميت، وعند العطاء معني اسمه الكريم، وعن إجابة الدعاء معني اسمه المجيب، وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معني اسمه الضار النافع... إلى غير ذلك.

الحكمة التاسعة عشرة

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الظاهر لكلِّ شيءٍ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء" أي: تجلى لكل شيء حتى عرفه، ولذا كان ساجدًا له ومسبحًا بحمده ولكن لا نفقه ذلك، فكل شيء عارف به على قدر تجليه له، وأن كان في الأشياء من لا يقدر الله حق قدره لنقص معرفته وقصورها لا لانتفاء أصلها.

الحكمة العشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو الظاهر قبل وجود كل شيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء" لتحقق هذا الاسم له أزلًا وأبدًا، فظهوره تعالى ذاتي له، غير مكتسب ولا مستفاد ولا معلول، وظهور الأكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور، فكيف تكون حاجبة له.

الحكمة الواحدة والعشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ وهو أظهر من كلِّ شيءٍ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر كل شيء" لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال، ولأن الظهور الذاتي أقوي من العرضي، والظهور المطلق أقوي من المقيد، والدائم أقوى من المنصرم.

وإذا لم يدرك للعقول مع شدة ظهوره لأن شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء، كالخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستنارته، بل لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فيكون شدة ظهور النهار مع ضعف بصره سببًا لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الظلام بالضوء، وضعف ظهوره فكذلك العقول ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في غاية الإشراق والاستنارة، فصارت شدة ظهوره سببًا لخفائه.

الحكمة الثانية والعشرون

«كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبَه شيءٌ وهو الواحدُ الذي ليس معه شيءٌ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء" إذ كل شيء سواه عدم لا وجود له على التحقيق، فليس ثم شيء يحجبه، إذ الوجود الحقيقي كله له، ولا شيء منه لغيره.

الحكمة الثالثة والعشرون

«كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبَه شيءٌ وهو أقربُ إليك من كُلِّ شيءٍ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء" لثبوت إحاطته بك وقيوميته عليك، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[ق:16] فهو قريب بعلمه وقدرته وإرادته.. إلى غير ذلك.

الحكمة الرابعة والعشرون

«كيف يُتصوَّر أن يحجبَه شيءٌ ولولاه ما كان وجود كلِّ شيءٍ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء" حتى استدل به المشاهدون على الأشياء، قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:53] ولو أسقط لفظ (كل) لكان أظهر في العموم.

أي أن ابن عطاء الله ﷺ لو كان قال: "إنه لولاه ما كان وجود شيء" لكان معناه استحالة وجود شيء مطلقًا فيكون أظهر في العموم من كلمة "كل شيء" أ.هـ.

ثم قال الشرقاوي يرحمه الله:

والقصد بهذا الكلام المبالغة في نفي الحجاب، فلا يضر كون هذا الوجه بمعني الوجه الأول، وبعضهم أثبت التغاير بينهم بما فيه كلفة.

الحكمة الخامسة والعشرون

«يا عجبًا كيف يظهرُ الوجودُ في العدمِ أمْ كيف يثبتُ الحادثُ مع من له وصفُ القِدَمِ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"يا عجبًا كيف يظهر الوجود في العدم"؛ لأن العدم ظلمة والوجود نور، وهما ضدان لا يجتمعان (أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم) لأن الحادث باطل، والله تعالى حق، والباطل لا يثبت مع ظهور الحق، قال تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلَ أن الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾.

فالظاهر والثابت هو الحق تعالى لا الكون وما بدأ إلا وجه الحق.

فهو المظهر والظاهر والوجود دون كل المظاهر.

والتعجب المذكور ناشئ من غلبة الشهود، فإنه إذا قوي العبد اضمحلت الأكوان وفني عنها بالمرة.

الحكمة السادسة والعشرون

«ما تركَ من الجهلِ شيئًا مَنْ أرادَ أن يظهر في الوقت غير ما أظهرهُ الله فيه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"ما ترك من الجهل شيئًا، من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه"، فإذا كان المريد في حال بدني أو قلبي لا يذمه الشرع لزمه حسن الأدب في اختيار بقاؤه عليه ورضاه به حتى ينقله الله عنه.

فإذا كان متجردًا وتعلق قلبه بالتكسب أو كان في صنعة وأراد الانتقال عنها لغيرها، كان قليل الأدب مع مولاه، جاهلًا بما يناسب حضرته، وكذا إن كان حال قبض وأراد الانتقال عنها إلى البسط.

قال بعضهم:"لي مذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطه".

وهذا من نتائج العلم بالله ومعرفته ربوبيته، فإن سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربه وإساءة الأدب في حضرته، وهذا من معارضة حكم الوقت الذي تشير إليه الصوفية، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة.

الحكمة السابعة والعشرون

«إحالتُكَ الأعمالِ على وجودِ الفراغِ من رُعونَاتِ النِّفوسِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس"، فإذا كان المريد مشتغلًا بحال من أحوال دنياه، وكان ذلك يمنعه من الأعمال التي يتوصل بها إلى حضرة مولاه، وأحال ذلك على فراغه من تلك الأشغال، فقال: "إذا تفرغت عملت"، كان ذلك دليلًا على رعونة نفسه، والرعونة ضرب من الحماقة، وذلك لتسويفه العمل إلى فراغ أوانه، وقد لا يجد مهلة، بل يختطفه

الموت قبل ذلك أو يزداد شغله؛ لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض، ولو فرض أنه تفرغ منها، فقد يتبدل عزمه، وتضعف نيته، فالواجب عليه النهوض إلى ما يوصله إلى مولاه قبل الفوت، ولذا قيل: "الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك".

الحكمة الثامنة والعشرون

«لا تطلبْ منهُ أن يخرجَك من حالةٍ ليستعملَكَ فيما سِواها فلوْ أرادَكَ لاستعمَلَكَ من غيرِ إخراجٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة) دنيوية كصناعة، أو دينية كطلب علم، (ليستعملك فيما سواها) لتوهمك أن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته.

(فلو أرادك) أي: أحبك وكنت من أهل الإرادة (لاستعملك) استعمالًا محبوبًا عنده، بأن يوفقك للأعمال الصالحة ويشغل قلبك به، (من غير إخراج) أي: مع بقائك على حالتك التي أنت عليها، فإذا كان المريد على حالة لا توافق غرضه، كانت مباحة في الشرع، لا ينبغي أن يروم الخروج عنها بنفسه، ويعارض حكم الوقت كما مر في قوله في الحكمة القائلة: (ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه)، وكذا لا ينبغي له أن يعارض حكم الوقت، ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها؛ لأن هذا من التخيير على الله ولا خيرة له في ذلك، بل ينبغي أن يطلب منه حسن الأدب، وإيثار مراده على اختياره، فإذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالاً محبوبًا عنده مع بقائه على ما هو عليه، فيكون إذ ذاك بمراد الله لا بمراده لنفسه، وهو خير له مما اختاره.

ولو قال (لحصل لك المطلوب من غير إخراج) لكان أولى، أما لو كان على حالة لا توافق الشرع، يجب عليه المسارعة إلى الانتقال والطلب من مولاه أن ينقله إلى ما يرضيه.

الحكمة التاسعة والعشرون

«ما أرادتْ همَّةُ سالكٍ أن تقفَ عندما كُشِفَ لها إلا ونادتهُ هواتفٌ: الحقيقة أمامَك، ولا تبرَّجتْ ظواهرُ المكوِّناتِ إلا ونادتْهُ حقائقُهَا: إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما أرادت همة سالك) أي: سائر إلى الله تعالى (أن تقف عند ما كُشِفَ لها) في أثناء السلوك من المعارف والأسرار والأنوار بأن يرى أن ما وصل إليه من المعرفة وذوق الأحوال ومنازلة المقامات، هو الغاية القصوى والنهاية، فتقف همته عنه، ويتعشقه ويحبه، أو يرى أن ما فوقه أعظم منه، لكنه يقنع بذلك، ويرى أن فيه الكفاية فلا يرق بهمته، أو يري قصور هامته عن الرقي لما فوقه (إلا ونادته هواتف الحقيقة) أي: الهواتف التي تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الإلهية، ويحتمل أن المعني: إلا ناداه لسان الحقيقة التي كشفت له: سِرْ وَجِدَّ فِي السَّير، ولا تقف، فإن الذي تطلب وهو وصولك إلى المولى، وعدم ركون قلبك إلى شيء سواه (أمامك) فلا تقف عند ما كشف لك.

يقول السياجي يغفر الله له:

من المناسب لجملة القول هو تقسيم قول المصنف ﷺ في قوله (إلا ونادته هواتف) أي: هواتف تهتف بالسالك من إلهامات وفواتح تقول له: (الحقيقة أمامك) فاجتهد في سلوكك إليها، واصبر وتحمل معاناة الطريق، فقد بان مطلبك، وتجلت لك الحقائق»أ.هـ.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ولا تبرجت) أي: أظهرت لك محاسنها (ظواهر المكونات) كتسخير الخلق لك وإقبالهم عليك، والتوسعة في الدنيا، وظهور خوارق العادات كتسخير الحيوانات، والمشي على الماء، والتربع في الهواء، والاطلاع على أسرار الخلائق وخواص الموجود، وتكثير القليل من الطعام، وطي الأرض ونحو ذلك مما تميل النفس له (إلا نادتك حقائقها) أي: بواطنها، نداء معنويًا وإن لم تشعر به (إنما نحن فتنة) أي: ابتلاء واختبار (فلا تكفر) أي: فلا تفتتن بنا ولا تقف عندنا، ولا تجعل نفسك رقًا لنا، فتحتجب بنا عن الله؛ لأن ذلك كفر لحق المنعم، وشكر النعم بالإقبال على المنعم.

فالإعراض عنه بالوقوف مع النعم عكس المطلوب.

الحكمة الثلاثون

«طلبُكَ منه اتِّهامٌ له، وطلبُكَ له غيبةٌ منك عنه، وطلبُكَ لغيره لقلَّةِ حيائِكَ منه، وطلبُك من غيره لوجودِ بُعدِكَ منه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(طلبك منه اتهام له) يعني أن المريد ينبغي له أن يشتغل في حال سلوكه بما يقربه من مولاه من الأعمال الصالحة، ولا يشغل قلبه بالطلب لشيء من الأشياء؛ لأن ذلك مذموم قاطع عن الله، فإن طلبك منه أن يرزقك بالقوت الذي يعينك على سيرك وأن يوسع عليك الرزق تهمة منك له بأنه لا يرزقك، إذ لو وثقت به في إيصال منافعه إليك من غير سؤال وتيقنت أنه عالم بحالك، قادر على إيصالها لك لما طلبت منه شيئًا.

(وطلبك له) بأن تطلب قربك منه، وزوال الحجاب عنك حتى تشاهده بعين قلبك (غيبة منك عنه) إذ الحاضر لا يُطلب، (وطلبك لغيره) من الأعراض الدنيوية وزخارفها ومناصبها، ومن المكاشفات والكرامات والأحوال والمقامات (لقلة حيائك منه) إذ لو حصل لك حياء منه لما التفتَّ إلى غيره وطلبت شيئًا سواه (وطلبك من غيره) بأن توجهت إلى بعض الناس لتطلب منه شيئًا من أعراض الدنيا غافلًا في حال الطلب عن مولاك (لوجود بعدك عنه) إذ لو كنت قريبًا منه لكان غيره بعيدًا عنك، ولو كنت مشاهدًا لقربه منك لاكتفيت به عن سائر خلقه لكن وجود البعيد قضى عليك بالشعور بالغير حتى توجهت إليه وطلبت منه، فالطلب كله من المريدين معلول، سواء كان متعلقًا بالحق أو الخلق إلا ما كان منه على وجه التعبد والتأدب واتباع الأمر وإظهار الفاقة.

أما العارفون، فلا يرون غير الله تعالى، فطلبهم ليس من المخلوق في الحقيقة، وإن كان منه بحسب الظاهر.

الحكمة الحادية والثلاثون

«ما مِن نفَسٍ تُبديه إلا وله قدرٌ فيك يُمضيهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما من نفَس) بفتح الفاء، وهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن، والمعنى أن كل نفس من أنفاسك (تبديه) أي: تظهره بقدرة الله تعالى، لا تبديه (إلا وله) تعالى (فيك قدرٌ) أي: أمر مقدر عليك من طاعة أو معصية أو نعمة أو بلية (يمضيه) أي: يبرزه بقدرته في ذلك النفَس.

فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق ينفذ فيك كائنًا ما كان.

فينبغي لك الأدب معه ومراقبته في كل نفس من أنفاسك، فتكون في كل نفس سالكًا طريقًا إلى الحق سبحانه وتعالى.

وهو معنى قولهم الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

الحكمة الثانية والثلاثون

«لا تترقبْ فراغَ الأغيارِ فإنَّ ذلكَ يقطعُكَ عن وجودِ المراقبةِ له فيما هو مُقِيمُكَ فيه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تترقب) أيها المريد (فراغ الأغيار) الواردة على قلبك، وهو ظلمات تحدث فيه تحول بينه وبين شهود المولى والحضور معه (فإن ذلك يقطعك) (عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه) من الأعمال التي تتوصل بها إليه، فالمطلوب منك المواظبة على ما أنت فيه، ومراقبة المولى في ذلك، ولا تشتغل بما يورده على قلبك من ظلمة أو نور، ولو قال: (فإن ذلك يقطعك عما هو مقيمك فيه) لكان أولى، ووجه كونه قاطعًا، أن نفسك تسول لك وتقول، لو كنت من أهل الإرادة لما وردت هذه الأغيار عليك مع كثرة عبادتك، فيشتغل قلبك بهذه الوساوس وبما سولت لك الرجوع عما أنت قاصده، وترك الأعمال الصالحة، وسبب هذه الأغيار غالبًا مايرد عليك من أكدار الدنيا، وذلك أمرٌ لا بد منه.

الحكمة الثالثة والثلاثون

«لا تستغربْ وقوعَ الأكدارِ ما دُمتَ في هذهِ الدَّارِ، فإنها ما أبرزتْ إلا ما هو مُسْتَحَقٌ وصفَهَا، وواجبُ نعتِهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تستغرب وقوع الأكدار) الموجبة للأغيار، بل الأغيار في ذاتها أكدار (ما دمت في هذه الدنيا، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها، وواجب نعتها) أي: وصفها المستحق ونعتها الواجب اللازم، فمن ضرورياتها وجود المكاره والمشاق فيها، وسيأتي التنبيه على حكمة ذلك بقوله، وإنما جعلها محلًا للأغيار، ومعدنًا لوجود الأكدار، تزهيدًا لك فيها.

ومن كلام جعفر الصادق ﷺ: "من طلب ما لم يخلق، أتعب نفسه ولم يرزق، قيل له: وما

ذاك؟ قال: "الراحة في الدنيا".

فينبغي للمريد الصادق ألا يلتفت لذلك، ويجدّ في السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة، فينمحي عن وجوده الأغيار، وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار.

الحكمة الرابعة والثلاثون

«ما توقَّفَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بربِّكَ ولا تيسَّرَ مطلبٌ أنتَ طالبُهُ بنفسِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما توقف) أي: تعسر (مطلب) من مطالب الدنيا والآخرة (أنت طالبه بربك) أي: ملاحظًا في حال طلبه ربك، حاضر القلب معه، معتمدًا عليه في تيسير ذلك المطلب.

(ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) بأن كنت غافلًا عنه معتمدًا على حولك وقوتك، فمن أنزل حوائجه إلى الله والتجأ إليه وتوكل في أمره كله عليه، كفاه كل مؤنة، وقرب عليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن سكن إلى علمه وعقله، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله، فلم تنجح مطالبه، ولم تتيسر مآربه.

ولما كان من أشرف المطالب أخذ المريد في سلوك الطريق خصصه من العموم لزيادة الاعتناء به، كما سوف يعلم من الحكمة التالية.

الحكمة الخامسة والثلاثون

«من علامةِ النُّجْحِ في النِّهاياتِ الرجوعُ إلى الله في البداياتِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"من علامات الناجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات".

بداية المريد حال سلوكه، ونهايته حال وصوله، فمن صحح بدايته في الرجوع إلى الله والتوكل عليه والاستعانة به أن يوصله إليه لأعلى أعماله المعلولة، نجح في نهايته أي: حصل له الوصول، وأمن عليه من الرجوع من الطريق، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرنا انقطع ورجع من حيث جاء، قال بعض العارفين: من ظن أنه يصل إلى الله بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله بنفسه، وكل إلى نفسه.

الحكمة السادسة والثلاثون

«من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته" بإضافة الأنوار والمعارف عليه وزوال كدورات النفوس الحائلة بينه وبين مولاه على وجه أتم، وعكسه بعكسه، فمن كان قليل الاجتهاد في بدايته لم يحصل له إشراق في نهايته، ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره، ويحتمل أن المعنى من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والالتجاء إليه، أشرقت نهايته بحصول الوصول إليه، فتكون هذه عبارة أخري موافقة لمعني ما قبلها، وما قلناه أولًا أولى وأظهر.

الحكمة السابعة والثلاثون

«ما استُودِعَ من غيبِ السَّرائرِ ظهرَ في شهادةِ الظاهرِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما استودع في غيب السرائر) أي: في القلوب الغائبة أي: غير المشاهدة بالأبصار من المعارف والأنوار الإلهية، (ظهر في شهادة الظواهر) أي: في الظواهر المشاهدة أي: الحاضرة، فما استودعه الله تعالى في القلوب والسرائر من المعارف والأنوار، لا بد أن يظهر أثره على الوجه والجوارح، وهذه علامة يعرف بها حال المريد السالك؛ لأن الظاهر مرآة الباطن، فيستدل بذلك من أراد صحبته والاجتماع به لينتفع به.

الحكمة الثامنة والثلاثون

«شتَّانَ بينَ من يَستدِلُّ به أو يُسْتَدَلُّ عليه، المُستدِلُّ به عَرَفَ الحقَّ لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلالُ عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(شتان) أي: بعد ما بين من (يستدل به) على الأشياء، وهم المرادون المجذوبون إليه الذين هم من أهل الشهود، إما ابتداء وإما بعد السلوك وهم العارفون، فإنهم لا يشهدون غير مولاهم ويستدلون به على الأشياء، (أو) بمعني الواو (يستدل عليه)، وهم المريدون السالكون إلى الله تعالى، فأهل الله تعالى على قسمين:

1) مريدون.

2) مرادون. وأن شئت قلت: مجذوبون، وهم أهل الشهود والسالكين.

فالمريدون السالكون في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم، والحق غيبٌ عنهم، فلم يروه، فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم.

والمرادون وهم المجذوبون، واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم، وتعرف إليهم فعرفوه، وانحجبت عنهم الأغيار، فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم إن جذبوا ابتداء، أو بعد سلوكهم إن كانوا من أهله، وهم العارفون، فإنهم من أهل الجذب أيضًا لكن لشدة تمكنهم في أحوالهم لا يظهر عليهم، ولذا قيل: (نهاية السالك بداية المجذوب).

وورد: (أعظم الناس جذبًا، الأنبياء والمرسلون).

ذلك أن (المستدل به) على غيره (عرف الحق) وهو الوجود الواجب (لأهله) وهو الله تعالى أي: لم يثبت الوجود إلا له سبحانه، وأما الحوادث، فهي عدم محض، (فأثبت الأمر) وهم الحوادث العدمية (من وجود أصله)، وهو الله تعالى أي: جعل وجودهم مستفادًا من وجود الله تعالى الذي قابلهم وظهر فيهم، فوجدوا، وإلا فهم عدم محض في نظر أرباب الشهود، (والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه)، فالمستدل بغيره عليه على العكس مما ذكر؛ لأنه استدل بالمجهول على المعلوم، وبالعدم على الوجود، وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب، (وإلا) نقل أنه مع عدم الوصول، (فمتى غاب)؟ أي: فلا يصح؛ لأنه: متى غاب (حتى يستدل عليه) بالأشياء الحاضرة؟ (ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه"؟ أي يستدل بها عليه؛ لأنه لا وجود لها معه عند أهل الشهود حتى توصل إليه.

أما المحجوبون، فلا يرون إلا الأكوان، ويستدلون بها عليه وهم قسمان: عامة، وسالكون، لم يصلوا إلى مقام الشهود.

والمراد باستدلال المجذوب الذي حصلت له إفاقة، أنه حينئذ يلاحظ الغير، فيثبت وجوده بوجوده سبحانه، وثبوته بإثباته، وليس المراد أنه يستدل حينئذ بالدليل العقلي والنظر الفكري.

الحكمة التاسعة والثلاثون

«﴿لِيُنفِقْ ذو سعةٍ من سعتِهِ﴾: الواصلون إليه، ومن ﴿قُدِرَ عليه رزقه﴾: السائرون إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لينفق ذو سعة) الواصلون إليه أي: إشارة إلى حال الواصلين إليه تعالى، فإنهم لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد و كمال الاستبصار، اتسعت مسافة نظرهم، وأُفيض عليهم علوم وأسرار إلهية، فصاروا يمدون الغير، ويتصرفون في عوالمهم الباطنة كيف شاءوا، ومن (قدر عليه رزقه) السائرون إليه أي: إشارة إلى حال السائرين إليه، فهم مقدورٌ عليهم أرزاق العلوم والفهوم، محبوسون في مضيق الخيالات والرسوم، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المقدر الضيق على غيرهم، و يتصرفون في عوالمهم على قدر ما أعطاهم الله تعالى.

يقول السياجي يغفر الله له:

في العبارتين تأخير الفاعل، في الأولى الواصلون إليه، و في الثانية السائرون إليه.

و في توضيح القول كأن يقول:

لينفق الواصلون إليه، ذو سعة منهم من سعة، ومن قدر عليه من السائرين إليه رزقه فلينفق مما آتاه الله بإثبات أمر إتيان الله باعتباره مما قدره الله، ولكنه ﷺ اكتفى بحفظ المريد للقرآن وهو نوع من التربية الخاصة لتذكيره و تنمية ملكة حفظه و استنباطه.

الحكمة الأربعون

«اهتدى الراحلون إليه بأنوار التَّوجُّهِ، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيءٍ دونه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(اهتدى الراحلون) أي: السائرون (إليه بأنوار التوجه) أي: الأنوار الحاصلة من العبادات والرياضات التي توجهوا بها إلى حضرة المولى، فإن المجاهدة بحسب العادة يحصل منها أنوار في القلوب يهتدون بها إلى الله تعالى حتى يصلوا إليه، (والواصلون، لهم أنوار المواجهة) أي: الأنوار التي واجهتهم من حضرة الرب أي: أفيضت عليهم حتى عرفوه سبحانه، (فالأولون للأنوار) أي: عبيد لها، ومحتاجون إليها للتوسل بها إلى مطلوبهم، (وهؤلاء) أي: الواصلون، (الأنوار لهم) أي:

ثابتة لهم من غير معاناة و مشقة مع فنائهم عنها بربهم، (لأنهم لله، لا لشيء دونه).

قال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾ ولا تحل إلى أنوار و لا غيرها ﴿**ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام آية: (91)].

فإفراد التوحيد بعد فناء الأغيار، هو حق اليقين، ورؤية ما سوى الله خوض و لعب،و ذلك من صفات المحجوبين.

الحكمة الواحدة و الأربعون

«تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ من العيوب خيرٌ من تشوُّفُكَ إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوبِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(تشوقك) أيها المريد (إلى ما بطن فيك من العيوب) النفسانية، كالرياء، وسوء الخلق، والمداهنة، وحب الرياسة، والجاه أي: توجه همتك إلى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة، وطلب التخلص منه، ولا يكون في الغالب إلا على يد شيخ كامل ناصح (خير من تشوقك إلى ما حجب) عنك (من الغيوب) من خفايا القدر، ولطائف العبر، والأسرار الإلهية، والمعارف اللدنية، والكرامات الكونية، لأن ذلك حظ نفسك، وليس لمولاك شيء معه، فلا تقصدها بأعمالك، ولا تشغل قلبك بها، ولا تركن إلى ما ظهر لك منها، فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق مولاك، أولى بك من أن تكون بحق نفسك.

الحكمة الثانية والأربعون

«الحقُّ ليس بمحجوبٍ عنكَ إنما المحجوبُ أنتَ عنِ النظرِ، إليه إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبَهُ ولو كان له ساترٌ لكان لوجوده حاصرٌ وكل حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهرٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الحق) تعالى (ليس بمحجوب) أي: ليس الحجاب وصفا له سبحانه (وإنما المحجوب) أي: المتصف بالحجاب (أنت) بصفاتك النفسانية (عن النظر إليه)، فإن أردت الوصول إليه والدخول في حضرته، فابحث عن عيوب نفسك وعالجها تصل إليه وتشاهده ببصيرتك، ثم استدل على نفي الحجاب عن الرب بقوله: (إذ لو حجبه شيء، لستره ما حجبه)، ودفع بذلك ما يتوهم من

عدم استحالة الحجاب في حقه تعالى؛ لأن الحجاب إنما يتخذه العظماء والرؤساء، فهو ينبأ عن الرفعة ويشعر بالعظمة، فمن أين جاء النقص؟ وحاصل الدفع أنه لو حجبه شيء كما هو شأن العظماء لستره، ولو كان له ساتر (لكان لوجوده) أي: ذاته (حاصر)، لاستلزام الستر انحصار المستور فيه، (وكل حاصر لشيء فهو له قاهر)، لأنه يمنعه مما وراءه ويقصره على محله ويجعله في أسر قيضته وتحت حكمه، وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام:18]، فوقية مكانه وجلاله، لا مكان.

إن قلت: كيف جعل الحجاب ملزومًا والستر لازمًا، مع أن الحجب هو الستر؟

قلت: معنى الحجب إنما يشعر في العرف بما تقدم من الرفعة والعظمة، ولا يشعر بحصر المحجوب، ومعني الستر على العكس، فهو الذي يلزمه مع انحصار المحجوب، فجعل لازمًا في الشرطية الأولى ليجعل ملزومًا في الثانية.

والمعنى: أنا لو نظرنا إلى ما تقتضيه عظمته سبحانه من ثبوت الحجاب لكان له ساتر، فتغاير المقدم والتالي بهذا التأويل.

يقول السياجي غفر الله له:

كان أولى من هذا كله لو قال ﷺ: "الحق ليس بمحجوب بحجاب، لأنه ليس كمثله شيء".

الحكمة الثالثة والأربعون

«اخرُجْ من أوصافِ بشريَّتِكَ عن كلِّ وصفٍ مُناقِضٍ لعبوديَّتِكَ، لتكونَ لنداءِ الحقِّ مُجِيبًا، ومن حضرته قريبًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(اخرج) بالرياضات والمجاهدات (من أوصاف بشريتك) المذمومة، سواء كانت تلك الأوصاف ظاهرة وهي القائمة بالجوارح، كغيبة ونميمة، وقتل وصلب، أو باطنة، وهي القائمة بالقلب، ككبر وعجب ورياء وسمعة وحقد وحسد وحب جاه ومال.. إلى غير ذلك.

ولما كانت أوصاف البشرية شاملة للأوصاف المحمودة كالطاعة والإيمان، وهي غير مرادة، أبدل منها قوله: (عن كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيبًا)؛ لأنك إذا خرجت

عن تلك الأوصاف المذمومة اتصفت بمحاسن الصفات، كالتواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والخوف منه، والإخلاص في عبوديته، فحينئذ يناديك نداء معنويًا باسم العبد فيقول لك: يا عبدي، فتجيبه بقولك: لبيك، فتكون صادقًا في إجابتك، لفقد الصفات منك التي تنافي العبودية، وتقتضي الربوبية، وتكون أيضًا (من حضرته قريبًا) فتحفظ من الأوزار، وتتيسر لك الأعمال، وتتلذذ بها.

والفرق بين المحفوظ والمعصوم، أن المعصوم لا يلم بذنب ألبتة، والمحفوظ قد تحصل له زلات، ولكن لا يكون منه إصرار، بل يتوب من قريب.

واعلم أن التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم.

ولا يتم ذلك إلا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه، وما ركبت عليه من مذام الصفات؛ لأن من عرف ذلك منها، لا يزال متهمًا لها، مسيئًا ظنه بها، آخذًا حذره منها، وإلا وقع فيما يسخط مولاه من حيث لا يشعر.

الحكمة الرابعة والأربعون

«أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفسِ، وأصلُ كُلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعِفَّةٍ عدمُ الرضا منك عنها، ولأنْ تصحَبَ جاهِلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ من أن تصحبَ عالِمًا يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالمٍ يرضى عن نفسهِ، وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أصل كل معصية) أي: مخالفة لما أمر الله به ونهى، (وغفلة) للقلب عن حضرة الرب، (وشهوة) نفسانية، وهي التعلق بما يشغل عن الله، (الرضا عن النفس)، بإجماع العارفين وأرباب القلوب؛ لأن الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساوئها، ويصير قبيحها حسنًا، فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة عن الله، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور عليه حينئذ دواعي الشهوة وتغلبه، إذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها، ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة.

(وأصل كل طاعة) أي: موافقة للأمر والنهي، (ويقظة) أي: دخول في حضرة الرب وتنبه لما يرضيه، (وعفة) أي: علو همة عن الشهوات، (عدم الرضا منك عنها)، فإن لم يرض عن نفسه

لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها، ومن كان بهذا الوصف كان متنبهًا متيقظا للطوارق والعوارض، وبالتيقظ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة، فيتصف حينئذ بالعفة، وإذا اتصف بذلك كان متجنبًا لكل ما نهى الله عنه، محافظًا على جميع ما أمر به، وذلك معنى طاعة الله تعالى، ولما كان الرضا عن النفس شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية التي لا تدل على عيوب النفس نهى المصنف ﷺ عن صحبتهم ومخالتطهم، فقال: (ولأن) أي: والله لأن (تصحب) أي: المريد (جاهلًا) بالعلوم الظاهرية (لا يرضى عن نفسه)، بأن يسخط عليه و يعتقد نقصها، (خير لك من أن تصحب عالما) بذلك (يرضى عن نفسه)؛ لأن صحبة من يرضى عن نفسه و إن كان عالما شر محض لك؛ لأن الصحبة تؤثر فتكتسب منه هذا الوصف الخبيث، فصار علمه غير نافع لك في تهذيب نفسك وجهله الذي أوجب رضاه عن نفسه ضار لك غاية الإضرار، وكأنه إذ فاته العلم بعيوب نفسه حتى رضي عنها لا علم عنده، فإذا قال: (فأي علم لعالم يرضى عن نفسه)، وصحبة من لم يرض عن نفسه وإن كان جاهلًا خير محض، وفيها كل الفائدة؛ لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، فصار جهله غير ضار لك، وعلمه الذي أوجب عدم رضاه عن نفسه نافعًا لك غاية النفع، ولأنه إذا علم بعيوب نفسه حتى لم يرض عنها لا جهل عنده، ولذا قال: (وأي جهل لجاهل لا يرضي عن نفسه!)، لأنه إذا حصل له هذا العلم صار لا جهل عنده حتى يتضرر به مخالطة، فتكون صحبته خيرًا محضًا، فالتنوين في قوله علمٌ وجهلٌ للتنويع أي: فأي علمٍ نافعٌ، وأي جهلٍ ضارٌّ.

الحكمة الخامسة والأربعون

«شُعاعُ البصيرةِ يُشهدُكَ قربَهُ منكَ، وعينُ البصيرةِ تُشْهِدُكَ عدمَكَ لوُجُودِهِ، وحقُّ البصيرةِ يُشهدُكَ وجودَهُ، لا عدمَكَ ولا وجودَكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(شعاع البصيرة)، ويعبر عنه بنور العقل، وبعلم اليقين، (يشهدك قربه منك، وعين البصيرة)، ويعبر عنه بنور العلم وبعين اليقين، (يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة)، ويعبر عنه بنور الحق وبحق اليقين، (يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك)، والحاصل أن السالك

يهتف على قلبه أنوار إلهية يعبر عنها بهذه العبارات، ويترتب على كل واحد ثمرات وفوائد.

قال بعضهم: "ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه" فعند ذلك تذوب النفس وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها، وبين المصنف ﷺ أن الذي ينكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك ونتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. والذي ينكشف بالثاني عدمية كل موجود في وجود الحق تعالى، فيشهد الأكوان عدمًا فلا يعبأ بها، ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية، والوجود الحقيقي له سبحانه، وثمرة ذلك ألا يبقى في نظرك ما تستند إليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام، والذي ينكشف بالثالث الذات المقدسة وثمرة ذلك الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء، فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكًا في وجود سيده، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية.

فإذا ترقى عن ذلك حل في مقام البقاء، قال صاحب العوارف: "والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق والفاني محجوب بالحق عن الخلق".

الحكمة السادسة والأربعون

«كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كان الله ولا شيء معه)، يعني أن هذا حال من هو متحقق بمقام الفناء، وهو عدم رؤيته غير مولاه، (وهو الآن على ما عليه كان) أي: إن الأمر الذي حصل لذلك المشاهد وهو أن الوجود الحقيقي له سبحانه وتعالى وغيره لا وجود له، وهو الوصف المتحقق له سبحانه في الواقع، وعدم إدراك ذلك له قبل ذلك، إنما هو لوجود الحجاب.

فقوله: (وهو الآن) أي: عند مشاهدة هذا السالك له على هذا الوصف (على ما عليه كان) أي: هو متصل به في الواقع، وقيل إدراك هذا المشاهد له.

لكن عدم إدراكه ذلك إنما هو للحجاب القائم به.

الحكمة السابعة والأربعون

«لا تَتَعَدَّ نِيَّة هِمَّتِكَ إلى غيرِهِ فالكريمُ لا تَتَخَطَّاهُ الآمالُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تتعدي نية همتك) أيها السالك (إلى غيره)، بأن تتوجه إلى غيره لتحصيل حاجتك، بل اطلب حوائجك منه، (فالكريم لا تتخطاه الآمال)، فالهمة العالية تأنف من رفع حوائجها إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة إلا الله. إذ الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد أوفى، وإذا أعطى زاد على ما انتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا جُفي عاتب، وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، وهذه الصفات لا يستحقها حقيقة إلا هو.

فينبغي ألا تتخطاه آمال المؤملين إلى غيره.

واعلم أن الطلب من الخلق المنافي للعبودية هو الطلب منهم على وجه الاعتماد عليهم، والاستناد إليهم، والغفلة في حال الطلب عن الله تعالى، أما الطلب منهم من حيث كونهم أسبابًا ووسائط مع الاعتماد في نيل المطلوب على الله ورؤية أنه المعطي فليس منافيًا للعبودية.

الحكمة الثامنة والأربعون

«لا ترفعنَّ إلى غيرِهِ حاجةً هُوَ مُورِدُهَا عليكَ، فكيفَ يرفعُ غيرهِ ما كانَ هُوَ له واضِعًا؟ مَنْ لا يستطيعُ أنْ يرفعَ حاجةً عنْ نفسهِ فكيفَ يستطيعُ أنْ يكونَ لها عن غيرهِ رافعًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا ترفعن) أيها المريد (إلى غيره حاجة) أي: فاقة أو نازلة نزلت بك أي: لا تتوجه في زوالها إلى غيره وتطلب منه أن يرفعها عنك، فإن تلك الفاقة أو النازلة (هو موردها عليك) أي: منزلها بك (فكيف يرفع غيره ما كان) هو له (واضعًا)؟ إذ هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأيضًا (من لم يستطع أن يرفع حاجة عن نفسه) إذا نزلت به، (فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا) أي: فيستحيل ذلك لثبوت عجزه وضعفه.

وحاصله أن المرفوع إليه له حوائج لم يتوصل إليها، ولو كان ملكًا ولا شك أن نفسه أحب إليه من غيره، فلو كان له قدرة على نفع غيره لنفع نفسه، فلزم عجزه عن نفع غيره، إذ ما بعد العجز عن نفع النفس عجز، فيكون من قلة العقل تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك.

الحكمة التاسعة والأربعون

«إِنْ لم تُحسنْ ظنَّك بهِ لأجلِ وصفهِ حُسنَ ظنُّكَ بهِ لأجلِ معاملتهِ معكَ، فهلْ عَوَّدَكَ إلا حُسنًا؟ وهلْ أسدَى إليكَ إلا مِننًا؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه)، لأجل ما هو عليه من النعوت السَّنية والصفات العلية، فإن من كان متصفًا بأسنى الصفات لا يصدر منه إلا الجميل، سيما لمن ظن به الجميل، (فحسن ظنك به لوجود معاملته معك)، من إسباغ النعم وشمول الفضل والكرم، (فهل عودك إلا حسنًا، وهل أسدي إليك إلاّ مننًا) أي: نعمًا.

أشار بذلك إلى أن الناس في حسن الظن على قسمين:

خاصة.. وعامة.

فالخاصة: حسَّنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السَّنية والصفات العلية.

والعامة: حسَّنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم، وشمول الفضل والكرم، والتفاوت بين المقامين ظاهر، فكأنه قال: ينبغي لك أيها المريد أن تحسن ظنك بالله مطلقًا في إيصال المنافع ودفع المضار، وعدم الالتفات لغيره، فإن لم تقدر على حسن الظن الذي هو مقام الخاصة، فتلبس بمقام العامة وحسن الظن لوصفه ينتج لك محبته، وحسن الاعتماد والتوكل وحسن الظن به لوجود معاملته معك، ينتج لك شكر نعمته، والتشوق لورود فضله ورحمته.

الحكمة الخمسون

«العجبُ كُلَّ العجبِ ممن يهربُ مما لا انفِكاكَ لهُ منهُ، ويطلبُ ما لا بقاءَ لهُ معهُ فإنها ﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(العجب كل العجب لمن يهرب مما لا انفكاك له عنه)، وهو الله تعالى، بألا يفعل ما يقربه إليه، (ويطلب ما لا بقاء له معه)، وهو الدنيا، وكل شيء سوي المولى بأن يقبل على شهواته، ويتبع هواه (فإنها **﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾** [الحج:46])

أي: إن ذلك ناشئ من عمى قلبه، ووجود جهله بربه، لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني الذي لا بقاء له، على الباقي الذي لا انفكاك له عنه، ولو كانت له بصيرة، لعكس الأمر.

الحكمة الواحدة والخمسون

«لا ترحلْ من كونٍ إلى كونٍ فتكون كحمار الرحى يسيرُ، والذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتحلَ عنه، ولكنِ ارحلْ منَ الأكوانِ إلى المُكَوِّنِ ﴿وأنَّ إلى ربِّك المُنْتَهَى﴾»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا ترحل من كون إلى كون)، يعني أن العمل المصاحب للرياء ونحوه مذموم غير معتد به شرعًا، فإذا جاهد المريد نفسه حتى خلص من ذلك، ولكن قصد به الدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات، لم يزل مذمومًا أيضًا عند العارفين، والمحمود أن يقصد به وجه الله تعالى. ثم شبه المصنف ﷺ الرحيل من كون إلى كون بقوله: (فتكون كحمار الرحى) أي: الطاحون، (يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو المكان الذي ارتحل منه)، وكذلك الميل لطلب الجزاء فيه رحيل من كون وهو الرياء ونحوه إلى كون وهو ما ذكر من طلب الجزاء، وسببه بقايا النفس، فتطلب بعملها رتبة عند الله، وكل ذلك من الأكوان، والأكوان كلها متساوية في كونها أغيارًا، (ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)، بأن تخلص عملك لمولاك وحده دون حظ عاجل أو آجل، فمن عمل لأجل الدرجات أو المقامات، فهو عبد لها، ومن عمل لله فهو عبد لله، وهو راحل من الأكوان إلى المكون،﴿**وأن إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى**﴾ [النجم: 42]، فقد انتهي سيره إلى الله، وصار متحققًا بمعني هذه الآية.

بخلاف المرتحل من كون إلى كون، فإنه غير منتهي له، ولا واصل إليه.

الحكمة الثانية والخمسون

«وانظر إلى قولهﷺ: فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام: فهجرته إلى ما هاجر إليه، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(انظر إلى قوله ﷺ: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله) أي: بالقصد والنية، (فهجرته إلى الله ورسوله) في الواقع ونفس الأمر، فهي محمودة معتد بها، (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها (يتزوجها) فهجرته إلى ما هاجر إليه)،(فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل هذا الأمر أن كنت ذا فهم).

يعنى أن في هذا الحديث تنبيهًا على المعنى المذكور، وموضع الاعتبار والتأمل هو الشيء الثاني، أعني فهجرته إلى ما هاجر إليه، فإن معناه أنه لا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به من هاجر إلى الله ورسوله، وكأنه ﷺ نبه بالدنيا والمرأة على حظوظ النفس بالوقوف معها كائنة ما كانت، فقوله (فهجرته إلى الله ورسوله)، هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون الذي هو مطلوب من العبد، وهو مصرح به، وقوله (فهجرته إلى ما هاجر إليه) وهو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها، وهو مشار به غير مصرح، ولما كان حاصل ما تقدم طلب رفعة الهمة عن الخلق وتعلقها بالملك الحق.

الحكمة الثالثة والخمسون

«لا تَصْحَبْ منَ لا يُنْهِضُكَ حالُه، ولا يَدُلُّكَ على الله مقالُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

وأبلغ ما يوصل إلى هذه المرتبة (يعنى المرتبة السابقة في الحكمة السالفة)، صحبة العارفين بالله تعالى، أمر بها ضمن قوله: (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله)، بألا يكون حاله وهمته متعلقة بالله، ومقاله لا يدل عليه، وإن كان من العباد والزهاد فصحبته للمريد منهي عنها، بخلاف صحبة من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله، بأن تكون همته متعلقة بالله مرتفعة من المخلوقين، لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى، ولا يتوكل في أموره إلا عليه سبحانه وتعالى، قد سقط الناس من عينه، فلا يرى فيهم ضرًا ولا نفعًا، وسقطت نفسه من عينه، فلا يشاهد لها فعلاً ولا يقضي لها حظًا، ويكون في جميع أعماله جاريًا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط. وهذه صفات العارفين بالله تعالى، فصحبة من هذه حاله وإن قلت عبادته ونوافله مأمور بها للمريد؛ لأنها جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية. إن الطبع يسرق من الطبع بخلاف من لم يكن على هذا الوصف، وكان شأنه المعاملة الظاهرة لا غير، فلا فائدة في صحبته.

الحكمة الرابعة والخمسون

«رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا، فأراكَ الإحسانَ منكَ صُحْبَتُكَ إلى منْ هُوَ أسوأُ حالاً مِنْكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ثم لا يخلو إما أن يكون (يعنى الصاحب المقصر ذاك)، مثلك، فلا يحصل لك من صحبته ضرر، وإما أن يكون دونك وهو ما أشار إليه بقوله: (ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان صحبتك من هو أسوأ منك حالًا)، يعني أن صحبة من هو دونك ضرر محض، لأنه تغطي عنك عيوبك وتبين لك كمالك وتقنع بأحوالك، والرضا عن النفس ورؤية إحسانها أصل كل شيء، فإن أردت ولا بد أن تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله، فاصحب مثلك حتى تكون في صحبته لا لك ولا عليك.

ثم اعلم أن صحبة العارفين على قسمين:

صحبة إرادة... وصحبة تبرك.

فصحبة الإرادة هي التي يشترط لها الشروط المعروفة التي حاصلها أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل.

وصحبة التبرك هي التي يكون القصد بها الدخول مع القوم والتزيي بزيهم والانتظام في سلك عقدهم، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع. ولعله بمخالطة الطائفة تعود عليه بركتهم، ويصل إلى ما وصلوا إليه.

يقول السياجي يغفر الله له: "هم القوم لا يشقي بهم جليسهم".

الحكمة الخامسة والخمسون

«مَا قَلَّ عملٌ بَرَزَ مِنْ قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قلبِ راغبٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما قل عمل برز من قلب زاهد) أي: غير متعلق في الدنيا، بل هو وأن كان قليلًا في الحس كثير في المعني لسلامته من الآفات القادحة في قبول الأعمال من الرياء والتصنع للناس وطلب الأعراض الدنيوية وعدم حضور القلب مع المولي في حال فعله لقلة الوساوس الشيطانية الناشئة من حب الدنيا.

(ولا كثر عمل برز من قلب راغب) في الدنيا، بل هو وأن كان كثيرًا في الحس قليلًا في المعني لعدم سلامته مما ذكر، وقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا.

الحكمة السادسة والخمسون

«حُسْنُ الأعمالِ نتائجُ حُسْنِ الأحوالِ وحسنُ الأحوالِ مِنَ التَّحقُّق في مقاماتِ الإنزال»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(حسن الأعمال)، بخلوها مما يعوقها عن القبول من الرياء وغيره وحضور القلب مع الله في حال فعلها وعدم اشتغاله بغيره من الوساوس الشيطانية، (نتائج حسن الأحوال)، القائمة بالقلوب من الزهد في الدنيا والإخلاص لله بأن يقصد بعمله عبوديته لله تعالى، لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل.

(وحسن الأحوال) ناشئ (من التحقق في مقامات الإنزال) أي: في المقامات التي تنزل في قلوب العارفين، وهي معارف إلهية يوردها الله تعالى على القلوب تكون سببًا في ترك الدعوى وعدم الالتفات إلى جنة أو هرب من نار، فإن المريد إذا حصل له ذلك راقب مولاه بقلبه، فلا يقصد بعمله غيره، وإذا حصل ذلك، تخلص العمل مما يعوقه عن القبول، وهذه الحكمة كالدليل لما قبلها.

الحكمة السابعة والخمسون

«لا تَتْرُكْ الذِّكْرَ لعدمِ حضورِ قلبكَ مع الله فيهِ لأن غفلتَكَ عن وجودِ ذِكْرِهِ أشدُّ من غفلتِكَ في وجودِ ذكرهِ، فعسى أن يرفعَكَ من ذكرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ ومن ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ إلى ذكرٍ مع غيبةٍ عمَّا سوى المذكورِ، ﴿وما ذلك على الله بعزيزٍ﴾»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تترك) أيها المريد (الذكر)، بل لازمه وداوم عليه، فإنه أقرب الطرق إلى الله تعالى،وعلامة على وجود ولايته، فمن وفق للذكر أعطي منشور الولاية، فلا تتركه (لعدم

حضورك)أي: حضور قلبك (مع الله فيه)، بأن كان مشتغلاً بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية، (لأن غفلتك عن وجود ذكره) بأن تتركه (أشد من غفلتك) الحاصلة (في وجود ذكره)، لأن ترك الذكر فيه بعد عن الله بالقلب واللسان، بخلاف الذكر، فإنك أن بعدت عنه بقلبك فأنت قريب بلسانك، فعليك أن تذكر الله به، وإن كان قلبك غافلًا حال الذكر، (فعسي أن يرفعك) أي: يرقيك (من ذكر مع وجود غفلة) عن المولي، (إلى ذكر مع وجود يقظة) أي: تيقظ لما يناسب حضرته سبحانه من الأدب وعدم الاشتغال عنه بغيره، (ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور)، بأن يدخل القلب حضرة الرب فيراقبه حال ذكره ولا يغفل عنه، (ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور)، وهو الله بأن يفنى حتى عن الذكر فيصير يخرج من الذكر من غير قصد وحينئذ يكون الحق لسانه الذي به ينطق، فإن بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها، وإن سمع كان سمعه كالئ@ يسمع به، وهذه المعالم والمراقي لا يعرف حقيقتها إلا السالكون وجدانًا والعلماء إيمانًا وتصديقًا، فإياك والتكذيب بشيء من ذلك فتهلك مع الهالكين، ولما كان المريد ربما يستبعد الوصول إلى ذلك نهاه بقوله: (وما ذلك على الله بعزيز)، لأنه قادر على كل شيء.

فعلى المريد القيام بالأسباب ومن الله الوصول ورفع الحجاب.

الحكمة الثامنة والخمسون

«من علاماتِ موتِ القلبِ عدمُ الحُزْنِ على ما فاتَكَ منَ الموافقاتِ، وتركُ النَّدمِ على ما فعلتَ من وجودِ الزَّلاتِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من علامات موت القلب) أي: قلب المريد (عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات) أي: الطاعات، (وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات) أي: من الزلات التي توجد منك وعلامة حياته بالأنوار الإلهية، وإن لم تدركها لغلظ حجابك.

أما حزنك على ما فاتك من الطاعات، وندمك على ما فعلت من الزلات، فتفرح بصدور الأعمال منك فرحًا شديدًا، وتغتم على صدور المخالفات، فذلك دليل على أنك من أهل الإرادة المحبوبين لله، فجد في السير ولا تكسل.

الحكمة التاسعة والخمسون

«لا يعظمُ الذنبُ عِنْدَكَ عظمةً تصدُّكَ عن حُسْنِ الظنِ بالله تعالى، فإنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ استصغرَ في جنبِ كرمِهِ ذَنْبَهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله)، بأن يوقعك في اليأس والقنوط، فهذه غفلة مذمومة قادحة في الإيمان، وهي شر عليك من ذنوبك، وسببها جهلك بصفة مولاك ووقوفك مع نفسك، (فإنه من عرف ربه) معرفة حقيقية (استصغر في جنب كرمه ذنبه)، فأي ذنب لا يسعه عفوه سبحانه؟!

أما عظمة الذنب التي تحمل مرتكبه على التوبة منه والإقلاع عنه، وصدق العزم على ألا يعود إلى مثله، فهي عظمة محمودة، وهي من علامات إيمان العبد.

قال ابن مسعود: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل خاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، قال به هكذا فأطاره".

ويقال: إن الطاعة كل ما استصغرت، كبرت عند الله، وإن المعصية كل ما استعظمت صغرت عند الله.

الحكمة الستون

«لا صَغِيرةً إذا قابلَكَ عَدْلُهُ، ولا كبيرةً إذا واجَهَكَ فَضْلُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا صغيرة) من ذنوبك، بل كلها كبائر (إذا قابلك عدله)، وهو تصرفه في ملكه من غير هجرة عليه، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله تعالى ومقته بطلب حسناته، عادت صغائره كبائر، (ولا كبيرة إذا واجهك فضله)، وهو إعطاء الشيء بغير عوض، بل جميع ذنوبك حينئذ صغائر، فإذا ظهرت صفة الفضل لمن أحبه، اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر، ولذا قال الشاذلي قدس الله سره: واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت.

الحكمة الواحدة والستون

«لا عملَ أرجى للقلوبِ من عملٍ يغيبُ عنك شهودُهُ، ويَتَحَقَّرُ عندك وجودُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا عمل أرجي للقبول) أي: لقبول الله له (من عمل يغيب عنك شهوده)، بأن تشهد بأن الذي وفقك له هو الله تعالى، ولولاه ما صدر منك ذلك العمل، (ويحتقر عندك وجوده)، بألا تعتمد عليه في تحصيل أمر من الأمور كالوصول إلى الله والقرب منه، ونيل الدرجات والمقامات لرؤيتك والتقصير فيه وعدم سلامة من الآفات المانعة من قبوله.

وفي بعض النسخ (يقول الشرقاوي): أرجى للقلوب أي: لصلاحها.

يقول السياجي يغفر الله له:

(لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده) أي: يعمل في الخفاء، فلا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، فتتجنب آفة الرياء والسمعة، وكالصلاة بالليل والناس نيام، فلا شهود على صلاتك إلا من صليت له وطرقت في أنوار السحر أبوابه حتى يفتح لك من أنوار قدسه، وفيوضات كراماته.

الحكمة الثانية والستون

«إنَّما أوردَ عليكَ الواردَ لتكونَ بهِ عليهِ وارِدًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إنما أورد عليك) أيها المريد (الوارد)، يطلق الوارد على ما يتحف الله عبده من العلوم الوهبية والأنوار العرفانية التي ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه، فيري الحق حقًا والباطل باطلًا، ويطلق على تجل إلهي يرد على القلب، وإن لم يشعر به العبد لغلظ بشريته.

وقد يعبر عنه بالحال، وهذا هو المراد هنا (لتكون به عليه واردًا) أي: مقبلًا على الدخول في حضرته، ومعلوم أن الدخول في تلك الحضرة لا يكون إلا لقلب خالص مما يكدره.

الحكمة الثالثة والستون

«أورد عليكَ الواردَ ليَتَسَلَّمَكَ من يَدِ الأغيارِ، وليُحَرِّرَكَ من رِقِّ الآثارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار).

الأغيار والآثار هي الأغراض الدنيوية وشهوات النفوس، فهي غاصبة لك لحبك لها، وسكونك إليها، واعتمادك عليها.

فأورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك، ويحررك من ملكية من استرقك، فلا يكون للمخلوق فيك نصيب ولا شركة، وتكون سالمًا لله عز وجل، فتصلح للحضور معه.

الحكمة الرابعة والستون

«أوردَ عليكَ الواردَ، ليُخْرِجَكَ من سِجنِ وجودِكَ إلى فضاءِ شُهُودِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك)، أي صفاتك القائمة به، المانعة لك من شهود مولاك، كالسجن المانع للمسجون من الخروج (إلى فضاء شهودك) أي: شهودك للمولى الشبيه بالفضاء لعدم وجود شيء يحول عن الرؤية.

قال بعضهم: سجنك نفسك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد، وهى الدخول في حضرة الرب، ويصح أن يكون المعنى: أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا أي: مقبلاً عليه بالاشتغال بالطاعة وأنواع المجاهدات، فتشتغل بذلك مع بقائك بأوصاف نفسك وشهواتها المقتضية عدم الإخلاص في العبادة فيرد عليك وارد آخر ليخلصك من ذلك ويحصل لك الإخلاص.

فإذا حصل لك ربما تركن إليه وتعتمد عليه في قبول أعمالك ووصولك بها إلى حضرة قربه، وذلك باطل، فيرد عليك وارد ثالث تغيب به عن رؤية نفسك وتشاهد به مولاك بسرك، وتكون سالمًا لله عز وجل، فتصلح للحضور معه.

الحكمة الخامسة والستون

«الأنوارُ مَطَايَا القلوبِ والأسرارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الأنوار) الإلهية التي ترد على قلب المريد من حضرة الرب وتحصل غالبًا من الأذكار والرياضات (مطايا القلوب) توصلها إلى مطلوب التي هي متوجهة له وهو دخولها حضرة الرب، والقرب منه كتوصيل المطية راكبها إلى مطلوبه، (والأسرار) أي: مطايا الأسرار أيضًا جمع سر،

وهو باطن القلب عند الصوفية ولا التفات لمن جعله عين القلب؛ لأنه خلاف اصطلاحهم.

الحكمة السادسة والستون

«النُّورُ جُنْدُ القلبِ كمَا أنَّ الظُّلمةَ جُنْدُ النَّفسِ، فإذا أرادَ الله أنْ ينصرَ عبدَهُ أَمَدَّهُ بجنودِ الأنوارِ، وقطعَ عنهُ مَدَدِ الظُّلَمِ والأغيارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(النور جند القلب) أي: يتوصل به إلى ما يقصده ويتوجه إليه، وهو حضرة الرب كما يتوصل الأمير بجنده إلى ما يقصده من غلبة عدوه، وهذا مستفاد مما قبله، وإنما أتى به توطئة لقوله: (كما أن الظلمة) وهي طبيعة العبد (جند النفس) تتوصل بها إلى مقصودها وهي الشهوات والأغراض العاجلة، ومازالت الحرب واقعة بين القلب والنفس (فإذا أراد الله أن ينصر عبده) أي: يعينه على نفسه وقمع شهواتها، (أمده) أي: أمد قلبه (بجنود الأنوار) أي: بجنود هي الأنوار، أو بالأنوار الشبيهة بالجنود، فإنها إذا حصلت له أدرك قبح الشهوات العائقة عن الوصول إلى الله تعالى، (وقطع عنه مدد الظلم والأغيار) أي: مددًا هو الظلم والأغيار، وهما بمعني واحد، وإذا أراد خذلانه فعلى العكس من ذلك، فإذا مال القلب إلى عمل صالح كصوم غد ومالت النفس إلى شهوة كالفطر وتنازعًا وتقاتلًا، سارع النور الذي هو من الله تعالى ورحمة إلى نصرة القلب، والظلمة إلى نصرة النفس، وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجنديين، لا سبيل للعبد إلا فزعه إلى الله وتوكله عليه، وهكذا في كل عمل صالح إلى أن يصل إلى الله تعالى فينقطع حينئذ حكم النفس وتصير مقهورة مغلوبة.

الحكمة السابعة والستون

«النورُ له الكشفُ والبصيرةُ لها الحُكْمُ، والقلبُ له الإقبالُ والإدبارُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(النور) الذي يفيضه الله على قلب المريد (له الكشف) أي: كشف المعاني والمغيبات كحسن الطاعة وقبح المعصية، (والبصيرة) التي هي نظر القلب (لها الحكم) أي: إدراك ذلك ومشاهدته، فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرية كسراج أو شمس، فإنه لا يمكن إدراك البصرية لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية، (والقلب له الإقبال والإدبار)

على ما كشف للبصيرة، فإذا كشف لها عن حسن الطاعة وقبح المعصية، أقبل القلب على الطاعة وأحبها، فتتبعه الجوارح وأدبر عن المعصية، فلا تتلبس بها الجوارح.

هذا ويحتمل أن المعنى أن النور له الكشف عن المغيبات كأسرار القدر، وأنه يحصل في العالم كذا، (والبصيرة لها الحكم) أي: إدراك ذلك، ثم هذا الكشف والإدراك قد لا يكونان تامين، فينبغي للمكاشف أن يثبت في كشفه ولا يعمل بمقتضى ما كشف له ولا يخبر بشيء حتى يستفتي قلبه، إما أن يقبل وإما أن يدبر، ولذا تجد بعض الأولياء يخبر عن أمور لا تقع، وذلك لعدم تثبته في كشفه.

الحكمة الثامنة والستون

«لا تُفْرِحُكَ الطَّاعةُ لأنها برزتْ مِنْكَ، وافرحْ بها لأنها برزتْ مِنَ الله إليكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك) أي: من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك، فهذا فرح مذموم منهي عنه محبط لها، ولكن (افرح لأنها برزت من الله إليك) أي: من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلًا، فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد وهو مقتضى شكرها، ثم استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، [يونس: 58] فإيصال تلك الطاعة إليه وإظهارها على يده، اعتناءً من الله سبحانه وتعالى.

فينبغي أن يفرح بها من تلك الحيثية، لا من حيثية صدورها منه وفعله لها.

الحكمة التاسعة والستون

«قطعَ السائرينَ لهُ والوَاصِلينَ إليهِ عن رُؤْيَةِ أعمالِهِمْ وشُهُودِ أحوالِهِمْ. أمَّا السائرونَ، فلأنَّهُمْ لم يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ معَ اللهِ فيهَا، وأما الواصلونَ فلأنَّه غَيَّبَهُمْ بشُهُودِهِ عَنْهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قطع) أي: حجب ومنع (السائرين له، والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم)، الظاهرية، (وشهود أحوالهم) القلبية، لكن السبب في انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف. (أما السائرون،

فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها)، وذلك لرؤيتهم نقصها بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها، فهم دائمًا متهمون نفوسهم في توفية أعمالهم حقها، وفي صفاء أحوال قلوبهم، فكان ذلك سببًا في البراءة من رؤيتها وشهودها، (وأما الواصلون، فلأنه غيبهم بشهوده عنها) أي: لأنهم نسبوها إليه تبرؤا من حولهم وقوتهم، فقطعهم عن ذلك شهودهم له في حضرة قربه، ومن شاهد لم يشاهد معه غيره، وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين، حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم، إلا أنه فعل ذلك بالسالكين كرهًا، وبالواصلين طوعًا، ولا شك أن هذا المقام أرقى من الأول، ولهذا لما سأل الواسطي أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها، قال لهم: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها! يريد بذلك ترقي همتهم إلى مقام العرفان، لا تحقير ما هم عليه، فإنه من الإحسان.

الحكمة السبعون

«ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلا على بِذْرِ طَمَعٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما بسقت)، يقال: بسقت النخلة بسوق، إذا طالت أي: ما طالت (أغصان ذل إلا على بذر طمع)، شبه الذل بشجرة ذات أغصان وفروع، استعارة بالكناية، والأغصان تخييل باقٍ على حقيقته، أو مستعار لأنواع الذل، وبسقت ترسيخ باقٍ على حقيقته، أو بمعنى وجدت وحصلت، وشبه الطمع بالنواة التي تنشأ عنها الشجرة، فإضافة بذر له من إضافة المشبه به للمشبه أي: طمع شبيه بالبذر أي: المبذور الذي تنشأ عنه الشجرة ذات الأغصان، فكأنه يقول: لا تغرس بذر الطمع في قلبك فيخرج منه شجرة الذل وتتشعب أغصانها وفروعها، ولو قال: ما بسقت شجرة الذل لكان أولى؛ لأن الذي يتصف بالطول وينشأ عن البذر هو أصل الشجرة، ووصف الأغصان بذلك بطريق التبع. فالطمع من أعظم العيوب القادحة في العبودية، بل هو أصل جميع الآفات؛ لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه.

وسببه الشك في المقدور، ولذا قال بعضهم: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في

المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان، فالطامع لا محالة فاسد الدين، ولذا دخل عليٌّ بن أبي طالب ﷺ جامع البصرة فوجد القصاصين يقصون، فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصري، فقال: يا فتى، إني أسألك عن أمر، فإن أجبتني فيه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك.

وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا، فقال الحسن: سل عما شئت، قال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: اجلس، فمثلك من يتكلم على الناس.

والورع الذي يقابل الطمع هو ورع الخاصة، هو صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وطمأنينة القلب به، لا ورع العامة، وهو ترك الشبهات، وعلى هذا، فيقال قياسًا على ما قاله المصنف ﷺ: "ما بسقت أغصان عزٍّ إلا على بذر ورع".

الحكمة الواحدة والسبعون

«ما قَادَكَ شيءٌ مِثَلُ الوهمِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"ما قادك شيء مثل الوهم"، يعني أن الوهم سبب في الطمع في الناس، وذلك كاف في قبحه؛ لأن الوهم الذي أصله شيء عدمي، إذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديري، لكن النفوس منقادة له أتم من انقيادها إلى العقل.

ألا ترى إلى الطبع ينفر من الحية لتوهم الضرر فيها، بل من الحبل المبرقش لكونه على صورتها!

ولو انقادت للعقل لم تنفر لأن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، فلا يسلم من الطمع في الخلق والرغبة فيما بأيديهم إلا أهل الورع الخاص، وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقط من قلوبهم علاقات الخلق، فلا يهتمون للرزق.

الحكمة الثانية والسبعون

«أنتَ حُرٌّ مما أنتَ عنه آيِسٌ، وعبدٌ لما أَنْتَ فيهِ طَامِعٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أنت حر مما أنت عنه آيس) أي: من كل ما أنت آيس منه، (وعبد لما أنت فيه طامع)

أي: من كل ما أنت طامع فيه، فعز بمعنى من، وفي هذا دليل آخر لقبح الطمع ومدح الإياس من الخلق، والقناعة بالرزق المقسوم، وبيانه أن الطمع في الشيء عبودية، كما أن اليأس في الشيء حرية منه؛ لأنه يدل على فراغ القلب منه وغناه عنه.

فالطامع عبد واليائس حر، ولذلك قيل: "العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع".

والقناعة هي السكون عند عدم المألوف وهي أول الزهد.

الحكمة الثالثة والسبعون

«مَنْ لمْ يُقْبِلْ على الله بِمُلاطَفَاتِ الإحسانِ قُيِّدَ إليه بسلاسلِ الامتحانِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان) أي: بملاطفاته إياه بأنواع الإحسان، (قيد إليه بسلاسل الامتحان) أي: بالامتحانات والمصائب الشبيهة بالسلاسل، يعني أن المقتضي لإقبال المريد وغيره على الرب بأنواع الطاعات والتضرع إليه، وجمعية القلب عليه أمران:

الأول: إيراد النعم عليه، فيشكر الله عليها ويقبل على خدمته.

والثاني: إنزال المصائب في بدنه وماله، فيرجع إلى الرب ويتضرع إليه برفعها، وربما كان ذلك سببًا في ترك الاشتغال بالدنيا والتعلق به سبحانه، ومراد الرب من العبد رجوعه إليه طوعًا أو كرهًا.

الحكمة الرابعة والسبعون

«مَنْ لمْ يَشْكُر النِّعَمَ فقدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ومَنْ شَكَرَهَا فقدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)، يعني أن شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها، قال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [إبراهيم: 7]، وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: 11] أي: إذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله ما منه من الإحسان والكرم والشكر إما بالقلب بأن تعلم أن النعم كلها من الله تعالى. قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾، [النحل: 53] وإما باللسان بأن تتحدث بنعمة الله، قال

تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: 11]، وإما بالجوارح بأن تصرفها في طاعة الله، وتكفها عما لا يرضيه.

الحكمة الخامسة والسبعون

«خَفْ مِنْ وُجُودِ إحسانِهِ إليكَ، ودوامِ إساءتِكَ معه أن يكونَ ذلكَ استدراجًا: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[القلم:44] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(خف من وجود إحسانه إليك ودوام) أي: مع دوام (إساءتك معه) أي: مخالفتك له (أن يكون ذلك استدراجًا) أي: تدريجًا شيئًا فشيئًا حتى يأخذك بغتة، وهذا جواب سؤال ناشئ مما قبله حاصله، إنا نرى كثيرًا من الناس لا يشكر النعم ولا تزول عنه؟ فأجاب بأن ذلك ربما كان استدراجًا ومكرًا من الله به، قال تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ ،أي ندرجهم في ذلك شيئًا فشيئًا حتى نأخذهم بغتة ﴿**مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 182] ، [القلم: 44] أي: أنه استدراج ومكر أي: لا يشعرون بذلك؛ لأنه يأخذهم بغتة، وقيل: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعم وحجبوا عن الشكر، أخذوا، وقيل: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة.

الحكمة السادسة والسبعون

«مَنْ جَهْلِ المريدِ أنْ يُسِيءَ الأدبَ فَتُؤَخَّرُ العقوبةُ عنه فيقولُ: لو كانَ هذا سوءُ أدبٍ لقَطَعَ الأمدادَ، وأوجبَ البُعَادَ، فقد يُقْطَعُ المددُ عنه من حيثُ لا يشعرُ، ولو لم يكنْ إلا منعُ المزيد. وقد تُقَامُ مقامَ البُعْدِ وأنتَ لا تَدْرِي، ولوْ لم يَكُنْ إلا أن يُخَلِّيكَ وما تُرِيدُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله..

(من جهل المريد أن يسيء الأدب)، إما مع الله تعالى كالاعتراض عليه وتعاطي التدبير معه، والتضرر بأحكامه المؤلمة له في نفسه أو غيره وتصريح لسانه بالشكوى إلى الخلق، أو مع المشايخ كالاعتراض عليهم وعدم قبول إشارتهم فيما يشيرون به عليه، فقد قالوا: عقوق الأستاذين لا توبة له، وقالوا أيضًا: من قال لأستاذه "لِمَ" فإنه لا يفلح. وقال القشيري: من صحب شيخًا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة

وإن بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده. فليعلم أن موجب حجبه اعتراض من خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين، وإما مع بعض الناس بالاعتراض عليهم، كما وقع للجنيد، أنه رأى فقيرًا يسأل الناس فقال في نفسه: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه لكان أجمل به، فثقلت عليه أوراده في تلك الليلة ورأى جماعة أتوا له بهذا الفقير على خوان وقالوا له: كل لحمه، فقد اغتبته، فأصبح يفتش عليه حتى وجده فسلم عليه، فقال له: تعود يا أبا القاسم؟ فقال: لا، فقال: غفر الله لك. وإما مع نفسه، كأن يتعاطى شهواته المباحة ولا ينهض إلى ما يقربها من مولاها، (فتؤخر العقوبة عنه)، بألا يعاقب في ظاهره بالبلايا والأسقام، ولا في باطنه بحسب زعمه، (فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد) الوارد عليَّ من حضرة الحق، (وأوجب الإبعاد) أي: بعدي عنه بعدم حضوري معه، وهذا لازم لما قبله، (فقد) أي: إنما كان ذلك من الجهل؛ لأنه قد (يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن) من قطع المدد عنه، (إلا منع المزيد) أي: الزيادة من المدد لكان ذلك كافيًا في قطع الإمداد وقطعه مبدأ الحجاب، فإذا ابتدأ به المريد ولم تتداركه رحمة الله تعالى في الحال، إن ذلك موجب لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة، (وقد يقام مقام) أي: في مقام (البعد وهو لا يدري ولو لم يكن) من إقامته مقام البعد، (إلا أن يخليك وما تريد)، بأن يسلط عليك نفسك ويمنع نصرتك عليها، لكان ذلك كافيًا في البعد، فإن ذلك مبدأ للحجاب ومانع للقلب عن الدخول في حضرة الرب.

الحكمة السابعة والسبعون

«إذا رأيتَ عبدًا أقامَهُ الله بوجودِ الأورادِ، وأدامَهُ عليها معَ طُولِ الإمدادِ، فلا تستحقِرَنَّ ما منحَهُ مولاهُ؛ لأنَّكَ لم ترَ عليهِ سماتِ العارفينَ، ولا بهجةَ الْمُحِبِّينَ، فلولا واردٌ ما كانَ وِرْدٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى) أي: جعله قائمًا (بوجود الأوراد)، بأن أخطرها منه، (وأدامه عليها) أي: جعله مداوما عليها (مع طول الإمداد) أي: المعونة والتيسير وصرف الشواغل التي تشغله عن القيام بها. والمراد بطول ذلك تواليه عليه مع طول الزمان، فطوله بطول الزمان

الذي يحصل فيه، وهذه صفة العباد والزهاد (فلا تستحقرن ما منحه) أي: أعطاه (مولاه)، وعلل الاستحقار بقوله: (لأنك) أي: لكونك (لم تر عليه سمات العارفين) أي: علامتهم، من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والإيرادات ودوام الحضور بين يدي الله. (ولا بهجة المحبين)، وهي ما يعلوهم من شواهد المحبة وآثارها، فإن محبة الله إذا تمكنت من القلب خطرت آثارها على الجوارح، كدوام ذكره والمسارعة لامتثال أمره، والنهي عن غيره، فيجتهد في خدمته، ويتلذذ بمناجاته، ويؤثره على كل ما سواه.

ثم علل الاستحقار بقوله: (فلولا وارد) إلهي أورده الله على قلبه أي: تجلي إلهي (ما كان ورد)، وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات كصلاة وصيام وذكر.. إلى ما غير ذلك. أي فيكون احتقارك له بقلة الأدب معه، والحاصل أن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين: مقربين وأبرارًا، فالمقربون هم الذين أخذوا من حظوظهم وإرادتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلبًا لمرضاته، وهؤلاء هم العارفون والمحبون. والأبرار هم الباقون مع حظوظهم وإرادتهم وقاموا بعبادة ربهم طمعًا في جنته وهربًا من ناره، وكل واحد منهم ممدود في مقامه الذي هو فيه بمدد إلهي اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام.

الحكمة الثامنة والسبعون

«قومٌ أقامَهُمْ الحقُّ لخدمَتِهِ، وقومٌ اخْتَصَّهُمْ بمحبَّتِهِ: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء:20] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قوم أقامهم الحق) أي: اختارهم (لخدمته)، بطاعته الظاهرية حتى صلحوا لجنته وهم الزاهدون والعابدون، كما مر، (وقوم اختصهم بمحبته) حتى صلحوا لقربه والدخول في حضرته، وهم المحبون والعارفون، والكل مشتركون في الانتساب إليه وخدمته، لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح والآخرين أكثرها بالقلب ﴿كُلًا نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾) [الإسراء: 20] أي: ممنوعًا فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة والتخصيص، منعه ذلك عما ذكر من الاحتقار.

قال أبو يزيد: "اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة

صرفا فشغلهم بالعبادة".

الحكمة التاسعة والسبعون

«قَلَّمَا تأتِي الوارداتُ الإلهيَّةُ إلا بغتةً صِيانَةً لها لئلا يَدَّعِيهَا العبادُ بوجوبِ الاسْتعْدَادِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قلما تكون الواردات الإلهية) أي: قل حصولها (إلا بغتة) أي: غير بغتة، والمراد بها العلوم الوهبية والأسرار العرفانية التي يتحف الله بها عباده، ولا تكون في الغالب إلا بغتة أي: فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرها (لئلا يدعيها العباد) أي: يرون أنهم أهل لها (بوجود الاستعداد) لها بالاجتهاد في الأوراد والعبادات تمسكا بنحو قوله ﷺ: "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه"، وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به، فلا تحصل لهم معرفته الخاصة ولا واردات إلهية، وحاصله أن الواردات هدايا من الله تعالى وفتح منه، فلا تحصل عقب العبادات الصادقة وبنورها، بل تحصل بعد ذلك بغتة، وحصولها عقب العبادات نادر قليل.

الحكمة الثمانون

«منْ رأيتَهُ مُجِيبًا عنْ كُلِّ ما سُئِلَ، ومُعَبِّرًا عن كلِّ ما شَهِدَ، وذَاكِرًا لكلِّ ما عَلِمَ، فاسْتَدِلْ بذلكَ على وجودِ جهلِه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من رأيته) من المريدين أو العارفين (عن كل ما سئل مجيب) أي: سئل عنه من العلوم التي يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التي يخص بها العارفين، (ومعبرًا عن كل ما شهد) أي: شهده وذاقه بباطنه وهي تلك العلوم والمواهب، (وذاكرًا لكل ما علم) من تلك العلوم (فاستدل بذلك على وجود جهله)، لأن إجابته على كل سؤال تقتضي إحاطته بكل المعلومات، وذلك محال في حقه قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾، [الإسراء: 85] ولأنه يجب مراعاة حال السائل فقد لا تكون في بعض السائلين أهلية للمسئول عنه، فتكون إجابته مثله من الجهل وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من إفشاء السر الذي يجب كتمانه،

وقد قالوا: "قلوب الأحرار قبور الأسرار". والسر أمانة الله تعالى عند العبد، فإفشاؤه بالتعبير عنه خيانة وأيضًا فالأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والإيماء، واستعمال العبارة فيها إشهار لها، وفيه ابتذالها، ثم إن العبارة عنها لا تزيدها إلا غموضًا وانغلاقًا؛ لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراكها بالعبارات النطقية، وذكره (لكل معلوم له) دليل على عدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون فيها ما لا يصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والإفساد وإنكار الناس له.

قال ﷺ : "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه أنكره أهل العزة بالله".

وقال علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه:

يا رب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي — يرون أقبح ما يأتون حسنا

إني لأكتم من علمي جواهره — كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من العلم، أما أحدهما فبثثته للناس، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم مني هذا الحلقوم"، ولذا قتل الحلاج بإفشاء شيء من ذلك حيث قال: "ما في الجبة إلا الله" وذلك أن أهل الله يدركون وجود الله في الأشياء أي: قيامه بها وظهوره فيها، وهذا غاية ما يمكن أن يعبر به عن مقصودهم.

يقول السياجي يغفر الله له:

المقصود والمعنى في قولهم وجود الله في الأشياء أي: تجلي الله في إيجاد الأشياء وقيامه وآلائه في حسنها وإبداعها، وليس المقصود هو المعنى الحسي الملموس المادي.

يقول الشرقاوي يرحمه الله مستدركًا:

وإلا فهو أمر لا يدرك بالذوق وقد ذقناه بحمد الله. فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد، وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإفشائه بالعبارة وعموم ذكره.

الحكمة الواحدة والثمانون

«إنّما جعلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلاً لجزاءِ عِبَادِهِ المؤمنينَ؛ لأنَّ هذِهِ الدَّارَ لا تسعُ ما يريدُ أنْ يُعْطِيَهُمْ، ولأنَّه أجلُّ أقدارِهِمْ عَنْ أن يجازِيَهُمْ في دارٍ لا بقاءَ لهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إنما جعل) تعالى (الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين؛ لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم) من أنواع النعيم حسًّا ولا معني، أما الأول فلأنها ضيقة الأقطار، ويعطي الله لآحاد المؤمنين في الدار الآخرة في ملك واحد منهم مسيرة سبعمائة عام كما ورد في الخبر. فما ظنك بخواصهم فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم، أما الثاني فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والأشياء التي يتنعم بها أهل الجنة أمور شريطة رفيعة كما جاء في الأخبار: "إن موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس"، وما أشبه هذا (ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها)؛ لأن كل ما يفني وإن طالت مدته كلاشيء، بل أعطاهم الخلود في النعيم، والبقاء الدائم في الملك المقيم.

الحكمة الثانية والثمانون

«منْ وجدَ ثمرةَ عملِهِ عاجلاً فهو دليلٌ على وجُودِ القَبُول آجلاً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من وجد) من المريدين (ثمرة عمله) أي: من الحلاوة فيه والنعيم به (عاجلًا)، (فهو دليل على وجود القبول) أي: قبول الله له.

قال أبو تراب: "إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل. والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله، وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل، وذلك علامة وجود الجزاء عليه في الدار الآخرة كما سيأتي، وإذا وجد تلك الحلاوة لا ينبغي أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذا

لا ينبغي أن يقصد بعملها حصولها لما فيها من اللذة والحظ، فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بها لتكون ميزانًا لأعمال وتصحيحًا لأحواله فقط.

الحكمة الثالثة والثمانون

«إنِ أردتَ أنْ تعرفَ قَدْرَكَ عنده فانظر في ماذا يُقِيمَكَ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إن أردت أن تعرف قدرك عنده)، هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء، (فانظر في ماذا يقيمك) من طاعة أو ضدها، فمن كان من أهل السعادة والقبول استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات، ومن كان من أهل الشقاوة استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات، وهذا يناسب العامة، وأما الخاصة، فيقال فيه: إن أردت أن تعرف قدرك أي: منزلتك عنده، هل أنت من المقربين أو لا، فانظر في ماذا يقيمك؟ أي: يورده على قلبك من إدراك جلالته وعظمته.

قال عليه الصلاة والسلام: "من أراد أن يعلم منزلته عند الله فليعلم منزلة الله من قلبه".

الحكمة الرابعة والثمانون

«مَتَى رزقَكَ الطاعةَ والغِنَى به عنها، فاعلمْ أنَّه قد أسبغَ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى رزقك الله الطاعة) أي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي في ظاهرك، (والغنى به عنها)، بألا تركن إليها في نيل مطلوبك، بل تعلق قلبك بمولاك، وغيب عن كل شيء سواه، (فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة)، وهي تلك الطاعة، (وباطنة)، وهي معرفتك التي أوجبت لك الغيبة عنها وعدم رؤيتها.

الحكمة الخامسة والثمانون

«خيرُ ما تطلبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالبُهُ مِنْكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(خير ما تطلبه منه) أي: أفضل الأشياء التي تطلبها منه (ما هو طالبه منك)، من الاستقامة على سبيل العبودية له، فهذا أخير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك، دنيوية كانت أو أخروية، فإن في ذلك حظًا لنفسك.

الحكمة السادسة والثمانون

«الحزنُ على فُقدانِ الطاعةِ معَ عدمِ النهوضِ إليها من علامةِ الاغْتِرَارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الحزن على فُقدان الطاعة)، بضم الفاء وكسرها أي: عدم وجودها في الحال، (مع عدم النهوض إليها) في المستقبل (من علامات الاغترار) أي: التعويل على ما لا حقيقة له، وهذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب كما قيل: "كم من عين جارية وقلب قاس"، وهو من مكر الله الخفي، حيث منعه ما ينفعه وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء، فإنه قد يستحسن بذلك حاله، ويعد نفسه شيئًا.

أما الحزن الصادق وهو الذي يبعث على الطاعات، ويكون معه البكاء الصادق، فهو من مقامات السالكين.

قال أبو على الدقاق: "صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين".

الحكمة السابعة والثمانون

«ما العارفُ منْ إذا أشارَ وجدَ الحقَّ أقربَ إليه من إشارتِهِ، بل العارفُ منْ لا إشارةَ له لفنائِهِ في وُجودِهِ، وانطوائِهِ في شُهودِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما العارف من إذا أشار) إلى شيء من أسرار الحق سبحانه، (وجد الحق أقرب إليه من إشاراته)، بأن كان حاضرًا معه لم يغب عنه، بل هو ملاحظه في حال إشاراته، وأقرب إليه منها، فهذا ليس بعارف حقيقة لبقائه مع نفسه، لأنه حينئذ ملاحظ أن هناك مشيرًا ومشارًا إليه، ومشارًا به، وما دام يتعقل أنه مشير والحق مشار إليه، وذلك الكلام الذي صدر منه إشارة، فهو إلى الآن لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، والإشارة ألطف من العبارة؛ لأنها إيماء فقط

وتلويح لا تصريح، وهي التي يستعملها أهل الطريق رضي الله عنهم فيما بينهم عند ذكرهم لما يفتح الله به عليهم من الأسرار التوحيدية، والعلوم اللدنية، والمواجيد والأذواق.

فالمشير إلى شيء من الملاحظ لإشارته وإن وجد الله تعالى أقرب إليه منها بأن لم يغب عنه في حال الإشارة غير عارف على التحقيق؛ لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار، (بل العارف) حقيقة (من لا إشارة له) أي: من لا يشهد أن له إشارة، وإن وقعت منه (لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده). الضمير لذلك العارف وفي بمعنى عن أي: لفنائه عن وجود نفسه وانطوائه عن شهودها، ويحتمل عوده للحق سبحانه وتعالى أي: إن العارف حقيقة هو الذي غاب عن الإشارة، والمشير والمشار به، فإذا وقعت منه إشارة لا يشهدها ولا يشعر بها لكون المشير والمشار إليه حينئذ هو الله تعالى؛ لأن العارف حينئذ في مقام الجمع، ومن كان كذلك فهو غائب عن رؤية نفسه.

قال الشيخ أبو يوسف العجمي قدس الله سره: "من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم وإنما الحق سبحانه على لسان عبده، وهو قوله في الخبر المقدس: "فِبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق".

وسُئل بعضهم عن الفناء، فقال: هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكار، وتفنيه عن كل شيء، وعن عقله، وعن ونفسه، وفنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء فيغرق في التعظيم.

الحكمة الثامنة والثمانون

«الرجاءُ ما قارنه عملٌ، وإلا فهوَ أَمْنِيَّةٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الرجاء) أي: الحقيقي (ما قارنه عمل) أي: ما كان باعثًا على الاجتهاد في الأعمال كما مر في الحزن؛ لأن من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، (وإلا) يقارنه عمل، بل كان يفتر صاحبه عن العمل، ويجرئه على المعاصي والذنوب (فهو أمنية) أي: فليس برجاء حقيقة عند العلماء، بل هو أمنية واغترار بالله تعالى، ويقال له أيضًا رجاء كاذب.

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، [الأعراف: 169] والخلف؛ الرديء من الناس.

وقال ﷺ: "الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني".

الحكمة التاسعة والثمانون

«مطلبُ العارفينَ منَ الله الصدقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحقوقِ الرُّبُوبِيَّةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(مطلب العارفين من الله تعالى)، أعلى من مطلب غيرهم، سواء كان عابدًا أو زاهدًا أو عالما؛ لأن مطلبهم هو (الصدق في العبودية)، وهو التزام آدابها والتخلق بأخلاقها، والقيام بحقوق الله فيها، كالشكر على ما أولاه والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وترك الاختيار عليه، والتدبير معه، ودوام المراقبة له، والوقوف ببابه لابسًا ثوب التواضع والذلة، باسطًا يد الفقر، ماسكًا حبل الرجاء، مرتديًا برداء الخشية.. إلى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها، فمن صدق في ذلك كان موفيًا بما عاهد الله عليه، (والقيام بحقوق الربوبية) في ظاهرهم بالطاعة، وفي باطنهم بالمراقبة له، ودوام الحضور معه أي: أنهم لا يطلبون منه إلا هذين الأمرين من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس، بخلاف من عداهم، فإنه لم يفارق الحظوظ والأغراض في مطلبه، فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب.

قال أبو مدين قدس الله سره: "شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور".

الحكمة التسعون

«بَسَطَكَ كي لا يُبْقِيكَ مع القبضِ، وقَبَضَكَ كي لا يَتْرُكَكَ معَ البَسْطِ، وأخرجَكَ عنهما كي لا تكونَ لشيءٍ دُونَهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(بسطك) أيها العارف (كي لا يبقيك مع القبض)، الذي فيه قهر لنفسك، وإن كان فيه نفع لك كما سيأتي، (وقبضك كي لا يتركك مع البسط) الذي فيه حظ لها، (وأخرجك عنهما)

بفنائك عن نفسك وبقائك به (كي لا تكون لشيء دونه)، فلا تكون باقيًا مع شيء من أوصافك المؤلمة ولا المؤنسة، فإن ذلك حجاب لك عن ربك، ويسمي حالك حينئذ اعتدالًا لا قبضًا ولا بسطًا، والمعنى لون عليك الأحوال لتتمكن وتفني عنها، فالقبض لأهل البدايات من العارفين ولولاه لما انجمعت حقائقهم وانكفت عن العوائد والشهوات، والبسط لأهل الإشراق على مبادئ الفتح كي تسترسل قواهم وتستعين عوالمهم بما ترتاح إليه من نسمات الحق وشواهد رضاه، والاعتدال لأهل النهايات كي تستقيم أحوالهم، وتصفو أعمالهم، ويدومون بين يدي مولاهم بلا علة.

ويؤخذ من ذلك أن القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما لأنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده، لكنهما يتوصل بهما إلى التمكن، فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما، ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه، فهي أحوال المبتدئين من العارفين يتلونون فيهما كما يتلون المبتدئون من المريدين في الرجاء والخوف مصحوبان بتوقع أمر يحصل في المستقبل، فما معه توقع أمر محذور، فخوف أو محبوب، فرجاء، وما لا توقع معه فقبض في الأول، وبسط في الثاني، وسببهما الواردات التي ترد على باطن العارف وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الوارد وضعفه، فإذا تجلى في القلب وارد الجلال حصل فيه القبض.

وإذا تجلى فيه وارد الجمال حصل فيه البسط، فالقبض بوارد حاصل في الوقت وكذلك البسط؛ لأن العارف لا يهتم لنفسه حتى يراعي مستقبلات الأمور.

الحكمة الواحدة والتسعون

«العارفون إذا بُسِطُوا أخوفُ منهم إذا قُبِضُوا، ولا يقِفُ على حُدودِ الأدبِ في البَسْطِ إلا قليلٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(العارفون إذا بسطوا أخوف منهم) أي: أكثر خوفًا من أنفسهم (إذا قبضوا)، وذلك لملائمة البسط لهوى نفوسهم، فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات وغيرها، وربما كان في ذلك الطرد والبعد، وأيضًا قد يصدر منه في ذلك الوقت كلام لا

يليق بحضرة الرب جل جلاله، وحينئذ فيتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار، وذلك أمر عسير في هذا الحال.

الحكمة الثانية والتسعون

«البسطُ تأخُذُ النفسُ مِنْهُ حظَّهَا بوجودِ الفرحِ، والقبضُ لا حظَّ للنفسِ فيهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه).

في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط من الأمر اليسير، فلذا كان لا يقف عند حدود الأدب فيه إلا القليل بخلاف القبض، فكأنه يقول: إنما كان كذلك لأن النفس تأخذ منه حظها، ومن شأن النفس إذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق والدعوى بإظهار ما عندها من العلوم والفهوم والأحوال والأسرار والتحدث بالخصوصية والتلذذ بنسبة الخوارق، والإشارة إلى الكرامات وإدراك المقامات، كل على حسب حاله، وكل ذلك مناف للعبودية، بخلاف القبض، فإنه لا حظ للنفس فيه، فلا تتمالك أن تظهر شيئًا من ذلك، فهو أقرب للسلامة، ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية، ولذا آثره العارفون على البسط.

الحكمة الثالثة والتسعون

«رُبَّمَا أعطاكَ فمنعَكَ، ورُبَّمَا مَنَعَكَ فأعطاكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما أعطاك) شيئًا من الدنيا ولذاتها (فمنعك) التوفيق لطاعته والإقبال عليه والفهم منه، (وربما منعك) من الأول (فأعطاك) الثاني، فمنع الله لك من نيل شهواتك ولذاتك، وقطعك عن سيئ عاداتك عطاء جزيل منه؛ لأنه أبقاك معه واقتطعك عن حظوظك وأغراضك، وعكس ذلك هو المنع الحقيقي، وإن كان عطاء في الظاهر، فلا تنظر لظاهر العطاء والمنع، بل لحقيقة الأمر، وحينئذ فيجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمولاه.

الحكمة الرابعة والتسعون

«متى فَتَحَ لكَ بابَ الفهمِ في المنعِ عادَ المنعُ عينُ العطاءِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى فتح لك باب الفهم في المنع)، بأن فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك ولولا يعلم أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما أنزله بك (عاد المنع) أي: صار (عين العطاء)، ومن الفهم في المنع ما سيأتي قوله: (ومتى منعك أشهدك) قهره.. إلخ.

الحكمة الخامسة والتسعون

«الأكوانُ ظاهِرُهَا غِرَّةٌ، وباطنُها عِبْرَةٌ، فالنفسُ تنظرُ إلى ظاهرِ غِرَّتِهَا، والقلبُ ينظرُ إلى باطنِ عِبْرَتِهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الأكوان) أي: المكونات التي للنفس فيها حظ من متاع الدنيا وزهرتها (ظاهرها غِرَّة)، بكسر الغين أي: سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها (وباطنها عِبرة) بكسر العين أي: سب في الاعتبار بها، والانكفاء عنها لقبحها وخستها والنظر إلى عاقبتها وهي الفناء، فهي حسنة الظاهر، قبيحة الباطن، فمن نظر إلى ظاهرها وجدها حلوة نضرة، فيغتر بها ويميل إليها، ومن نظر إلى باطنها وجدها جيفة قذرة، فيعتبر بها، وينكف عنها، (فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها) أي: زينتها الظاهرة، فتغتر بها وتهلك صاحبها، (والقلب ينظر إلى باطن عبرتها) أي: إلى قبائحها الباطنة، فيعتبر بها ويسلم من شرها.

الحكمة السادسة والتسعون

«إنْ أردتَ أن يكونَ لكَ عِزٌّ لا يفنَى فلا تَسْتَعِزَّنَّ بعزٍ يفنى»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى)، بأن تستغني بها مع الغيبة عن مسببها، لأنها فانية، فيكون تعلقك بها عزًا لا يبقي، بل يزول بزوالها، فإن اعتززت بغيره من مال أو جاه أو نحوهما بأن ركنت إليه وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك، فلا بقاء لعزك، إذ لا بقاء لمن أنت به تعتز، ولذا سمع بعض العارفين شخصًا يبكي فقال له: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟.

الحكمة السابعة والتسعون

«الطيُّ الحقيقيُّ أن تَطْوِي مسافةَ الدنيا عنكَ حتَّى تَرى الآخرةَ أقربَ إليكَ مِنْكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الطي الحقيقي أن تطوي) أيها المريد (مسافة الدنيا عنك) بألا تشتغل بلذاتها وشهواتها ولا تركن إليها، بل تغيب عنها (حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك) أي: تكون نصب عينيك، ليست غائبة عن قلبك، فهذا هو الطي الحقيقي الذي يكرم الله به أولياءه، وبه تتحقق عبوديتهم لربهم، لا طي مسافة الأرض بأن تكون من أهل الخطوة، لأنه ربما كان استدراجًا ومكرًا ولا طي الليالي والأيام بالقيام والصيام؛ لأنه ربما قارنه رياء أو عجب، فتكون عاقبته الخسران.

ولا يمكن أن تطوى عن العبد مسافة الدنيا إلا إذا أشرق نور اليقين في قلبه، فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره، ويرى الآخرة حاضرة لديه، موجودة عنده.

ومن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الفاني، وهو الدنيا واستبداله بالباقي وهو الآخرة.

أما إذا لم يشرق نور اليقين في قلبه، كان راغبًا في الدنيا، مؤثرًا لها على الآخرة، راكنًا إليها، وغائبًا عن مولاه لضعف يقينه وتقواه.

الحكمة الثامنة والتسعون

«العطاءُ منَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ، والْمَنْعُ مِنَ الله إِحْسَانٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(العطاء من الخلق) أي: إذا أعطوك شيئًا فأخذته غافلًا عن مولاك، فهو وإن كان إعطاءً ظاهرًا (حرمانٌ) باطنًا أي: في الحقيقة ونفس الأمر لما فيه من رؤيتك لغير الله، ووقوفك مع حظوظك، (والمنع من الله) أي: منع الله لك وعدم إعطائك (إحسانٌ)، حيث لم يغب قلبك عنه، فهو وإن كان منعًا ظاهرًا، إعطاءً باطنًا؛ لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه، وإن شئت قلت: العطاء من الخلق حرمانٌ لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك، وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم، والمنع من الله إحسان؛ لأنه حبيبك، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

وفي وصية على كرم الله وجهه: "لا تجعل بينك وبين الله منعمًا، واعدد نعمةَ غيره عليك مغرمًا"، وهو يناسب المعنى الأول.

الحكمة التاسعة والتسعون

«جَلَّ رَبُّنَا أنْ يُعَامِلَهُ العبدُ نقدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(جل ربنا أن يعامله العبد نقدا) أي: حالاً بأنواع الطاعات (فيجازيه نسيئة) بألا يعطيه شيئًا من جزاء عمله في الحال، فإن ذلك ليس شأن الكريم القادر، فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة، ربما أظهر الله منه لبعض أوليائه شيئًا في الدنيا يحملهم على الاجتهاد في الأعمال ويتحققون به قبولها.

الحكمة المائة

«كَفَى منْ جزائِهِ إيَّاكَ على الطاعةِ أنْ رَضِيَكَ لهَا أَهْلاً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كفى من جزائه) أي: مجازاته (إياك على الطاعة أن رضيك أهلًا لها) أي: توفيقك لها وأقدارك عليها، وإلا فصفتك الذاتية للتكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها، فإذا وفقك مولاك للقيام بها، كان ذلك معجلًا لك في الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى، وأيضًا فأنت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك، فكونه قربك لخدمته ورضيك أهلًا لها، نعمة عظيمة منه عليك.

الحكمة الواحدة بعد المائة

«كَفَى العاملينَ جزاءُ مَا هُوَ فَاتِحُهُ على قُلُوبِهِمْ في طاعتِهِ، ومَا هُوَ مُورِدُهُ عليهِمْ منْ وُجُودِ مؤانستِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته) أي: في حال طاعته من المواهب الإلهية والإلهامات اللدنية وحلاوة التملق بين يدي ملك الملوك.

قال بعضهم: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وهذه الحلاوة هي التي يعبر عنها أهل الطريق بالأحوال والمواجيد والأذواق، (وما هو مورده عليهم) أي: على قلوبهم (من وجود مؤانسته) أي: الأنس به بعد حصول العمل وانقضائه.

قال بعضهم: الأنس هو سرور القلب بشهود جمال الحبيب، وهو حالة توجب التماس المحب وصفاء وقته، ويخاف فيه غوائل الأدلال.

الحكمة الثانية بعد المائة

«مَنْ عَبَدَهُ لشيءٍ يَرْجُوهُ منْهُ أو ليدفَعَ بطاعتِهِ وُرُودَ العُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من عبده تعالى لشيء يرجوه منه) وهو الثواب، (أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة) أي: حصولها في الدار الآخرة، وقوله: (عنه) متعلق بيدفع، (فما قام بحق أوصافه)، بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب، بخلاف ما إذا عبده لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها، إذ من كان كذلك يستحق أن يخدم بالعبادة، فإنه حينئذ يكون قائمًا بحق أوصافه أي: موفيًا لها حقها.

فقد أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: " إن أود الأدواء إليَّ من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها"، وفي الحديث: "لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير إن لم يعط الأجرة لم يعمل".

الحكمة الثالثة بعد المائة

«متى أعطاكَ أشهدَكَ بِرَّهُ، ومتى منعَكَ أشهدَكَ قهرَهُ؛ فهُوَ في كُلِّ ذلِكَ مُتَعَرِّفٌ إليْكَ ومُقْبِلٌ بوجودِ لُطْفِهِ عليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى أعطاك) أيها العارف المتيقظ (أشهدك بره) أي: صفات بره من الجود والكرم والإحسان واللطف والعطف وغير ذلك، (ومتى منعك أشهدك قهره) أي: صفة قهره أي: التي تقتضي القهر والغلبة من الجبروت والكبرياء والعزة والاستغناء، (فهو في كل ذلك) أي: في كلتا الحالتين (متعرف إليك) أي: مقبل عليك ومريد منك أن تعرفه، فإن الواحد منا إذا أراد أن يعرفه غيره، فإما أن ينعم عليه، وإما أن يعاقبه، فكل منهما سبب في معرفة ذلك الغير له، (ومقبل بوجود لطفه عليك)، لأن مشاهدته لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه ونعمة منه

عليك، فينبغي لك أن تشكره عليها، والحاصل أن المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هم عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى، ولا سبيل لهم بمعرفته إلا بتعرفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزل بهم من النوازل، ويورده عليهم من الأحكام، سواء كان الحكم موافقًا لطبعهم وهو الإعطاء، أو مخالفًا له وهو المنع، فمن كان عارفًا بربه ولم يستغرق حظ نفسه لم يفرق بين العطاء والمنع؛ لأن كلا منهما طريق توصله إلى معرفة صفات البرية من الجود ونحوه، والقهرية، وهذا من جملة فتح باب الفهم كما مر.

الحكمة الرابعة بعد المائة

«إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ المنعُ لعدمِ فهمِكَ عنِ الله فيهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إنما يؤلمك المنع) أيها المريد، (لعدم فهمك عن الله فيه) أي: في حال المنع، إذ لو فتح باب الفهم حينئذ لتلذذت به، فمن جملة الفهم في المنع أن تفهم أنه يريد بذلك المنع أن يوقفك ببابه ويعلقك به ويصيرك من جملة أحبابه، فإنه إذا أحب عبدًا حماه من الدنيا، ومن جملته أن تفهم أنه سلك بك مسلك المقربين، كما ورد عن الفضيل أنه كان يقول: "إلهي أجعتني وأجعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، وإنما تفعل هذا بخواص عبادك، فبأي سبب استجوب منك هذا" أي: من أعمال البر والخير، ومن جملته أن تفهم أن الدنيا فانية ولذاتها منقضية فتفرح بما ادخر لك في الآخرة، إلى غير ذلك مما يفتح الله به على قلبك المريد الصادق، إذا فتح عليه ذلك تلذذ بالمنع فعاد المنع عين العطاء.

الحكمة الخامسة بعد المائة

«رُبَّمَا فَتَحَ لكَ بابَ الطاعةِ، ومَا فَتَحَ لكَ بابَ القَبُولِ، وربما قَضَى عليكَ الذَّنْبَ سببًا في الوُصُولِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول)، الإضافة فيهما بيانية، أو من إضافة المشبه به للمشبه، (وربما قضي عليك بالذنب سببًا في الوصول).

وذلك أن الطاعة قد يقارنها آفات قادحة في الإخلاص فيها كالإعجاب بها والاعتماد عليها واحتقار من لم يفعلها، وذلك مانع من قبولها، والذنب قد يقارنه الالتجاء إلى الله والاعتذار إليه واحتقار نفسه وتعظيم من لم يفعله، فيكون سببًا في مغفرة الله له ووصوله إليه، فينبغي ألا ينظر العبد إلى صور الأشياء، بل إلى حقائقها، فيخاف إن كان مطيعًا ويرجو إن كان عاصيًا.

الحكمة السادسة بعد المائة

«رب معصية أورثتْ ذُلاً وافتقارًا خيرٌ منْ طاعةٍ أورثتْ عزًّا واستكبارًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(رب معصية أورثت ذلًا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا). ولا شك أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، فالتحقق بهما مقتضي للخذلان وعدم القبول. قال أبو مدين قدس الله سره: "انكسار العاصي خير من صولة المطيع".

الحكمة السابعة بعد المائة

«نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولابدَّ لكلِّ مُكَوِّنٌ منهما: نعمةُ الإيجادِ ونعمةُ الإمدادِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(نعمتان ما خرج موجود عنهما) أي: هما عامتان لكل موجود، (ولا بد لكل مكون) أي: موجود (منهما) أي: هما لازمتان لكل موجود لا ينفك عنهما موجود من الموجودات، (نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد)، الإضافة للبيان فيهما، فكل موجود في ذاته معدوم متلاش، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، فصار موجودًا،ولولا ذلك لم يزل معدومًا، والمعدوم ليس بشيء، ولما كان دوام وجوده يحتاج إلى إمداد إلهي له يقتضي بقاء صورته وهيكله، أمده بجلب المنافع له ودفع المضار عنه، فنعمة الإيجاد أزالت العدم السابق، ونعمة الإمداد لم يخرج شيء من العدم إلى الوجود، ولم يزل معدومًا، ولولا نعمة الإمداد لم يتم وجود الموجود، ولم يصح بقاء موجود، بل يختل في أقرب مدة، ويضمحل، ولا فرق في هذا بين المكونات العلوية والسفلية.

الحكمة الثامنة بعد المائة

«أنعمَ عليكَ أولاً بالإيجادِ، وثانيًا بتوالِي الإمدادِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أنعم عليك) أيها الإنسان (أولاً بالإيجاد، وثانيًا بتوالي الإمداد)، فإذا علم العبد أن ابتداء وجوده من الله ودوام وجوده كذلك، علم أن فاقته ذاتية. وأنه لا غنى له عن مولاه لافتقاره بعد وجوده في كل وقت إلى الإمداد، ثم هذه الإمدادات المتوالية عليه منها ما يكون قوتًا لشبحه تقوم بنيته به كالأقوات، ومنها ما يكون قوتًا لمعناه وروحه كالإيمان والعلوم والمعارف، فإن الإنسان شيئان: روح وجسد، والإمداد الأول عام بالمؤمنين والعارفين كنعمة الإيجاد، والثاني بالمؤمنين خاصة.

الحكمة التاسعة بعد المائة

«فاقتُكَ لكَ ذاتيَّةٌ، ووردُ الأسبابِ مُذَكِّرَةٌ لكَ بِمَا خَفِيَ عليكَ منها، والفاقةُ الذاتيَّةُ لا ترفعُهَا العوارِضُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(فاقتك لك ذاتية) أي: إذا ثبت أن نعمتي الإيجاد والإمداد لازمتان لك وأنك في ذاتك عدم لولاهما، فالفاقة إذا ذاتية لك، والاضطرار لازم لوجودك لاحتياجك إلى المولى في ابتداء وجودك وفي إدامته عليك، لكن هذا الاضطرار يخفي على غالب الناس ويغفلون عنه إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم، فيغيبون حينئذ عن صفتهم الذاتية وعن مولاهم فيورد عليهم أسباب الاضطرار ليذكرهم ذلك كما قال: (وورود الأسباب) أي: أسباب الاضطرار، وهي الأمور القهرية من مرض وجوع وعطش وحر وبرد وغير ذلك (مذكرات لك بما)، الباء زائدة أو بمعني اللام، (خفي عليك منها) أي: الفاقة والاضطرار.

فإذا كنت في غفلة عن اضطرارك الذاتي وأورد عليك مرضًا أو فقرًا، اضطررت إليه وظهرت لك صفتك الذاتية بعد أن كانت مغطاة عنك بالصحة والجدة، فتقوم حينئذ بحق العبودية، وتدعوه سبحانه برفع ذلك عنك.

قال بعضهم: "إنما حمل فرعون على قول ﴿**أَنَا رَبُّكُم الأَعَّلَى**﴾ طول العافية والغنى، لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولم يحم جسمه، ولم يضرب عليه عرق، فادعي الربوبية، ولو أخذته

شقيقة ساعة واحدة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية"، وهذا في حق غالب الناس، وإلا فالعارفون لا يفارقهم مشاهدة فقرهم الذاتي كما سيأتي في قوله: (العارف لا يزال اضطرار).. إلخ، فهؤلاء لا يحتاجون إلى مذكر، وإنما يسلط الله عليهم هذه الأسباب القهرية ليظهر عليهم علامات الصدق في العبودية إذ لا يزيدهم البلاء إلا تعلقًا بربهم وطاعة له ورجوعًا إليه، وليكترثوا بهم، وتعظم منزلتهم عند الله تعالى بما يظهر عليهم من الرضا عن الله والتسليم إليه (والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)، وهذا متعلق بقوله: (فاقتك لك ذاتية) أي: إن الاضطرار لازم لوجودك، وإن كنت غنيًا بوجود النعمتين المذكورتين، فإن ذلك أمر عرضي، والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية، فما يحصل للعبد من الصحة والغنى والقدرة حتى تصير الأشياء كأنها طوع يده لا يزيل الفاقة الذاتية لأنه لا يجوز في حقه تعالى أن يزيل ذلك، ويبدله بضده للافتقار والاضطرار.

يقول السياجي يغفر الله له:

وما كان من حق الله تعالى، لا تدفعه أو تمنعه مكاسب العباد، بل هو من أمره سبحانه، إن شاء دفع وإن شاء منع.

الحكمة العاشرة بعد المائة

«خيرُ أوقاتِكَ وقتٌ تشهدُ فيهِ وجودَ فاقتِكَ، وتَرِدُ فيهِ إلى وجودِ ذَلَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(خير أوقاتك) أيها المريد الصادق، (وقت تشهد فيه وجود فاقتك)، بأن يزوي عنك الدنيا وشهواتها، (وترد إلى وجود ذِلتك)، بكسر الذال أي: فقرك، وإنما كانت هذه خير الأوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك، وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك عنه، بخلاف الوقت الذي تشهد فيه وجود غناك وعزك، فإن ذلك شر أوقاتك.

حكي عن عطاء السلمي أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئًا من الطعام، ولم يقدر على شيء، فسر قلبه بذلك وقال: "يا رب، إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة".

وقيل: أن فتحًا الموصلي ﷺ رجع إلى بيته فلم يجد عشاءً ولا سراجًا ولا حطبًا، فأخذ يحمد الله ويتضرع إليه ويقول: "إلهي، بأي سبب، وبأي وسيلة واستحقاق عاملتني بما عاملت به أولياءك".

وكذا وقع للفضيل بن عياض، فقال: "بأي عمل أستحق هذا منك حتى أداوم عليه". إلى غير ذلك مما وقع لأهل الله تعالى.

ولذا قال ابن عطاء ﷺ كما سيأتي: "ورود الفاقات أعياد المريدين".

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة

«متى أوحشكَ من خلقِهِ فاعلمْ أنَّه يريدُ أن يفتحَ لكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى أوحشك من الخلق) أي: ما عدا الله تعالى بأن تشمئز منهم بقلبك، وتنقبض عنهم بسرك، ولا يكون للأشياء وقع عندك، ولا تجد فيها مقنعًا عن مولاك، (فاعلم أنه يريد أن يفتح باب الأنس به)، فإذا فتح لك ذلك الباب وآنسك بالخطاب، صرت له وحده، وغبت عن غيره، كما وقع لأبي يزيد قدس الله سره، أنه اطلع على أنواع العجائب، وكشف له عن المكونات العلى، فقيل له: "وهل استحسنت منها شيئًا؟ فقال: لم أر شيئًا أستحسنه، فقيل له: أنت عبد الله حقًا".

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة

«متى أطلقَ لسانَكَ بالطلبِ فاعلمْ أنَّه يريدُ أنْ يُعْطِيَكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى أطلق لسانك بالطلب) أي: بأن حل عنه عقدة الصمت التي أوجبها الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الافتقار، فإذا حل عنه هذه العقدة بأن أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت إذ ذاك داعيًا بلسان الاضطرار، (فاعلم أنه يريد أن يعطيك) أي: يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد بإجابة الدعاء من المضطر، والله لا يخلف الميعاد، ولقوله عليه الصلاة والسلام: "من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة" أي: إما بعين المطلوب أو بغيره، عاجلًا أو آجلًا، قال

بعضهم: هذا إذا كان الدعاء صادرًا عن اختيار وقصد، أما إذا جرى على لسانه من غير قصد، فإن الإجابة بعين المطلوب لا تكاد تتخلف.

الحكمة الثالثة عشر بعد المائة

«العارفُ لا يزولُ اضطرارُهُ، ولا يكونُ مع غيرِ الله قرارُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(العارف لا يزول اضطراره) أي: احتياجه، بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة، ولمعرفته بنفسه وما هي عليه من الفاقة، وتحققه بذلك في كل نفس، بخلاف غيره فإنه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار، وذلك أن اضطرار العامة بمثيرات الأسباب لغلبة الحس على مشهدهم، فإذا زالت، زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة، لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم، (ولا يكون مع غير الله قراره) أي: لا يركن ولا يستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الأشياء، ونفوره بقلبه منها، كما تقدم، فكأنه يقول: إن ما تقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة

«أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارِهِ، وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافِهِ، لأجلِ ذلكَ أفلتْ أنوارُ الظواهرِ، ولم تأفلْ أنوارُ القلوبِ والسرائرِ

إنَّ شمسَ النهارِ تغربْ بليلٍ*وشمسَ القلوبِ ليستْ تغيبُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أنار الظواهر) أي: المكونات من السماوات والأرضين أي: جعلها منيرة (بأنوار آثاره) أي: آثار أوصافه أي: بأنوار الكواكب من شمس وقمر ونجوم، التي هي آثار لأوصافه من قدرة واردة وغيرها، فتلك الظواهر صارت مكشوفة لنا بأنوار الكواكب، وحينئذ نري المكونات، ونأخذ منها ما ينفع، ونحترز عما يضر، (وأنار السرائر) جمع سر، وهو باطن القلب كما مر (بأنوار أوصافه) أي: بالعلوم العرفانية والأسرار الربانية الناشئة عن تجلي أوصافه على قلوب العارفين، فتلك السرائر أي: سرائر العارفين صارت مكشوفة لهم بأنوار العلوم والمعارف الناشئة عن أوصافه سبحانه أي: تجليها على قلوبهم، وحينئذ يشاهدون ما في سرائرهم من الأوصاف، فيحترزون عما

يضرهم منها، ويتصفون بما ينفعهم، (لأجل ذلك) أي: كون الظواهر نارت بأنواره آثاره، والسرائر نارت بأنوار أوصافه، فالأنوار الأولى ناشئة عن الحادث، والثانية عن القديم، (أفلت) أي: غابت وذهبت، (أنوار الظواهر) أي: الكواكب، فيذهب نور الشمس في الليل ونور القمر والنجوم في النهار، ونسبة ذلك النور إلى الظواهر باعتبار كونه منورًا لها، وإلا فهو قائم بالكواكب، (ولم تأفُل) بضم الفاء أي: تغيب وتذهب (أنوار القلوب والسرائر) أي: الأنوار الناشئة عن مشاهدة الصفات القديمة التي لا تزول وما ينشأ عن القديم لا يزول، وإنما يطرأ عليه تغطية بالأوصاف البشرية بالنسبة للعارفين، ثم تزول، وذلك النور ثابت في قلوبهم، (ولذلك) أي: لأجل أفول أنوار الظواهر وعدم أفول أنوار السرائر، (قيل) أي: قال الشاعر: (إن شمس النهار تغرب بالليل) أي: وإذا غربت ذهب ضوؤها)، (وشمس القلوب ليس تغيب)، وهو بيت مدور ونصفه بالياء وقبله:

طلعت شمس من أحب بليل ... واستنارت فما تلاها غروب

وفي هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها ويعتني بترتيبها ومراعاة حالها، بخلاف الأمور الفانية الآفلة، وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿**لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام: 76].

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة

«ليخففَ ألمَ البلاءِ عنك علمُكَ بأنَّه سُبْحَانَهُ هوَ الْمُبْلِي لكَ، فالذي واجهتْكَ منه الأقدارُ هو الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ليخفف ألم البلاء عليك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك) أي: استحضارك أنه سبحانه هو المبلي دون غيره وأنه أعلم بمصالحك من نفسك، فإن ذلك سبب في تسليك وتسليمك ووجود صبرك، (فالذي) أي: لأن الذي (واجهتك منه الأقدار) أي: الأمور المقدرة عليك من المرض وذهاب المال والولد ونحوها، (هو الذي عودك حسن الاختيار) أي: اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك، فإن من كانت له عليك نعمة من المخلوقين وجرت عادته أنه يحب

الخير لك على تقدير أنه أساء إليك في بعض الإحسان تتحمله، لأنه ربما كانت أساءته إحسانًا في الباطن، وكذلك العبد إذا علم أنه سبحانه وتعالى رحيم به ومتعطف عليه وناظر له، فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له ألا يبالي به، فإنه لم يتعود منه إلا خيرًا، فيحسن ظنه به، ويعتقد أن ذلك اختيارٌ له. وأن له في ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

قال أبو طالب المكي في هذه الآية: "فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضرَّ، وهو خير له في الآخرة، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله وأسوأ عاقبة".

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة

«مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عنْ قدرِهِ فذلكَ لقُصُورِ نَظَرِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من ظن انفكاك لطفه عن قدره) أي: عما قدره الله عليه من البلايا والمحن، (فذلك لقصور نظره)، إذ لو كمل نظره لوجد نفسه قد حصل له في تلك البلايا ألطاف كثيرة منها إقباله على المولى بتلك البلية، فإن البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لإرادتهم ومنغصة لشهواتهم، وكل ما أزعج النفس أو نغصها وآلمها، فهو محمود العاقبة من قبل أنه يرد العبد إلى الله ويلزمه بابه، فيلتجئ إليه، وهذا أعظم فوائد البلايا، ويجد ذلك في نفسه كل ما نزلت به بلية أو أصابته رزية.

ومنها أن في البلايا ضعف النفوس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها التي توقع العبد في الذنوب والمعاصي وتقوي رغبته في الدنيا.

ومنها أن العبد يحصل له عندها غالبًا طاعة القلوب كالصبر والرضا والتوكل والزهد وحب لقاء الله تعالى، وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

ومنها أنه يحصل بها كفارة الذنوب والخطايا إلى غير ذلك من الألطاف الإلهية.

الحكمة السابعة عشرة بعد المائة

«لا يُخَافُ عليكَ أن تلتبسَ الطرقُ عليكَ، وإنَّمَا يُخَافُ عليكَ من غلبةِ الهوى عليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يخاف عليك)، إذا كنت متلبسًا بحال من الأحوال كطاعة أو معصية أو نعمة أو بلية، (أن تلتبس الطرق عليك) أي: طرق العبودية التي توصلك إلى ربك عند تلبسك بحال من تلك الأحوال؛ لأن الشريعة مبنية لذلك، فإن من نظر في الكتاب والسنة وجد ما يرشده، فعبوديتك في الطاعة أن تشهد منته بها عليك، وفي المعصية الاستغفار والتوبة منها، وفي النعمة الشكر عليها وفي البلية الصبر عليها، (وإنما يخاف عليك) في هذه الأحوال (من غلبة الهوى عليك)، حتى يعميك من رؤية طريق قصدك مما ذكر بأن تعجب الطاعة وتصر على المعصية وتستقل النعمة فلا تشكرها وتجزع في البلية.

ويحتمل أن المعنى لا يخاف عليك أيها المريد الصادق أن تلتبس عليك الطرق أي: الأعمال الموصلة إلى الله كالصلاة والصيام، والذكر أي: يلتبس عليك الأولى منها فتصير تعمل هذا تارة وهذا أخرى، وتتنقل في أنواع العبادات لكونك لا تعرف الأولى منها من غيره إذا لم تكن تحت تربية شيخ وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصدك عن سلوك أي طريق من تلك الطرق فترجع عن التوجه إلى مولاك، بل يلزمك أن تستعمل طرق القربات وأن لم تعرف الأولى منها حتى يجمعك الله على شيخ ناصح يريك ذلك وتكون تحت تربيته.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة

«سبحانَ مَنْ سترَ سرَّ الخُصُوصِيَّةِ بظهورِ وصفِ البشريَّةِ، وظهرَ بعظمةِ الربوبِيَّةِ في إظهارِ العُبُودِيَّةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(سبحان من ستر سر الخصوصية) أي: سر هو الخصوصية، هو العلوم والمعارف والأسرار الإلهية التي يعطيها الله لأوليائه، يفيضها على قلوبهم (بظهور البشرية) أي: الأحوال التي تعرض للبشر والأمور الدنيوية التي يتعاطاها الناس، فإن بعض الأولياء قد يكون حمارًا أو خواصًا أو حياكًا، فلا يعرفه غالب الناس ليستر خصوصيته بهذه الصنعة التي يتعاطاها ومخالطته للناس في حال معاملته معهم، وقد يظهر الله تعالى آثار الخصوصيات على بعض الناس وهم الدعاة إلى الله تعالى ليكتمل بهم غيرهم، (وظهر) للعباد (بعظمة الربوبية) أي: بربوبيته العظيمة (في إظهار) آثار

(العبودية) عليهم، وهي الأحوال التي تطرأ على العبيد فتقتضي افتقارهم للرب، كالمرض والفقر، فإن العبد إذا قام به حال من تلك الأحوال التجأ إلى الرب في إزالته وظهر له عظمة ربوبيته أي: ربوبيته العظيمة أي: أن له ربًا مالكًا يزيل عنه ما قام بهن، ولولا ذلك لم يعرفه، فعظمة الربوبية إنما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية، ولولا ذلك لكان باطنًا لا يظهر، ولذا قال الشاذلي قدس الله سره: "العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية، فسبحان اللطيف الخبير"

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة

«لا تُطَالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مَطْلَبِكَ، ولكنْ طَالِبْ نفسَكَ بتَأَخُّرِ أَدَبِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تطالب ربك) أي: تعترض عليه وتسيء الظن به (ب) سبب، (تأخر مطلبك) أي: ما طلبته منه باطنيًّا كان كالخصوصيات، أو ظاهريًّا كالأغراض الدنيوية، فإذا طلبت منه شيئًا ولم يسرع لك الإجابة فلا تسيء به ظنك، ولا تطالبه بالوفاء بذلك، فإنه يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل، (ولكن طالب بنفسك بتأخر أدبك) أي: عدم وجوده حيث طلبت منه إسراع إجابتك، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب، وأيضًا مطالبتك له بالإجابة دليل على أنك دعوت لتجاب في دعائك، فيكون دعاؤك لغرض، وهذا مما يقدح في كل عبوديتك، وأيضًا اعتقادك أنه لم يستجب لك إساءة أدب، إذ ليس من شرط الإجابة أن تظهر لك بأن يجيبك بعين ما طلبت في الحال، بل له أن يخفيها عنك لما في ذلك من المصالح، فيجيبك بغير ما طلبت أو بعينه، لكن يؤخر ذلك لمصلحة يعلمها.

الحكمة العشرون بعد المائة

«متى جعلَكَ في الظاهرِ مُمْتَثِلاً لأمرِهِ وفي الباطنِ مُسْتَسْلِمًا لقهرِهِ فقدْ أعظمَ المنَّةَ عليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره)، بأن وفقك للقيام بطاعته ويسرها لك، (ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره) أي: الرضا بما يجري عليك من مولاك، (فقد أعظم المنة عليك)، حيث جمع لك بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن، فهذان الأمران هما اللذان يلزمانك في إقامة العبودية

لربك لا غير، فلماذا تتشوق، وما الذي تلتمس بعد حصولهما إن كنت عبدًا حقيقيًا، وهل درجات أهل الكمال إلا التقلب في عبودية الظاهر وعبودية الباطن.

الحكمة الواحدة والعشرون بعد المائة

«ليسَ كُلُّ مَنْ ثبتَ تخصيصُهُ كَمُلَ تخليصُهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ليس كل من ثبت تخصيصه) بإظهار أمر خارق للعادة على يده كطي الأرض والطيران في الهواء والمشي على الماء، (كمل تخليصه) من آفات النفوس وغوائلها وما تدعو إليه من الشهوات والمخالفات، فكان يقول ليس كل مخصص بالآيات والكرامات مخلصًا من الآفات، بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة، فالكرامة الحقيقية هي الاستقامة التي تضمنها ما تقدم بخلاف الكرامات التي هي خوارق العادات، فإنها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيمًا استقامة تامة، وكثيرًا ما تظهر على أيدي المبتدئين ولا تظهر على أهل التمكين، والكل من أهل الله تعالى، فينبغي احترامهم وتعظيمهم، لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة.

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائة

«لا يستحقرْ الوِرْدَ إلا جَهُولُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يستحقر الورد) وهو الأعمال الصالحة التي تعمر بها الأوقات وتنكف بها عن الجوارح عن الوقوع في المكروهات بأن لا يعتني به ولا يواظب عليه (إلا جهول) لما فيه من العبودية لله تعالى والحضور بين يديه والتنعم بذكره، ولأنه يورث تصفية الباطن وجلب الأنوار، وهي الواردات، فالتشوف لها مع عدم الاعتناء بما يجليها من الجهل والحمق.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائة

«الواردُ يوجدُ في الدارِ الآخرَةِ، والوِرْدُ ينطوي بانطواءِ هذهِ الدارِ، وأولى ما يعتنِي به ما لا يَخْلِفُ وجودُهُ، الوردُ هو طالِبُهُ منك، والواردُ أنتَ تطلبُهُ منه، وأينَ ما هو طالبُهُ منك مما هو مَطْلَبُكَ منه؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

ذكر ﷺ أن (الوارد) وهو ما يرد على باطن العبد من المعارف الربانية واللطائف الروحانية، وهي الأنوار التي ينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره، (يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار) أي: يفني بفنائها، (وأولى ما يعتني به ما لا يتخلف وجوده) أي فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها، إذ لا يمكنه خلف ما فات منها.

(أما الوارد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه)، يعني أن الورد هو حق الله منك، والوارد هو حقك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلبك حظوظك ووقوفك معها، وأتي ﷺ بذلك إرشادًا للمريدين الذين يتشوقون إلى الواردات ويتركون الأوراد ويستحقرونها، وذلك من الجهل بثمراتها، ولذا لم يترك العارفون أورادهم مع تمكنهم في أحوالهم أكثر من المريدين.

يقول السياجي يغفر الله له:

إن الورد الذي يعنيه ابن عطاء الله ﷺ ويفصل شرحه شيخ الإسلام عبد الرحمن الشرقاوي يرحمه الله مقصوده هو الأعمال الصالحة المداوم عليها من فرائض ونوافل وأذكار جاءت بها الشريعة في كتاب الله وسنة رسوله المعصوم ﷺ.

ولقد كانوا يفهمون ذلك ويفقهونه من قوله ﷺ عن ربه عز وجل في الحديث القدسي. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل، قال: "من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء، أحب مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته" (رواه البخاري).

والمساءة، كما تحتمل في معناها، حمل المؤمن على ما يكره، وهو الموت، تكون كذلك بأنه لو ترك لأرذل العمر، فإنه مساءةٌ له.

والورد بهذا الشمول في المعني هو العبادة المطلوبة من العبد المتحققة فيه صفة العبودية لله وحده، ومن هذا يكون معني الاستقامة المحققة للكرامة والمقدمة عليها.

وليست الأوراد هي تلك الكلمات التي تتردد في حلقات الذكر ومواكب العامة منشدين لها بالألحان غير مدركين لما تطلبه من أعمال جوارح ووجل قلب، وتأمل فهم وإنفاق عزيز مال ابتغاء إرضاء المحبوب وقربه وذكرا لمودته وشهودًا لنوره وغيبة عن عوارض الدنيا والنفس والهوى.

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائة

«ورودُ الإمداد بحسبِ الاستعدادِ، شروقُ الأنوارِ على حسبِ صفاءِ الأسرارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ورود الإمداد) من الله تعالى على عبده (بحسب الاستعداد) أي: بحسب استعداد العبد بتطهير قلبه وملازمته لورده، ولذا قيل طهر قلبك من الأغيار تملأه المعارف والأسرار، فالوارد تابع للورد كيفًا وكمًا ودوامًا، فإن كان الورد كاملاً بأن برز من قلب صاف كان الوارد مثله، أو كان ناقصًا كان مثله، وإن كان كثيرًا كان الوارد كثيرًا، وإلا فبحسبه، ويعتبر ذلك بمجموع العمر، ولذا "كان أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل"، وإن كان دائما كان الإمداد دائمًا، فالمواظبة على الورد من أهم المهم، وقوله (وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)، تعليل لما قبله، وإيضاح له أي: شروق أنوار اليقين والعرفان، وهي الإمدادات المذكورة على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار، ولا يكون صفاؤها غالبًا إلا بملازمة الأوراد.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائة

«الغافلُ إذا أصبحَ نظرَ في ماذا يفعلُ، والعاقلُ ينظرُ ماذا يفعل الله به»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الغافلُ) عن التوحيد وأن كل شيء بقضاء الله وقدره (إذا أصبح ينظر ماذا يفعل) أي: ينسب أفعاله إلى نفسه فيقول ماذا أفعل في هذا اليوم مثلًا، (والعاقلُ) أي: المستيقظ الذي لا يغفل عن التوحيد ولا يغيب عنه أن كل شيء بقضاء الله وقدره، (ينظر ماذا يفعل الله به) أي: ينسب أفعاله كلها إلى الله تعالى، فيقول إذا أصبح: ماذا يفعل الله بي في هذا اليوم مثلًا، فنظر الغافل لنفسه فربما وكله الله إليها فلا تنجح مطالبه، ونظر العاقل لربه فيكفيه ما أهمه وييسر له مطالبه، فهذا ميزان يعرف به المريد حال نفسه، فأول خاطر يرد عليه هو ميزان توحيده فلينظر إذا استقبله شغل فإن عاد في قلبه في أول وهلة إلى حوله وقوته فهو منقطع عن الله، وإن عاد إلى

الله فهو واصل إليه، ويصح أن يكون معني نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الإشارة من قبله تعالى، فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق، وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة

«إنَّمَا يستوحشُ العبادُ والزهادُ مِنْ كُلِّ شيءٍ لغيبتِهِمْ عنِ الله في كُلِّ شيءٍ، فلو شَهِدُوهُ في كُلِّ شيءٍ ما استوحشوا من شيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إنما استوحش العباد)، وهم المتوجهون إلى الله بطريق العمل، (والزهاد)، وهم المتوجهون إلى الله بطريق التوكل (من كل شيء)، فكل من الطائفتين يفر من الخلق لكونهم قاطعين عن الله وذلك (لغيبتهم عن الله في كل شيء) أي: أنهم محجوبون عن ربهم برؤية نفوسهم ومراعاة حظوظهم، فيفرون من الأشياء ويستوحشون منها؛ لأنها موجودة في نظرهم فيخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم مقاصدهم لميلهم إليها وافتتانهم بها (فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء) أي: من أي شيء من الأشياء لرؤيتهم له حينئذ ظاهرًا في الأشياء كلها فيشغلهم ذلك عن رؤيتهم لنفوسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة، ولا يخشون منها فتنة، لأنها متلاشية فانية بهذا الاعتبار.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة

«أمرُكَ في هذه الدارِ بالنظرِ في مكوناتِهِ، وسيكشفُ لكَ في تلكَ الدارِ عنْ كمالِ ذاتِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أمرك) أيها العارف (في هذه الدار بالنظر إلى مكوناته)، لتراه ظاهرًا فيها بعين بصيرتك، قال تعالى: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ**﴾ [يونس: 101]، إلى غير ذلك من الآيات، (وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته) لتراه بعين بصرك، فرؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم، ففي هذه الدار يرونه ظاهرًا في المكونات، ولذا أمرهم بالنظر فيها، وفي

الدار الآخرة يرونه عيانًا بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع، وهذا غاية الظهور والكشف والرؤية في الدنيا على الوجه المذكور خاصة بالعارفين، وفي الآخرة عامة لجميع المؤمنين.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة

«لما علم إنك لا تصبر عنه أشهدك ما برز منه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(علم منك أنك لا تصبر عنه) أي: عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب، فإنه لا يصبر عن رؤية محبوبه، لكن رؤيتك له في هذه الدار من غير حجاب متعذرة، (فأشهدك ما برز منه) من الآثار والأكوان أي: أشهدك إياها لتراه فيها بعين بصيرتك، وإن كانت تلك الأكوان حاجبة لك من رؤيتك له بعين بصرك، فقد رأيته من وراء حجاب، وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك حيث لم يحجبك عنه في الدنيا أيضًا.

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة

«لما عَلِمَ منكَ وجودَ المللِ لَوَّنَ لكَ الطاعاتِ، وعَلِمَ ما فيكَ من وجودِ الشَّرَهِ، فحجرهُا عليكَ في بعضِ الأوقاتِ؛ لِيَكونَ هَمَّكَ إقامةُ الصلاةِ لا وجودَ الصلاةِ، فما كُلِّ مُصَلٍّ مُقِيمًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لما علم الحق منك) أيها المريد (وجود الملل) أي: السآمة من ثقل العمل المؤدية إلى تركه (لون) أي: نوع (لك الطاعات)، رحمة بك، وتسهيلاً عليك؛ لأنك إذا سئمت من نوع منها انتقلت إلى غيره ولو كانت من نوع واحد لسئمت نفسك وتركته استثقالاً له بخلاف الأنواع المتعددة، فإنها تستخفها وتستحليها لتنقلها من نوع إلى نوع آخر، وشأن النفس ألا تداوم على حال واحد بل تتطور في الأحوال، ألا ترى أن الإنسان إذا داوم على طعام واحد تسأمه نفسه كما وقع لبني إسرائيل، (وعلم فيك من وجود الشره) أي: مجاوزة الحد في التسرع إلى العمل والحرص عليه، فيؤديك إلى ألا تأتي به على وجه الكمال (فحجرها) بالتخفيف أي: منعها (عنك في بعض الأوقات)، فإن الفرائض يمتنع فعلها في غير أوقاتها المحدودة والنوافل يمتنع فعلها في وقت الكراهة، وفي بعض النسخ: "فحجرها عليك في الأوقات" بالتشديد أي: جعل لكل

طاعة وقتًا مخصوصًا، ولم يجعلها دائمة في جميع الأوقات لئلا يحصل منك شره فيجرك إلى الترك، والحاصل أن تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها في الأوقات لوجود الشره نعمتان أنعم الله بهما على عبده.

فإن الملل والشره آفتان عظيمتان قاطعتان للعمل، والموجب للملل المداومة على نمط واحد من العبادات، فتسأمها النفس وتستثقلها، فإذا لونت عليها استحلتها واستخفتها، والموجب للشره صلاحية الأوقات كلها لإيقاع العبادات مع ندرة الحرص عليها.

وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير، بأن يقرأ القرآن مثلاً ولا يتدبر في معانيه ولا يحضر قلبه مع مولاه في حال قراءته، فلذلك عين لها أوقاتًا تقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها في الأوقات، وقوله: (ليكون همك إقامة الصلاة، لا وجود الصلاة)، فما كل مصل مقيم)، بنصب يكون بعد لام كي، على أنه تعليل لما قبله أي: إنما لون لك الطاعات حتى لا تمل، وحجرها عليك في الأوقات حتى لا تشره، لأجل أن يكون همك الخاص، لأنهما إذا انتفيا أمكن توجيه الاهتمام إلى حضور إقامة الصلاة لا إلى مطلق وجودها وحصل صورتها بخلاف ما إذا وجد فأنه لا يكون معها إتقان.

وفي بعض النسخ: ليكن بالجزم فيكون كاملاً مستأنفًا وإقامة الصلاة المرادة هنا حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عز وجل، فلا يختلج فيه سواه، وقيل هي القيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها لرؤية من يصلي له فتكون مستقبلاُ إلى القبلة وقلبك مستقر في حقائق الوصلة.

وخص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات، لأن ذلك أكثر ما يقع فيها.

الحكمة الثلاثون بعد المائة

«الصلاةُ مَطْهَرَةٌ للقُلُوبِ من أدناس الذنوب، واستفتاحٌ لبابِ الغُيُوبِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الصلاة) الحقيقية (طهرة للقلوب) من تكدرها بالآثار وتلونها بأقذار الأغيار، ومن الأوصاف المبعدة لها عن مشاهدة العزيز الجبار، وفي بعض النسخ: (من أدناس الذنوب)، من إضافة المشبه به للمشبه والذنوب مختلفة باختلاف المقيمين لها، (واستفتاح) أي: فتح أو طلب

فتح (لباب الغيوب) أي: ما غاب عنك من المعارف والأسرار، شبهها بكنز له باب مغلق والباب تخييل، وهذا مرتب على ما قبله؛ لأن القلوب إذا طهرت رفع عنها الأستار فرأت ما غاب عنها من أسرار.

الحكمة الواحدة والثلاثون بعد المائة

«الصلاةُ مَحَلُ المنَاجَاةِ، ومعدنُ الْمُصَافَاةِ، تَتَّسِعُ فيهَا ميادينُ الأسرارِ، وتشرقُ فيهَا شوارقُ الأنوارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الصلاة محل المناجاة) أي: مناجاة العبد لربه بإظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين وملكه يوم الدين إلى غير ذلك من الصفات ومناجاة الرب له بما يلقيه في سره من العلوم الوهبية والأسرار العرفانية، (ومعدن المصافاة) أي: التودد أي: مصافاة العبد لربه بتوجهه إليه بكليته وإقباله.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة

«عَلِمَ وجودَ الضعفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أعدادَهَا، وعَلِمَ احتياجَكَ إلى فضلِهِ فَكَثُرَ إمدادُهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(علم وجود الضعف منك) أيها المريد لأن الطاقة البشرية لا تقدر على دوام التجلي الإلهي، (فقلل أعدادها)، بجعل الخمسين خمسة، (وعلم احتياجك إلى مواددته وفضله)، بإقباله عليك ومراجعته لك بما تحبه، (فكثر أمدادها)، بالفتح جمع مدد، وهي الأسرار والعلوم والمعارف التي ترد على قلب المصلي، فجعل أمداد الخمسين في الخمس، هذا بالنسبة للمريد، ويقال بالنسبة لغيره علم وجود الضعف منك بتكاسلك عنها وكثرة انشغالك، وعلم احتياجك إلى فضله أي: كرمه فكثر أمدادها أي: ثوابها بأن جعل في الخمسة ثواب الخمسين.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

«متى طلبتَ عِوَضًا عن عملٍ طُولِبْتَ بوجودِ الصدقِ فيهِ، ويكفي المريبَ وجدانُ السلامةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى طلبت) أيها المريد من ربك (عوضًا على عمل)، صلاة أو غيرها بأن عملت ذلك لأجل ثواب آجل، وهو الجزاء عليه في الآخرة أو عاجل كالإمدادات التي ترد عليك من قبل الحق، (طولبت) أي: طالبك الحق سبحانه (بوجود الصدق فيه) أي: قال: إن لم تصدق لكونك عملت العمل لأجلي، بل عملته لحظ نفسك والصدق في مطابقة الباطن للظاهر، وهو مفقود في هذا العمل؛ لأن ظاهره أن يعمل لله قيامًا بحق الإلوهية، وباطنه أنه لم يعمل إلا لحظ نفسه، فيكفيه حينئذ سلامة من العقاب عليه، كما قال، (ويكفي المريب) أي: المرتاب في كون مولاه يحصل له الثواب العاجل والآجل، وإن لم يقصده بعمله، إذ لو كان جازمًا بذلك متيقنًا له لسعة جوده سبحانه وتعالى لم يخطر بباله ذلك فيحال عمله، بل كان يخلص فيه لله تعالى، فيكفيه حينئذ (وجدان السلامة)، من العقاب على ذلك العمل المدخول أي: فيقول له الرب هذا العمل الذي عملته لا تستحق عليه مني جزاء، بل يكفيك من الجزاء عليه سلامتك وعدم عقابك، وهذا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل، وبيان أن المنهل العذب الصافي أن يعبد العبد ربه لما هو عليه من عظمة الإلوهية ونعوت الربوبية، لا لما يعود عليه في دنياه أو أخراه.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائة

«لا تطلبْ عِوَضًا عن عملٍ لستَ لهُ فَاعِلاً، يكفي من الجزاءِ لك على العملِ أنْ كانَ له قابلاً»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تطلب عوضًا على عمل لست له فاعلًا)، بل هو الفاعل له حقيقة وإنما أنت محل لظهوره، وإذا كان الفاعل هو الله، فكيف تطلب أنت الجزاء عليه، أو يقال أن المتفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله وليس للعبد إلا مجرد الكسب فكيف يطلب الجزاء على عمل ليس منسوبًا إليه إلا بطريق الكسب، (يكفي الجزاء ك على العمل أن كان له قابلًا) أي: قبوله له والمراد به عدم مؤاخذتك عليه مع كونه مدخولًا بقصدك به طلب الثواب.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائة

«إذا أرادَ أنْ يُظْهِرَ فضلَهُ عليكَ خلقَ فيكَ ونَسَبَ إليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا أردت أن يظهر فضله عليك) أي: فضله عليك وإحسانه لك (خلق) أي: العمل فيك (ونسب إليك) أي: نسبه إليك بأن قال فيك عند ملائكته إنك مطيع ومتق ومجتهد وعامل أو نسبه إليك على ألسنة العباد بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع ومتق إلخ. فإذا شهد العبد هذا الفضل العظيم، واستولي عليه الخجل والحياء من سيده الكريم، لم ينسب لنفسه شيئًا من محامد الصفات ومحاسن الأعمال لا حقيقة ولا أدبًا، إذ لا أهلية فيه لذلك، وأما مذام الصفات والأعمال ومساويها فمقتضى الأدب أنه يضيف ذلك إلى نفسه، وأن يعترف به أنه من ظلمه وجهله، قال سهل بن عبد الله قدس الله سره: إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب، بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، شكر الله تعالى ذلك له وقال له: يا عبدي؛ أنت أطعت، وأنت تقربت، وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت، وأنا أطعت، وأنا تقربت، أعرض الله تعالى عنه وقال: يا عبدي، أنا وفقت، وأنا أعنت، وأنا سهلت، وإذا عمل سيئة وقال: يا رب، أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت، غضب المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدي، أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت، وإذا قال: يا رب، أنا ظلمت، وأنا أسأت، وأنا جهلت، أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدي، أنا قضيت، وأنا قدرت، وقد غفرت وحلمت وسترت.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائة

«لا نهايةَ لمذامِّكَ إنْ أرجعكَ إليكَ، ولا تَفْرُغْ مدائِحُكَ إنْ أظهرَ جُودَهُ عليكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا نهاية لمذامك أن أرجعك إليك) أي: وكلك إلى نفسك؛ لأنها مجبولة على الشر، فإذا خلى الله بينك وبينها أي: لم يعنك عليها، ولم يحكمك فيها، غلبتك وتحكمت فيك، فتوقعك في أنواع القبائح حتى لا يبقي في أعمالك ما يستحسن، ولا في أحوالك ما يحب، وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله، (ولا تفرغ مدائحك أن أظهر جوده عليك)، بأن تولي عنايتك ونصرك على نفسك، ولم يحكمها فيك، فتصير أحوالك حسنة جميلة، فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضي محاسنك، وذلك علامة اصطفائه لك واجتبائه.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائة

«كُنْ بأوصافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وبأوصافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كن بأوصاف ربوبيته متعلقا)، لا متحققًا إذ لا حظ للعبد في شيء من أوصاف مولاه إلا تعلق به، (وبأوصاف عبوديتك متحققًا)، ومعني التعلق بأوصاف الربوبية النظر إليها وملاحظتها أي: ملاحظة كونها لهو فلا يصح لك أن تتصرف بشيء منها، ومعني التحقق بأوصاف العبودية، النظر إليها وملاحظتها أي: ملاحظة كونها هي التي ينبغي أن يتصف بها العبد حقيقة لا بأوصاف الربوبية، وما وجد فيه من أوصاف الربوبية فهو عارية عنده وليس هو حقيقة، فإذا لا حظ كون الغني والقدرة والعزة والقوة ليست إلا للمولي ولاحظ أن الذي يتصف به العبد حقيقة هو أضدادها وهي الفقر والعجز والذل والضغف، أمده الله تعالى بأوصافه فيكون غنيًا بالله، قادرًا بالله، عالمِا بالله، عزيزًا بالله، قويًا بالله.

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائة

«منعَكَ أنْ تَدَّعِيَ مَا ليسَ لكَ مِمَّا هُوَ للمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لكَ أنْ تَدَّعِيَ وصفَهُ وهُوَ رَبُّ العالمينَ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(منعك أن تدعي ما ليس لك) أي: حرم عليك أن تدعي شيئًا ليس لك (مما) أعطي (للمخلوقين) من الأموال، وسماه الله تعالى عدوانًا وظلمًا، (أيبيح لك) سبحانه (أن تدعي وصفه وهو رب العالمين) أي: فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان، فإذا ادعيت أنك غني أو قادر أو عزيز أو قوي أو عالم، كما يقع لبعض الناس، كان ذلك من كبائر معاصي القلب، ومن مشاركة المربوب للرب، ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه، اعتقادًا أو قولًا لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه. وفي الحديث: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في النار"، وفي رواية قصمته، ومعني المنازعة الدعوة بالعبادة والاعتقاد، وإضافة هذين الوفين له تعالى كناية عن شدة الاختصاص بهما.

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة

«كيفَ تُخْرَقُ لكَ العوائدُ، وأنتَ لم تَخْرِقْ منْ نفسكَ العوائدَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف تخرق لك) أيها المريد أي: تطمع أن تخرق لك (العوائد)، بأن تظهر لك على يدك كرامة كطي الأرض (وأنت لم تخرق لك من نفسك العوائد) أي: ما اعتدته من الكبر والعجب والدعوي وغير ذلك، فخرق العوائد بظهور شئون عالم القدرة لا يكرم الله به إلا من خرق عوائد نفسه، وفني عن إرادته وحظوظه، ومن لم يصل إلى هذا المقام، لا يطمع فيها، فإن ظهر له ما صورته كرامة، فينبغي له أن يخاف من الاستدراج والمكر، ولا يحب ذلك ولا يطلبه، فإن أحب ذلك وطلبه كان ذلك دليلًا على بقائه مع إرادته وحظوظه وعبادته، فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة.

الحكمة الأربعون بعد المائة

«ما الشأنُ وجودَ الطلبِ، إنَّمَا الشأنُ أنْ تُرْزَقَ حسنَ الأدبِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"ما الشأن وجود الطلب) أي: الدعاء بلسان المقام أي ليس الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب حوائجك وحظوظك من مولاه دون غيره ظآنًا أن طلبك ذلك منه دون غيره يوفي بما يجب عليك في الدعوة من الأدب فإن ذلك لا يوفي به، (إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب) أي: إنما الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب جميع مطالبك منه دون غيره لا لقصد نيل حظك ومرادك فقط، بل أن تطلب ذلك منه إظهارًا للعبودية وقيامًا بحق الربوبية، فبذلك يحسن أدبك ويصح سؤالك وطلبك، وذلك هو الوفاء على التحقيق بحق الأدب في الدعاء.

ويحتمل أن يراد بالطلب، الطلب بالقلب وتوجهه لشيء من الأغراض أي: ليس الشأن أن تطلب شيئًا من مولاك بقلبك مما لك فيه حظ سواء صاحبه طلب باللسان أو لا، بل الشأن أن ترزق حسن الأدب وهو ترك الطلب اكتفاء بنظره إليك، فالأدب الحسي في الدعاء على الوجه الأول أن يدعو إظهارًا للعبودية وقيامًا بحق الربوبية، لا لنيل حظ نفسه فقط، وعلى الوجه الثاني ترك الدعاء والطلب اعتمادًا على قسمته واكتفاء بمشيئته واشتغالًا بذكره عن مسألته.

الحكمة الواحدة والأربعون بعد المائة

«ما طُلِبَ لكَ شيءٌ مثلُ الاضطرارِ، ولا أسرعُ بالمواهبِ مثلُ الذلةِ والافتقارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما طلب لك) بالبناء للفاعل، وهو (شيء مثل الاضطرار) أي: إن أحسن الطالبين لذلك هو الاضطرار، فشبهه بشخص طالب، والاضطرار إظهار غاية الفاقة، فلا تتوهم من نفسك شيئًا من الحول والقوة، ولا ترى لها سببًا من الأسباب تعتمد عليه، وتستند إليه، وتكون بمنزلة الغريق في البحر أو الضال في التيه القفر، لا ترى لغناك إلا مولاك، ولا ترجو النجاة لهلكتك إلا منه، ويحتمل بناء ما طلب للمفعول، والنائب قوله شيء أي: إن اضطرار العبد هو أقصى أوصاف عبوديته، ولذلك لم يطلب من العبد شيء آجل منه، وقوله: (ولا أسرع بالمواهب إليك من الذلة والافتقار) من عطف اللام على الملزم؛ لأن الذلة والافتقار لازمان للمضطر، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[آل عمران:123] فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

«لو كنتَ لا تصلُ إليه إلا بعدَ فناءِ مساويكَ، ومَحْوِ دعاويك لم تصلْ إليه أبدًا، ولكنْ إذا أرادَ أن يُوصلَكَ إليه سَتَرَ وصفَكَ بوصفِهِ وغَطَّى نعتَكَ بنعتِهِ، فَوَصْلُكَ إليهِ بما منه إليكَ لا بما منك إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لو أنك لا تصل إليه بعد فناء مساويك) أي: عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول إليه (ومحو دعاويك) أي: نسبة ما لا تستحقه إليك كالقوة والعزة والغني والقدرة وفناء ذلك ومحوه بالرياضات والمجاهدات أي: أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء ذلك برياضاتك ومجاهداتك، فإن اعتقدت ذلك (لم تصل إليه أبدًا)؛ لأن ذلك من الأوصاف الذاتية الجليلة التي لا ينفك عنها العبد، وحينئذ فالوصول منة من الله عليك، لا بكسبك، كما أشار إلى ذلك بقوله: (ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه) أي: إلى حضرة قربه (غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته) أي: ستر عنك أوصافك وأظهر عليك أوصافه، فأفناك عنك وأبقاك به، أي: غيب صفاتك الدنيئة بإظهار

صفاته العلية عليك، وإلى ذلك الإشارة بقوله في الحديث القدسي: "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"، (فوصلك إليه بما منه إليك)، وهو إظهار صفاته عليك، (لا بما منك إليه) من الاجتهاد في الأعمال.

قال الشاذلي قدس الله سره: "لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته وتدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته، فلو خلى الله عبده وذلك لم يصل أبدًا ولكن إذا أراد الله وصول عبده تولى ذلك بأن يظهر من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه وعند ذلك لا يكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده"

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة

«لولا جميلُ سترِهِ لم يكنْ عملٌ أهلاً للقَبُولِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لولا جميل ستره) أي: ستره الجميل (لم يكن عملٌ أهلًا للقبول)؛ لأن العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله، وقوته عليه، وقد يكشف حجابه فيرائي به، ويطلب حمد الناس له، وهذا كله من الشرك الخفي القادح في الإخلاص. والإخلاص شرطٌ في قبول العمل، كما مر، وحينئذ يكون اعتماد المريد في وصوله على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده، ولو قال: لولا فضله لكان أولى.

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائة

«أنتَ إلى حلمِهِ –إذا أطعْتَهُ– أحوجُ منكَ إليه إذا عَصَيْتَهُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أنت إلى حلمه –إذا أطعته– أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته) وذلك أن المريد قد يعرض له عند طاعته أحوال كرؤية نفسه، والإعجاب، والكبر، وازدراء الغير، واستحقاقه الجزاء، إلى غير ذلك من كبائر القلوب، فيخاف عليه أن تنقلب طاعته معصية، والعاصي ربما تحمله معصيته على الحذر والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه، وهذه زيادة تحذير من رؤية

استحقاق الوصول بالأعمال، فإن ذلك غلط وجهل.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة

«السِّتْرُ على قسمين: سِتْرٌ عن المعصية، وسِتْرٌ فيها، فالعامةُ يطلبون الستر من الله فيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مرتبتهم عند الخلقِ، والخاصَّةُ يطلبون الستر عنها خشيةَ سقوطِهِم من نظرِ الملكِ الحقِّ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الستر على قسمين؛ ستر عن المعصية)، بأن يمنعه عنها، ولا يهيئ له أسبابها، (وستر فيها) أي: مع فعلها بألا يظهرها للناس حال فعلها أو بعدها، (فالعامة) لعدم تحققهم بحقائق الإيمان يغلب عليهم شهود الخلق، ويتوقعون منهم حصول المنافع ودفع المضار، فيراءونهم ويتصنعون لهم، ويتزينون ويطمعون فيهم، ويقلقون بين أيديهم، ويكرهون أن يطلعوا منهم على ما تسقط به منزلتهم من قلوبهم، ولذا، فهم (يطلبون من الله تعالى الستر) أي: أن يستر عليهم (فيها) أي: في المعصية في حال كونهم عاملين لها، ومستخفين بها، ومحبين لها، وإنما طلبوا ذلك (خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق)، إذا اطلعوا على حالهم، فيفوتهم ما كانوا يتوقعون منهم من حصول المنافع ودفع المضار، وهؤلاء الذين يعتمدون على غير الله، وهم أهل الشرك الخفي الذي يخرج صاحبه من حقائق الإيمان، وفي مثلهم قال الله تعالى: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ [النساء:108]، (والخاصة) لتحققهم بحقائق الإيمان براء من هذا الوصف الذميم، لا يلتفتون إلى الخلق مدحًا ولا ذمًّا ولا يتوقعون منهم نفعًا ولا ضرًا ولا يعتمدون عليهم ولا يسكنون إليهم، وحالهم إنما هو القناعة بنظر الله تعالى إليهم، (ويطلبون من الله الستر عليها)، بأن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها نفوسهم ويعملونها، وإنما طلبوا ذلك (خشية سقوطهم من نظر الملك الحق) بمخالفته والتعريض لسخطه، وشتان ما بين هذين الحالين، وهذا هو الغالب من حال الفريقين، وقد تطلب العامة الستر فيها امتثالًا لأمر الله ورسوله بالستر فيما وقع منهم بأن لا يفضحهم بين خلقه، ولا بين يديه لخجلهم لوقوع المعصية منهم، ولإساءة الناس ظنهم بالمنسوبين إلى الله إذا اطلعوا عليهم.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة

«مَنْ أَكْرَمَكَ فإنَّمَا أكرمَ فيكَ جميلَ سِتْرِهِ، فالحمدُ لِمَنْ سَتَرَكَ، ليسَ الحمدُ لمنْ أكرمَكَ وشكرَكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

"من أكرمك) أي: أقبل عليك بإعطاء محبة أو شكر، (إنما أكرم فيك جميل ستره) أي: ستره الجميل عليك، فلولا وجوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك ولا نظروا إليك بعين الرضا، إذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك، وحينئذ (فالحمد) لا ينبغي أن يكون إلا (لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)، فلا تحمده إلا من حيث إجراء الخير على يديه لا من حيث إنه المكرم والمعظم حقيقة، إذ ليس ذلك إلا لله، فمن أقبل الناس عليه وأكرموه، فقد يغلط ويضع الحمد والثناء في غير موضعه، فيكون من الظالمين، وقد يغلط فيري لنفسه وضعًا محمودًا يستحق به الإكرام، فيكون من الجاهلين بأنفسهم، الناظرين إلى عملهم، الغافل عن منة الله عليهم، فحذر ﷺ من هاتين الغلطتين.

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة

«ما صَحِبَكَ مَنْ صَحِبَكَ وهُوَ بعيبِكَ عليمٌ، وليس ذلكَ إلا مولاكَ، خيرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يطلبُ لا لشيءٍ يعودُ منكَ إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما صحبك) أي: ليس الصاحب الحقيقي (إلا من صحبك) أي: أقبل عليك بإحسانه (وهو بعيبك عليم) أي: لم يمنعه من صحبته لك وإقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيوبك، (وليس ذلك إلا مولاك)، وكذلك من تخلق بأخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى، أما الذي يصحبك مع جهله بها فليس بصاحب حقيقة؛ لأنه لا يثبت عند ظهورها له، وإن عزم على ذلك فليس في مقدوره الصبر عليه، وإن صبر فلا بد تأثر يلحقه من ذلك، (لا لشيء يعود منك إليه) أي: وليس ذلك إلا لمولاك أو من تخلق بأخلاقه، أما من يصحبك لفعلك معه ونفعك له، فليس بصاحب حقيقة؛ لأن قصده مجرد قضاء حوائجه منك، فإذا زال غرضه فارقك.

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائة

«لو أشرق لك نورُ اليقينِ لرأيتَ الآخرة أقربَ إليك من أن ترحلَ إليها، ولرأيت محاسنَ الدنيا قد ظهرتْ كِسفة الفناء عليها»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لو أشرق نور اليقين) أي: العلم بالله وبما وعد به على لسان نبيه أي: لو كثر وأضاء ذلك النور في قلبك، (لرأيت الآخرة) أي: في تلك الحالة (أقرب) إليك (من) نفسها في حالة (أن ترحل إليها) أي: فيحال ارتحالك إليها وحلولك فيها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت (كسفة الفناء) أي: الفناء الشبيه بالكسفة، بفتح الكاف أي: الكسوف والتغيير، أو كسرها وهي القطعة من الشيء الذي يغطي بها الإناء فلا تلتفت إليه النفس ولا تنظر ما فيه (عليها)، وذلك أن نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فإذا أشرق في قلب العبد رأى به الحق حقًّا والباطل باطلًا والآخرة حق والدنيا باطل، فيبصر الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل فيقبل عليها بالتهيؤ والاستعداد لها، ويبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن بصره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهد فيها والتجافي عن زهرتها والإقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علاقة انشراح صدره بذلك النور كم قال ﷺ: "إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر واتضح، قيل له: يا رسول الله، هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: "نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله، وعند ذلك تموت شهواته، وتذهب دواهي نفسه، فلا تأمره إلا بخير، ولا تطالبه بارتكاب منهي عنه، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره في كل حين حلول الأجل وفوات صلاح الأمل.

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة

«ما حجبَكَ عن الله وجودُ موجودٍ معه، إذ لا شيءَ معه، ولكن حجبك عنه توهمُ موجود معه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما حجبك) أيها المريد المحجوب (عن الله وجود موجود) من الأكوان الدنيوية والأخروية

(معه)، إذ لا وجود لما سواه على التحقيق، (ولكن حجبك عنه توهم موجود معه) أي: توهمك أن ما سواه له وجود، مع أنه في ذاته عدم محض عند العارفين، ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء، فإنها لا تمنع سير السفن، فلا حاجب لك عن الله إلا توهم وجود ما سواه لا غير، وذلك كرجل بات في مكان وأراد الخروج، فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئيرًا أي: صوت أسد فمنعه ذلك عن الخروج، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا وإنما الريح انضغطت في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد وإنما حجبه توهم الأسد.

الحكمة الخمسون بعد المائة

«لولا ظهورُهُ في المكونات ما وقع عليها وجودُ الصفات، ولو ظهرت صفاتُه اضمحلتْ مكوناتُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لولا ظهوره في المكونات) أي: تجليه عليها بالوجود (ما وقع عليها وجود أبصار) أي: لم توجد، وإذا لم توجد فلا تبصر، فوجودها إنما هو بطريق العارية، وظهور الحق فيها كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، وإلا فهي في ذاتها عدم محض لا وجود لها في ذاتها، كما تقدم غير مرة، ويحتمل أن المعني أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكونات هو الذي أوجب ظهورها، ووقوع الأبصار عليها، ولولا تجليه في هذه المكونات بأن يتجلي التجلي الحقيقي الذي لا خفاء معه لاضمحلت وتلاشت ولم يقع عليها أبصار، وبدليل قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾[الأعراف:143] وأشار إلى ذلك بقوله: (لو ظهرت صفاته لاضمحلت مكوناته)، بل لم يكن هناك إبصار ولا مبصر، كما جاء في الحديث: "حجابه النور، وفي رواية، حجابه النار لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره".

الحكمة الواحدة والخمسون بعد المائة

«أظهر كل شيء لأنه الباطنُ، وطوى وجودَ كل شيء لأنه الظاهرُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أظهر وجود كل شيء لأنه الباطن) أي: إن مقتضى اسم الباطن ألا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر الأشياء كلها أي: جعلها ظاهرة ولا باطن فيها غيره، (وطوى وجود كل شيء

لأنه الظاهر) أي: أن مقتضى اسم الظاهر ألا يشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كل شيء أي: لغيره وجودًا من ذاته، بل المكونات جميعها عدم محض ولا وجود لها إلا من وجوده، وحاصله أن من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن، فاسم الظاهر يقتضي بطون كل شيء حتى لا ظاهر معه، فينطوي حينئذ وجود كل شيء، واسم الباطن يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه، فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء أي: بوجوده، فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار ولا وجود لغيره إلا بطريق الطبع عند أرباب البصائر، بخلاف غيرهم من المحجوبين.

يقول السياجي غفر الله له:

مما ينبغي أن يفهم من استجلاء معني اسم الظاهر واسم الباطن أن اسم الباطن اسم فاعل للذات الإلهية يدل على أن كل شيء قد أبطنه الله وطوي ظهوره حتى يظهره، وهنا تتجلى معاني اسم الظاهر باعتباره اسم فاعل للذات الإلهية بأنه يتولى إظهار كل شيء ولولا إظهاره للشيء ما ظهر، فهو وحده الظاهر وهو وحده الباطن، وهو وحده الذي يعلم ما يظهر وما يبطن، وهو بكل شيء عليم.

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة

«أباح لك أن تنظرَ في المكونات، وما أَذِنَ لك أن تقفَ مع ذوات المكونات، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:101]، **فبقوله: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ فتح لك باب الإفهام، ولم يقل: انظروا السماوات لئلا يدلك على وجود الأجرام»**

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أباح لك) أي: أمرك الله تعالى (أن تنظر في المكونات) وهو جمال الحق سبحانه أي: أن تتصدي بنظرك القلبي حتى تشاهد أنه الموجود في المكونات أي: الظاهر فيها، (وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات)، بأن تحتجب بها عنه فلا تشاهده فيها، ثم استدل على ذلك وبينه بقوله: **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**، فأتي ب"في" الظرفية المشعرة بأن الاعتبار بالمظروف دون الظرف. قال في لطائف المنن: فما نصب الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها" أ.هـ وأشار إلى ذلك هنا بقوله: **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**،

(فتح لك باب الإفهام) أي: نبهك وأقظك لما هو المطلوب منك وهو مشاهدة ما فيها كما يفهم من الظرفية، (ولم يقل انظروا السماوات، لئلا يدلك على وجود الأجرام)، فتحتجب بها عنه ولا تشاهده فيها فتصير مقصدًا مع أنها وسيلة، إذ ليست إلا مرأى ومجالي يتجلى فيها الحق سبحانه لأرباب الشهود، ويستدل بها عليه أرباب الحجاب.

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة

«الأكوانُ ثابتةٌ بإثباته، مَمْحُوَّةٌ بأحديَّة ذاته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الأكوان) من حيث ذاتها عدم محض، وإنما هي (ثابتة بإثباته) أي: أنما حصل لها وصف الثبوت والتحقق بإثبات الله لها أي: ظهوره فيها، فالثبوت أمر عرضي ولا ثابت حقيقة إلا هو، ولذا قال: (وممحوة بأحدية ذاته) أي: من نظر إلى أحدية ذاته لم يجد للأكوان ثبوتًا وتحققًا حينئذ وإنما لها ثبوت في النظر إلى الواحدية؛ لأن الأحدية عند العارفين هي الذات البحت أي: الخالصة عن الظهور في المظاهر وهي الأكوان، والواحدية هي الذات الظاهرة في الأكوان، فيكون للأكوان حينئذ ثبوت باعتبار ظهور الحق فيها، ولذا يقولون بلسان الإشارة: الأحدية بحر بلا موج، والواحدية بحر مع موج، فإن الحق سبحانه وتعالى عندهم كالبحر والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينه ولا غيره، هذا توحيد العارفين، وقد كرر ﷺ الكلام عليه في هذا الكتاب وأبرزه في عبارات مختلفة، محاولة منه أن يحقق عندك الحق ويبطل عندك الباطل، وقد أفرده بعضهم بالتأليف وتكلم عن وحدة الوجود بما لا مزيد عليه.

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة

«الناسُ يمدحونك لما يظنون فيك، فكُنْ أنت ذامًّا لنفسك بما تعلمه منها»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الناس يمدحونك لما يظنون فيك) من الأوصاف الحميدة، (فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها) أي: فلا تغتر بمدح الناس لك وثنائهم عليك، بل ارجع على نفسك باللوم والذم على تلبسها بخلاف ما يظن الناس فيك، ولذا قال على كرم الله وجهه: "اللهم اجعلنا خيرًا مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون"، ويؤخذ من قوله: (فكن أنت ذامًا

لنفسك لما تعلمه منها)، أنه ليس مأمورًا بتكذيب الناس ولا بالسعي لتبديل ظنهم فيه، وإنما هو مأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم، نعم، إن كان المادح كاذبًا في مدحه بارتكاب المبالغة والغلو تأكد تكذيبه وزجره، وعليه يحمل قوله ﷺ: "احثوا التراب في وجوه المداحين"، فمدحه حينئذ منهي عنه، وكذا لو كان مدحه يورث عند الممدوح عزة ويغلطه في نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ لمن مدح عنده رجلًا: "قطعت عنق صاحبك"، وقال: "وإياكم والمدح، فإنه الذبح".

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة

«المؤمنُ إذا مُدِحَ استحيى من الله أن يُثْنَى عليه بوصفٍ لا يشهدُه من نفسه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(المؤمن) الحقيقي (إذا مدح استحيى من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه) أي: لا يرى ذلك الوصف الذي مدح عليه من نفسه، وإنما يراه منة من الله عليه، فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق أن يثنى بها عليه، وإنما يشهد ذلك من ربه، فإذا أثنى عليه الناس، وذكروا محاسنه استحيى من الله استحياء تعظيم وإجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه، فيزداد بذلك مقتًا لنفسه، واستحقارًا لها، ونفورًا منها، وتقوى عنده رؤية إحسان الله إليه، وشهود فضله في إظهار المحاسن عليه، وهذا هو الشكر الذي به ينال المزيد من سلامة من السكون إلى ثناء العبيد.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة

«أجهلُ الناسِ مَنْ تركَ يقينَ ما عنده لظنِّ ما عندَ الناسِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أجهل الناس) أي: أشدهم جهلًا، (من ترك يقين ما عنده) أي: اليقين الذي عنده وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه (لظن ما عند الناس) أي: لأجل الظن الذي عند الناس، وهو ظنهم لاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه، فإذا اغتر ذلك الممدوح واعتقد استحقاقه لما مدح به، واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس؛ لأنه ألغى اليقين وقدم الظن عليه وقدم ما عند غيره على ما عند نفسه، وقد شبه ذلك بعضهم بمن يهزأ بك ويقول لك بأن العذرة التي

تخرج منك لها رائحة كرائحة المسك وأنت ترضى بالسخرية بك وتفرح بذلك، ولا شك أن العيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنت وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة

«إذا أطلقَ الثناءَ عليك ولستَ بأهلٍ، فأثنِ عليه بما هو أهله»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا أطلق الثناء) أي: ألسنة الناس بالثناء (عليك ولست بأهل) أي: والحال أنك لست أهلاً لما يثنون به عليك، إما لعدم وجود ذلك فيك أو لكونك معيبًا بالعيوب الأصلية والعرضية فلا تستحق ثناء لولا فضل الله عليك وستره الجميل، (فاثن عليه بما هو أهله) أي: فالأدب أن تثني على سيدك بما هو أهله ليكون ذلك شكرًا لنعمة ستره عليك، وأنه أطلق الألسنة بمدحك مع عدم أهليتك لذلك، ولا تغتر بأقوال المادحين.

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة

«الزُّهَّادُ إذا مُدِحُوا انقبضوا لشهودهم الثناءَ من الخلق، والعارفون إذا مُدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الزهاد إذا مدحوا) أي: مدحهم أحد من الناس (انقبضوا لشهودهم الثناء) صادرًا (من الخلق) وغيبتهم عن الرب، وإنما انقبضوا حينئذ خوف الاغترار بذلك الثناء فيفوتهم نصيبهم من ربهم، (والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق)، فهم حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره، قائلون: "ألسنة الخلق أقلام الحق" فإذا مدحوا شهدوا الثناء منه فانبسطوا لذلك، وكان مزيدًا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم، فلا يحصل عندهم إعجاب ولا اغترار. وهذا محمل قوله ﷺ: "إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه"، لذا كان يمدح رضي الله عنه شيخه المرسي وهو ساكت، ويقع عنده المدح موقعًا عظيمًا، ولذا وقع لغيره من العارفين، وإذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه، ولا يؤذيه لعدم وجود المدح أو الذم صادران منه.

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة

«متى كنتَ إذا أُعْطِيتَ بسطكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قبضكَ المنعُ، فاستدلْ بذلك على ثبوتِ

طُفُولِيَّتِكَ، وعدمِ صدقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى كنت إذا أعطيت بسطك للعطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك) أي: تطفلك على أهل الله ولست منهم، بل أنت داخل معهم في أمر لا تستحقه، كما أن الطفيلي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، ولا يستحق الدخول معهم، وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة، كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقال له طفيل الأعراس، (وعدم صدقك في عبوديتك) لأن القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ، والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين، فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه في عبوديته وأنه طفيلي بين أهل الله في إدعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها، بل الحاصل عنده مجرد دعوى، نعم إن كان قبض خوف من عدم صبره ومقاومته للقهر الإلهي فيحصل عنده بعض ضجر، وكان بسطه لعدم وقوعه في ذلك ففيه اعتناء من الحق به حيث لم يوقعه في أمر يشوش عليه حاله لم يكن دليلًا على ما ذكر؛ لأن العارفين لا بد من بقاء شيء من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق، ومن لازم البشرية ذلك، فالخطاب المذكور مع المريدين.

الحكمة الستون بعد المائة

«إذا وقعَ منك ذنبٌ فلا يكن سببًا يؤنسُك من حصول الاستقامة مع ربِّك، فقد يكون ذلك آخرَ ذنبٍ قُدر عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا وقع منك ذنب) على حسب مقامك، (فلا يكن سببًا يؤنسك) أي: يقتضي يأسك (من حصول الاستقامة) أي: اعتدال أحوالك مع ربك بأن تعتقد بسبب صدور الذنب منك أن حصول الاستقامة لك مستحيل، فيحملك ذلك على تعاطي غيره من الذنوب، وهذا غلط؛ لأن الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى عليه القدر بذلك وإنما يناقضها الإصرار عليه والعزم على فعله ثانيًا، فالواجب عليك أن تتوب إلى مولاك وترجع إليه ولا تيأس من رحمته، (فقد يكون آخر ذنب قدر عليك) ويقبل عليك المولى بعد ذلك

بتوفيقه وإحسانه.

الحكمة الواحدة والستون بعد المائة

«إذا أردتَ أن ينفتحَ لك بابُ الرجاء فاشهدْ ما منه إليك، وإذا أردتَ أن ينفتحَ لك بابُ الخوف فاشهدْ ما منك إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء) فيه (فاشهد) أي: استحضر في نفسك ما هو واصل (منه إليك) من جلب المنافع ودفع المضار من حين كونك في بطن أمك إلى الوقت الذي أنت فيه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه، وعدم اليأس من رحمته ولو مع الوقوع في الذنب، (وإذا) غلب عليك الرجاء وخفت أن يوقعك ذلك في مخالفاته، (وأردت أن يفتح لك باب الحزن) ليكفك عن ذلك، (فاشهد) أي: استحضر في نفسك (ما) هو واصل (منك إليه) من المخالفات والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فإذا شهدت ذلك غلب عليك حال الحزن، فتنكف عن مخالفته، فالرجاء والحزن حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين وشبههما بشيء عليه باب مغلق استعارة مكنية، والباب تخيل، والفتح تشبيه وترشيح أو الإضافة للبيان.

الحكمة الثانية والستون بعد المائة

«رُبَّمَا أفادَك في ليلِ القبضِ ما لم تستفدْه في إشراقِ نهارِ البَسطِ، لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما أفادك) أيها العارف (في ليل القبض) أي: القبض الشبيه بالليل بجامع السكون في كل (ما لم تستفده) أي: علومًا ومعارف لم تستفدهما (في إشراق نهار البسط) أي: البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار في كل لما تقدم أن من حصل عنده البسط تتهيج نفسه إلى إظهار ما عنده من المعارف وغيرها فربما كان ذلك سببًا لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض فإن نفسه تتكسر وتذل فيكون ذلك سببًا في إفاضة الخير عليه، ولذا كان العارفون يؤثرونه على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط، وقد يحصل عندهم من جزع وعدم صبر على مقاومة القهر الإلهي بخلاف البسط فينبغي للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه في حال القبض كما يعرفها في حال البسط وأن يكل كل ذلك إلى ربه ويحسن ظنه

به فإنه لا يدري أيهما أقرب نفعًا كما قال تعالى: ﴿**لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**﴾[النساء:11].

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة

«مطالعُ الأنوارِ القلوبُ والأسرارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(مطالع الأنوار) أي: مواضع طلوع وشروق الأنوار المعنوية وهي نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد (القلوب والأسرار) أي: قلوب العارفين وأسرارهم، فهي كالسماء التي تشرق فيها الكواكب وتطلع فيها، وتقدم أن تلك الأنوار أشد إشراقًا من نور الكواكب، قال بعضهم: "لو كشف الحق تعالى عن مشرقات قلوب أوليائه لطمس نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوار القلوب؟! فإن ذلك النور يطرأ عليه الكسوف والغروب وأنوار قلوب أهل الله لا كسوف لها ولا غروب.

وقال الشاذلي قدس الله سره: "لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن الطائع، فمن لطف الله عدم الاطلاع على أنوار العارفين، فقد قال المرسي قدس سره: لو كشف عن حقيقة الولي لَعُبِد؛ لأن أوصافه من أوصافه، ونعوته من نعوته".

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة

«نورٌ مُسْتَوْدَعٌ في القلوب، مددُه النورُ الواردُ من خزائنِ الغُيُوبِ، نورٌ يكشفُ لك به عن آثاره، ونورٌ يكشفُ لك به عن أوصافه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(نور مستودع في القلوب)، وهو نور اليقين المودع في قلوب العارفين، (مدده) أي: يمتد ويتزايد ضياؤه (من النور الوارد من خزائن الغيوب)، وهو نور الأوصاف الأزلية، فإذا تجلى الله عليهم بأوصافه تزايد ذلك النور الحاصل في قلوبهم، وذلك دليل على عناية الله بهم.

قال في لطائف المنن: "واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى وليًّا صانه من الأغيار حرسه بدوام الأنوار، وأشار إلى أن النور المستودع في القلب على قسمين بقوله: (نور يكشف لك به

عن آثاره)أي: عن أحوال المكونات فتطلع على أحوال العباد وعلى ما فوق السماء وتحت الأرض، وهذا يسمي كشفًا صوريًا وهو ليس معتنى به عند المحققين، (ونور يكشف لك به عن أوصافه) أي: أوصاف جلاله وجماله وذلك النور لا يحصل إلا من تجلى تلك الأوصاف عليه، وهذا يسمى كشفًا معنويًا، وهو المعتد به عندهم، ولم يقل: "ونور يكشف لك به عن ذاته"، لأن تجلي الذات البحت الخالية عن الصفات مختلف فيه عندهم فبعضهم نفاه وبعضهم أثبته، ويسميه الشيخ محيي الدين بالبوارق، لكونه يطرأ ويزول سريعًا؛ لأن القدرة البشرية لا تطيق دوامه.

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة

«رُبَّمَا وقفتِ القلوبُ مع الأنوارِ، كما حُجبتِ النفوسُ بكثائفِ الأغيار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما وقفت القلوب مع الأنوار) أي: فتحتجب بها وتعطل عن السير إلى الله تعالى، (كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار) أي: بكثائف هي الأغيار أي: الشهوات واللذات التي هي غير المولى سبحانه وتعالى، فالحجاب عن المولى قسمان: نوراني، وهي العلوم والمعارف إذا وقفت القلوب معها، وركنت إليها وجعلتها غاية مقصدها، وظلماني؛ وهو شهوات النفوس وعاداتها، ووصفها بالكثافة لأنه لا تزول إلا بمعاناة ومشقة.

الحكمة السادسة والستون بعد المائة

«سَتَرَ أنوار السرائر بكثائف الظواهر، إجلالاً لها أن تُبتذلَ بوجود الإظهار، أن يُنادى عليها بلسان الاشتهار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ستر أنوار السرائر) أي: أنوار قلوب أوليائه، (بكشف الظواهر) أي: بالأحوال التي يتلبسوا بها في ظواهرهم ويتعاطونها من الصنائع وغيرها، فإن تلك الأحوال كثائف أي: حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم، وإنما ستر تلك الأنوار مع أن الظهور التام لا ينبغي أن يكون إلا لها، (إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار) أي: لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها، وصانها من أن ينادى

عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعًا من الإهانة بها، وقد تقدم هذا في قوله سبحانه: "من ستر سر الخصوصية.. إلخ " لكن أعاد ذلك هنا لأجل التعليل المذكور، وأيضًا سترها رحمة من الله بالمؤمنين إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقًا لا يقدر على القيام بها، فإذا قصر وقع في المحذور.

الحكمة السابعة والستون بعد المائة

«سُبْحَانَ من لم يجعلِ الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليل عليه، ولم يوصلْهم إليهم إلا من أراد أن يوصلَه إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(سبحان من لم يجعل الدليل) أي: الاهتداء والوصول والاستدلال (على أوليائه إلا من حيث) أي: من جهة (الدليل عليه) أي: أنه مماثل لذلك، فكما أن الله محتجب لا أكوان عن المخلوقين فاهتداؤهم إليه ووصولهم إلى معرفته أمر عسير يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة ويشكره عليها كذلك الولي مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة، وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيره، فيكون الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته أمرًا عسيرًا يتعجب منه، فإذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها والحاصل أن الوصول إلى معرفة الله الخاصة عناية من الله تعالى لا بطلب ولا بسبب، وكذلك الولي بل معرفته أصعب من معرفة الله؛ لأنه تعالى معروف بكماله وجماله، والولي مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب، (فإذا) أراد الله تعالى أن يعرفك بولي من أوليائه لتنتفع به طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته، (ولم يوصل إليهم) أي: يعرف بهم ويجمع عليهم (إلا من أراد أن يوصله إليه) وذلك لأنهم أحبابه فيغار عليهم أن يجمع عليهم غير أحبابه وهذا لبعض الأولياء وهم المسلكون فمن أراد أن يوصله إليه جمعه عليهم على وجه الصحبة الخاصة وهم قسمان: قسم يظهر للعامة والخاصة، وقسم لا يظهر إلا للخاصة، وهناك عباد لا يظهر عليهم أحدًا من خلقه حتى الحفظة، ويتولى قبض أرواحهم بيده، ولا يسلط التراب على أبدانهم.

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة

«رُبَّمَا أطلعكَ على غيبِ مَلَكُوتِه، وحجبَ عنك الاستشرافَ على أسرارِ العباد، فكان اطِّلاعُه فتنةً

عليه، وسببًا يجر الوَبَال عليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما أطلعك على غيب ملكوته) أي: ملكوته الغائب عنك كالذي فوق السماء وتحت الأرض، (وحجب عنك الاستشراف) أي: الاطلاع (على أسرار العباد) أي: ما في قلوبهم من خير أو شر، وذلك من لطف الله بك لأن من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية بأن يستر على المذنبين، ويحلم على الظالمين ويصلح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين، فمن لم يتصف بذلك (كان اطلاعه فتنة عليه)، لأن ذلك يؤدي به إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بما عمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة (وَ) كان أيضًا (سببًا يجر الوبال عليه) من ادعائه لصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزي والنكال.

روي أن إبراهيم عليه السلام لما أراه الله ملكوت السماوات والأرض أشرف على رجل في معصية من معاصي الله تعالى، فدعا عليه، فهلك، وكذلك آخر وآخر، فهلكوا، فأوحى الله تعالى إليه أن: "يا إبراهيم، إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدع على عبادي، فإنهم مني على ثلاث خصال، إما أن يتوب العبد منهم إليَّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لي، وإما أن يبعث إليَّ شيئًا، فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته"، وقيل: إن هذا سبب لأمر الله له بذبح ولده؛ لأنه تعالى رحيم بعباده كشفقته على ولده، والحاصل أن المكاشفة نعمة من الله على المريد، وشكرها الستر والصفح.

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة

«حظُّ النفسِ في المعصيةِ ظاهرٌ جَلِيٌّ، وحظُّها في الطاعةِ باطنٌ خَفِيٌّ، ومُداواةُ ما خَفِيَ صعبٌ علاجُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(حظ النفس في المعصية) كالزنا (ظاهر جلي)، وهو التذاذة بها، فإنها لا تطلب منك التلبس بالمعصية إلا لأجل أن تلتذ بها فيحصل لك الوبال والنكال، (وحظها في الطاعة باطن خفي)، لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر، وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها، فإذا أمرتك بها لم

تعلم حظها فيها إلا بعد تفتيش، فقد تربك أن حظها فيها التقرب إلى الله تعالى وفي الباطن ليس لها حظ إلا إقبال الناس عليك واشتهارك بينهم بالصلاح، ومن حاسب نفسه وراقب خاطره تبين له مصداق هذا، (ومداواة ما يخفي) أي: زوال حظوظها الخفية (صعب علاجه)، لأنه يحتاج إلى دقة وفهم ونفوذ وإدراك، فأهل البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات ويفتشون عن سب بميلها إليها، فإن كالحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم في حال فعلها حتى تكون خالصة لله تعالى كما وقع لبعضهم أنه حدثته نفسه بالخروج إلى الغزو وأظهرت له أن ذلك لله تعالى، ففتش فإذا هو لتستريح من تعب المجاهدة، فإنه كل يوم يقتلها مرات كثرة يمنعها من شهواتها، فأرادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح، وأيضًا لأجل أن تتشايع الناس بأنه استشهد فيكون شرفًا له وذكرًا في الناس، فترك الخروج إلى الغزو، وقد يجد الشخص من النشاط واللذة من نوع العبادات ما لا يجده في نوع آخر، وما ذلك إلا لأجل أن حظها فيه أكثر من الآخر، فإذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت إليه نفسه إلى غيره، فإن طاوعته لم يكن لها في الاشتغال في ذلك النوع حظ وإلا لكان لأجل حظها.

يقول السياجي يغفر الله له:

إن صدق المثال الثاني في حظ النفس من عبادة فوق عبادة، فربما يصح ذلك في نوع من المجاهدة في النوافل غير الراقية، والعبادات التطوعية من قيام أو صيام أو ذكر، لكن المثال الأول وهو الغزو حظ النفس فيه من تهرب عن مجاهداتها وقتل شهواتها إلى قتل لها دفعة واحدة، ثم الشهرة بين الناس بشرف الذكر وحسن الأداء فتركن النفس لذلك فتترك الغزو خشية هذه الأمور وتقعد عن الخروج في سبيل الله فهذا أمر يحتاج إلى مراجعة، فالجهاد في سبيل الله متى قدر العبد عليه فرض عين وليس من قبيل التطوع الذي يفعل أو لا يفعل، وأنه فيه على الخيار. أما بالنسبة للوقوف من النفس موقف الرفض لنزواتها وشهواتها فيمكن أن يخرج إلى الجهاد والغزو وفي نفس الوقت يواظب على مجاهداته لنفسه فمن ذا الذي يخرج للموت في سبيل الله وبه تعلق بهوى أو شهوة من حجب الدنيا وكثائف الأنفس.

الحكمة السبعون بعد المائة

«رُبَّمَا دخلَ الرياءُ عليكَ من حيثُ لا ينظرُ الخلقُ إليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما دخل عليك الرياء من حيث لا ينظر الخلق إليك) أي: وأنت في مكان لا ينظر الناس إليك فيه، يعني: إن الرياء كما يدخل في العمل إذا عمله صاحبه عند الناس ويسمى الرياء الجلي، يدخل فيه إذا عمله وحده بأن يقصد به توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل ومسارعتهم في قضاء حوائجه، فإذا قصر أحدهم في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره وربما توعد من قصر في حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله يأخذ بثأره منه، فإذا وجد العبد هذه الأمارة في نفسه فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن الناس، ويسمى هذا الرياء الخفي، ولا يسلم من الرياء الجلي والخفي إلا العارفون الموحدون؛ لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس، ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو المرائي بعمله، وإن عبد الله في جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به.

الحكمة الواحدة والسبعون بعد المائة

«استشرافُك أن يعلمَ الخلقُ بخصوصِيَّتِكَ دليلٌ على عدمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(استشرافك) أيها المريد أي:ميلك ومحبتك إلى (أن يعلم الخالق بخصوصيتك) أي: بما خصك الحق به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية، (دليل على عدم صدقك في عبوديتك)، لأن الصدق في العبودية هو طرح الأخيار وعدم الالتفات إليها رأسًا، فلو كنت صادقًا في عبودية الرب لقنعت بعلمه بكلم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له.

قال بعضهم: "من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مرائي ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب"، هذا في بداية السلوك، فإن تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة فلا بأس به بالإخبار بأعماله، والإظهار لمحاسن أحواله، ليؤدي حق شكرها وليقتدي به غيره، فمبنى أهل الطريق في البداية على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال،

وكتم الأحوال تحقيقًا لفنائهم، وتثبيتًا لزهدهم، وعملًا على سلامة قلوبهم، وحبًا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، ولم تتعلق إرادتهم بظهور ولا خفاء، بل يردون الأمر إليه في ذلك.

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة

«غيِّبْ نظرَ الخلقِ إليك بنظر الله إليك، وغيب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(غيب نظر الخلق إليك) أي: لا تلتفت إلى نظرهم إليك ولا تطلبه ولا تخطره ببالك بل اجعله غائبًا عنك، (ينظر الله إليك)، فلا يكن التفاتك وتشوقك إلا لنظر الله إليك، وكذا يقال في قوله: (وغيب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك)، فلا تلتفت إلى إقبالهم عليك ولا تطلبه، بل لا يكون التفاتك وطلبك إلا لإقبال الله عليك، فإن إقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهمتهم وغير ذلك من الآفات، وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى، فلا يرضى بإقبالهم إلا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة، لأن رضي الناس غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، وأما من كان له عقل وافر فلا يمل إلا لإقبال الله من غير مبالاة بذم ذام ولا عيب معيب.

قال بعضهم: "الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع الناس على مثقال ذرة من صلاح عمله، ولا يكره أن يطلعوا على السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من إخلاص الصادقين.

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة

«من عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كُلِّ شيءٍ، ومن فَنِيَ به غاب عن كل شيءٍ، ومن أحبَّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من عرف الحق) أي: من تحقق في مقام المعرفة بالله، (شهده في كل شيء) أي: رآه

ظاهرًا في أعيان الموجودات فلا يستوحش من شيء، ويأنس به كل شيء كما تقدم في نعت العارفين، (ومن فني به) أي: تحقق في مقام الفناء، (غاب عن كل شيء)، فلا يري ظاهرًا في الوجود إلا الله ويغيب هو عن نفسه وحسه فلا يشاهد له وجودًا وتحققًا بخلاف العارف، فإنه متحقق في مقام البقاء، فيرى الخلق والحق ظاهرًا في كل الأشياء وقائمًا بها مع عدم غيبته عن نفسه وحسه، (ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا) أي: من إرادته وشهواته، فهذه علامات يعرف بها حال من ادعى بلوغ هذه المقامات.

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة

«إِنَّمَا حجبَ الحقَّ عنك شدةُ قربه منك وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظيم نوره»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إنما حجب الحق) أي: الله (عنك لشدة ظهوره)، ولأن الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون بشدة القرب، فإن اليد إذا قربت من البصر والتصقت به لم يرها بخلاف ما إذا كانت بعيدة عنه، وكذلك الرب لم نره لإحاطته بنا إحاطة تامة، وقربه منا قربًا معنويًا، ولا يدرك ذلك إلا أرباب البصائر الذين تجلى الحق عن بصائرهم، فأزال عنهم الحجاب حتى رأته قائمًا بالأشياء ومحيطًا بها، (وَ) إنما (خفي عن الأبصار) فلم تدركه في الدنيا (لعظمة نوره)، وذلك كالشمس فإن نورها أقوى من سائر الأنوار المحروسة، وقوة نورها هو الذي حجب الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها، فقد صار ظهورها الذي أوجبه وجود نولاها حجابًا لها وليس الحجاب منها على الحقيقة فإن الظاهر لذاته لا يحتجب من ذاته، وإنما يطرأ الحجاب عليه من غيره، وهو هنا ضعيف البصر عن مقاومة فيضان النور، وهذا لازم لما قبله.

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة

«لا يكنْ طلبُكَ سببًا إلى العطاء منه فَيَقِلّ فهمُك عنه، وليكنْ طلبُك لإظهارِ العُبُودِيَّةِ وقيامًا بحقوقِ الربوبيَّةِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه) أي: لا تقصد بطلبك أي: توجهك له بالدعاء

والأعمال الصالحة حصول النوال منه، وتعتقد أنه سبب مؤثر ذلك، (فيقل فهمك عنه) أي: عن الله فلا تفهم السر والحكمة في أمر الله عباده بالطلب، وهو ما ذكره بقوله، (وليكن طلبك لإظهار العبودية) أي: لإظهار كونك عبدًا ذليلًا ضعيفًا لا غنى لك عن سيدك، (وقيامًا بحق الربوبية)، فإن الربوبية تقتضي التذلل والخضوع من المربوب، يعني أن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منه إلا ليظهر افتقارهم إليه وتذللهم بين يديه، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوا فيه، هذا هو فهم العارفين عن الله، ومَن هذا حاله لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وإن أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤال ومأرب، وألا يفرق بين العطاء والمنع فيكون عبدًا لله في الأحوال كلها، كما أنه ربه في الأحوال كلها، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه.

الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة

«كيفَ يكون طلبُكَ اللاحقُ سببًا في عطائه السابق، جَلَّ حكمُ الأزلِ أنْ يُضَافَ إلى العِلَلِ، عنايتُهُ فيك لا لشيءٍ منك، وأينَ كُنْتَ حين واجهتك عنايتُهُ، وقابلتك رعايتُه؟ لم يكن في أزله إخلاصُ أعمالٍ، ولا وجودُ أحوالٍ، بل لم يكن هناك إلا محضُ الإفضالِ، ووجودُ النَّوَالِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف يكون طلبك اللاحق) أي: الموجود فيما لا يزال (سببًا في عطائه) أي: إعطائه (السابق) أي: الموجود في الأزل، فإن الإعطاء وهو تعلق الإرادة في الأزل تعلقًا تنجيزيًا قديمًا لا يكون الطلب سببًا فيه لتأخره عنه، والسبب لا بد من تقدمه على المسبب، ولذا قال: (جل حكم الأزل) أي: ما حكم به في الأول، وعلقت إرادته وهو الإعطاء، (أن يضاف إلى العلل) أي: ينسب لعلة وهو الطلب أي: أن يكون سببًا مؤثرًا فيه إن قيل قد يكون ذلك الإعطاء معلقًا على الطلب فيكون سببًا فيه، أجيب بأن السبب في الحقيقة هو تعلق إرادة الله في الأزل، أنك تدعوه فيما لا يزال، لا نفس الطلب المتأخر، (عنايته فيك) أي: إعطاؤه إياك ما تطلبه أي: تعلق إرادته في الأزل بالإعطاء، (لا لشيء منك) أي: وقع منك اقتضى حصول العناية كالدعاء والأعمال الصالحة، (وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته)، وهي بمعني العناية أي: أنك كنت معدومًا في الأزل، ويلزم من ذلك عدم ما يصدر منك، (لم يكن في أزله إخلاص

أعمال) أي: أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم، (ولا وجود أحوال)، مرادف لما قبله، (بل لم يكن هناك إلا) محض (الأفضال وعظيم النوال)، مرادف لما قبله، فالدعاء ليس سببًا مؤثرًا في المطلوب، والأعمال الصالحة ليست سببًا مؤثرًا في عناية الله أي: دخول الجنة والنجاة من النار.

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة

«عَلِمَ أن العبادَ يتشوَّفُون إلى ظهورِ سرِّ العنايةِ، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:105]، وعَلِمَ أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزلِ، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56] »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(علم أن العباد تشوقون إلى ظهور سر العناية)، السر هو الشيء المغطى؛ لأنه مخفي عنا والعناية هي تعلق الإرادة بحصوله في المستقبل، فلما علم أننا نتشوف إلى حصوله فنطلبه بالدعاء والأعمال الصالحة ونعتقد تأثير ذلك فيه، (فقال: **﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾**، زجرًا وقطعًا لأطماعنا لاحتمال أن سر العناية خاص ببعض الناس، كما أن النبوة لما تشوف الناس إلى ظهورها آخر الزمان ادعاها جماعة فزجرهم الله بقوله: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**، (وعلم أنه لو خلاهم وذلك) أي: مع ملاحظة أن العناية الأزلية خاصة ببعض الناس وليست عامة، (لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل)، قائلين: إن كان سبق في الأزل أنا من أهل العناية ومن أهل الخصوص نجونا من النار، ودخلنا الجنة من غير أعمال، فلا حاجة إلى الأعمال ولا إلى الدعاء بحصول المطالب، (فقال: **﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**) بالأعمال الصالحة، فهي علامة وأمارة على تلك العناية الأزلية، وإن لم تكن علة موجبة لها، فلا ينبغي تركها اعتمادًا على ما في الأزل، وإن لم يكن لها تأثير في حصول المطلوب.

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة

«إلى المشيئةِ يستندُ كُلُّ شيءٍ، وليستْ تستندُ هيَ إلى شيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إلى المشيئة يستند كل شيء) أي: أن كل موجود يستند إلى مشيئة الله من حيث تعلقها به أزلًا، (وليست تستند هي إلى شيء) من الوجودات، والمراد بالمثبتة في مرجع الضمير ما تعلقت

به أزلًا، وهو مطالب العباد التي سبق العلم بها، فإن طلبها بالدعاء والأعمال الصالحة ليس سببًا مؤثرًا فيها، وهذه العبادات التي ذكرها في غاية الحسن، وفيها إشارة إلى التعلق بأحكام الأزل وطرح الأسباب والعلل، فعلى العبد أن يلزم العبودية والافتقار ويترك التدبير والاختيار، قال أبو بكر الواسطي: إن الله لا يقرب فقيرًا لأجل فقره، ولا يبعد غنيًا لأجل غناه، وليس للأعراض عنه خطر حتى بها يصل وبها يقطع، ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها ولو أخذتها كلها ما قطعك بها قرب من قرب من غير علة وأبعد من أبعد من غير علة، قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[النور:40]).

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة

«رُبَّمَا دَلَّهُم الأدبُ على تركِ الطلبِ، إنَّمَا يُذَكِّرُ مَن يجوزُ عليه الإغفالُ، وإنَّمَا يُنَبِّهُ من يجوزُ عليه الإهمالُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما دلهم الأدب على ترك الطلب)، يعني أن بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم فيترك السؤال والطلب اعتمادًا على القسمة الأزلية وممن رأيناه متحققًا في هذا المقام العارف بالله تعالى الغارق في بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندي التركي الفطموني الجركسي فسح الله في مدته، ورزقنا دوام مودته، واختلف القوم أي أفضل الدعاء أم السكوت أم الرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء أفضل لأنه في نفسه عبادة لقوله ﷺ: "الدعاء مخ العبادة"، والإتيان ما هو عبادة أولى من تركه، ومنهم من قال: السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم وأرضى؛ لأن ما سبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك، وقد ورد في الحديث القدسي: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"، ومنهم من فصل فقال: "الأوقات مختلفة فإنه إذا وجد الداعي في قلبه إشارة إلى الدعاء كالانبساط وتوجه القلب فالدعاء أولى، وإن وجد فيه إشارة إلى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب فالسكوت أولى، فإن لم يجد في قلبه شيئًا من ذلك كان الدعاء وتركه سِييّن، نعم، إن كان الغالب حينئذ المعرفة كان السكوت أولى، ثم علل ما ذكره من كون الأدب قد يكون في ترك الطلب فقال: (إنما يذكر) بالدعاء (من يجوز عليه الإغفال) أي: السهو بأن يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل يذكره بالسؤال، (وإنما ينبه) بمعنى يذكر (من

يمكن منه الإهمال) أي: عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله فهو مستحيل على الله تعالى ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبًا وقد سئل الواسطي أن يدعو، فقال: أخشى أن أدعو فيقال لي: إن سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا في الدهور.

الحكمة الثمانون بعد المائة

«ورُودُ الفاقاتِ أعيادُ المريدين، رُبَّمَا وجدتَ من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة، الفاقاتُ: بَسْطُ المواهب، إن أردت بَسْطَ المواهب عليك صححْ الفقرَ والفاقةَ لديك،﴿ إنَّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين﴾ تَحَقَّقْ بأوصافِكَ يَمُدُّكَ بأوصافِه، وتَحَقَّقْ بذلك يَمُدُّكَ بِعِزَّتِهِ، وتحققْ بعجزِكَ يمدُّك بقدرته، وتحقق بضعفك يمدك بحولِهِ وقوَّتِهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ورود الفاقات أعياد المريدين)، الأعياد جمع عيد، وهي الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، فالمريدون يسرون بالفاقات؛ لأنها تسرع بوصولهم لمقصودهم لما فيها من الذل وقهر النفس كما تسر العوام بالأعياد لما فيها من نيل شهواتهم من ملابس وغيرها، (ربما وجدت) أيها المريد (المزِيدَ) أي: الزيادة في حالك من طهارة السر وحصول الأنوار والمعارف (في الفاقات) أي: في حال ورودها عليك (ما لا تجده في الصوم والصلاة)، لأنه قد يكون قيامك بهما لشهوة نفسك وحظوظها، ومن كان هذا سبيله فلا يؤمن فيه دخول الآفات فلا يفيدك تزكية ولا تحلية بخلاف ورود الفاقات فإنها مباينة للهوى والشهوة، على كل حال (الفاقات بسط المواهب) أي: كالبسط التي ترد عليها المواهب الإلهية لكل من جلس عليها، كما أن الملك إذا جلس أحد على بساطه أعطاه شيئا من مواهب الدنيا، فالفاقات تحضرك مع الحق وتجلسك على بساط الصدق وناهيك مما يكون في تلك الحضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية ولذا قال: (إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك)، بأن تتحقق بهما في نفسك تحققًا تامًا فلا يكون عندك استغناء بغيره بوجه من الوجوه فحينئذ ترد المواهب الإلهية عليك لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾ [التوبة:60] ، تحقق أوصافك يمدك بأوصافه)، ثم فصل ذلك بقوله: (تحقق بذلك يمدك بعزه)، فتصير عزيزًا به لا بنفسك، (تحقق بعجزك يمدك

بقدرته)، فتصير قادرًا به لا بنفسك، (تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) فتصير قويًا به وكذا أن تحققت بفقرك يمدك بغناه، فإذا جلست على بساط الذل وقلت: "يا عزيز من للذليل غيرك" وعلى بساط العجز وقلت: "يا قادر من للعاجز غيرك" وعلى بساط الضعف وقلت: "يا قوي من للضعيف غيرك" وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت: " يا غني من للفقير سواك"، وجدت الإجابة كأنها طوع يدك فقوله: (تحقق بأوصافك) إلخ مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب؛ لأن من جملة المواهب الإمداد بضد الوصف الذي تحققت به.

الحكمة الواحدة والثمانون بعد المائة

«رُبَّمَا رُزِقَ الكرامةَ من لم تَكْمُلْ له الاستقامةُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما رزق الكرامة) أي: الأمر الخارق للعادة (من لم تكتمل له الاستقامة)، فلا ينبغي للمريد أن يعتني بها ويغتر بظهورها على يده؛ لأنه حينئذ ربما كانت معونة أو استدراجًا لا كرامة، فالكرامة الحقيقية هي كمال الاستقامة ومرجعها إلى أمرين، صحة الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فالواجب على المريد ألا يحرص إلا عليها، ولا يكون له همة إلا في الوصول إليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة لها عند المحققين.

في هذا الكلام بيان واضح لكل متقول على أهل الشرع والاستقامة، وأن الصوفي الحق هو المتبع للكتاب والسنة متمسكًا متحققًا بهما.

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة

«من علاماتِ إقامةِ الحقِّ لك في الشيء إدامتُهُ إيَّاكَ فيه مع حصولِ النتائجِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من علامة إقامة الحق) أي: الله (لك في الشيء)، كالاكتساب أو التجريد، (إقامته إياك فيه) أي: تيسير أسبابه لك وإدامته عليك، (مع حصول النتائج) أي: ثمرات ذلك الشيء كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب.

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة

«من عَبَّرَ من بِسَاطِ إحسانه أصمتَتْهُ الإساءةُ، ومن عَبَّرَ من بساط إحسان الله له لم يصمتْ إذا

أساءَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من عبر) أي: تكلم في علوم القوم وأفادها للمريدين (من بساط إحسانه) أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم نشأ من إحسانه أي: أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذي يجلس عليه عند ورود المواهب، (أصمتنه الإساءة) أي: أسكتته أساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يعتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التي صدرت منه، وسبب ذلك مشاهدته إحسان نفسه، (ومن عبر من بساط إحسان الله إليه) أي: ملاحظًا أن تعبيره وإفادته تلك العلوم ناشئ من إحسان الله إليه غالبًا عن رؤية نفسه، (لم يصمت إذا أساء) أي: لم يسكت عند ذلك التعبير إذا صدرت منه معصية؛ لأن غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك، ولذا قيل: جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان.

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة

«تسبقُ أنوارُ الحكماءِ أقوالَهم، فحيثُمَا صارَ التنويرُ وصلَ التعبيرُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(تسبق أنوار الحكماء أقوالهم)، وهم العارفون بالله تعالى، العاملون به، وأنوارهم هي أنوار معرفتهم، وهي قوة يقينهم بأن الأنوار كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها، فإذا أرادوا إرشاد عباد الله ونصيحتهم بإذن من الله توجهوا إلى الله والتجئوا إليه في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعدادًا لقبول ما يرد عليها فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشئ من أنوار سرائرهم يصل إلى تلك القلوب، (فحيث صار) أي: حصل، (التنوير) أي: النور أي استقر في قلوب عباد الله الذين يريدون إرشادهم، (وصل التعبير) أي: تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم الانتفاع.

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة

«كُلُّ كلامٍ يَبْرُزُ وعليه كِسْوَةُ القلبِ الذي منه برزَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كل كلام يبرز وعليه)، الواو للحال، وفي بعض النسخ إسقاطها (كسوة القلب الذي منه

برز منه)، فإذا كالقلب منورًا اكتسى الكلام نورًا فلا تمجه الأسماع ولا تنكره القلوب، فكسوته هو ذلك النور، وكلام الحكماء يبرز مكسوًا بكسوة الأنوار فتنفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم، وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة، فلا ينتفع به أتم الانتفاع، وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله، ولقد جاء في الأثر: "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة

«مَنْ أُذِنَ له في التعبير حَسُنَتْ في مسامعِ الخلقِ عبارتُه، وجُلِبَتْ إليهم إشارتُه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من أذن له في التعبير)، عن الحقائق من العارفين بالله تعالى وهي علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة وعلامة الإذن له في ذلك تيسير التعبير علبه وسهولته وعدم احتياجه في إلقاء المعارف إلى كلفة بل يجد لسانه منطلقًا بها ويجد عنده باعثًا إلى التعبير عنها مع السلامة من آفات النطق وعلامة ذلك بالنسبة للسامعين ما ذكره بقوله: (فهمت في مسامع الخلق عبارته)، فلم يفتقروا إلى معاودة وتكرار جمل الأسماع محلًا للفهم مبالغة وإلا فمحلها حقيقة القلب، (وجليت) بضم الجيم وتشديد اللام أي ظهرت (إليهم إشارته)، وهي ألطف من العبارة التي يستعملها أهل الطريق في الإخبار عن العلوم الباطنية والحقائق العرفانية أي: فلا يحتاجون إلى إطناب بخلاف غير المأذون له في ذلك.

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة

«رُبَّمَا برزتِ الحقائقُ مَكْسُوفَةَ الأنوارِ إذا لم يُؤْذَنْ لكَ فيها بإظهارٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما برزت الحقائق)، وهي العلوم العرفانية، (مكسوفة الأنوار) بما غشيها من ظلمة ورؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم، (إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار).

قال أبو العباس المرسي قدس سره: "كلام المأذون له تكسوه طلاوة، وكلام غير المأذون له يخرج مكسوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلما بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدهما وترد من الآخر".

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة

«عبارَتُهُمْ إمَّا لفيضانِ وَجْدٍ أو لقصدِ هدايةِ مُرِيدٍ، الأوَّلُ: حالُ السالِكِين، والثاني: حالُ أربابِ المكنةِ والمتحققين»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(عباراتهم) التي يعبرون بها عن العلوم والمعارف التي يجدونها في باطنهم، (إما لفيضان وجد) أي: لفيضان ما يجدونه في قلوبهم من ذلك، فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها قهرًا عنهم كالإناء الضيق إذا وضع فيه ماء كثير، فإنه يفيض منه قهرًا، (أو لقصد هداية مريد)، وأن كانت قلوبهم متسعة يمكنهم رد ما يستقر فيها فلا يفيض منها شيء، (فالأول: حال السالكين)، من أهل البداية، فهم معذورون في التعبير لوجود الغلبة عليهم، (والثاني: حال أرباب المكنة والمتحققين) من أهل النهاية فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد والهداية، فإن عبر السالك لا عن غلبة وجد كان في ذلك نوع من الدعوى، وأن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد، كان ذلك إفشاء سر لم يؤذن له فيه، وأيضًا فحاله يقتضي وجود الصمت وعدم النطق؛ لأنه في حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب المفهوم.

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة

«العبارةُ قُوتٌ لعائلةِ قلوبِ المستمعين، وليس لك منها إلا ما أنتَ له آكِلٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(العبارات) التي يعبر بها أهل هذه الطريقة عن العلوم والمعارف (قوت لعائلة المستمعين)، الإضافة للبيان أي من حيث معناها قوت لأرواح العائلة، وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم، كما أن الأطعمة الحسية قوت لأبدان المحتاجين إليها، (وليس ذلك إلا ما أنت له آكل)، كما أن الأقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فقد تلقى العبارة على جماعة، فيفهم كل واحد منها ما لا يفهمه الآخر، وقد يفهم بعضهم من الكلام الذي يسمعه معنى لا يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثرًا عجيبًا وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم، فقد سمع بعضهم قائلًا يقول:

إذ العشرون من شعبان ولت   فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار   فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائمًا على وجهه حتى أتى مكة ولم يزل مجاورًا بها حتى مات.

الحكمة التسعون بعد المائة

«رُبَّمَا عَبَّرَ عن المقامِ مَنِ استشرفُ عليه، ورُبَّمَا عَبَّرَ عنه مَنْ وصلَ إليه، وذلكَ مُلْتَبِسٌ إلا على صاحبِ بصيرةٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما عبر عن المقام) أي: عن أي مقام من مقامات اليقين كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التوكل إلى غير ذلك، (من استشرف عليه) أي: اطلع عليه وقارب الوصول إليه، ولم يظفر به ولم يتحقق فيهن (وربما عبر عنه من وصل إليه)، وتحقق فيه، (وذلك) أي: ما ذكر من الحالين، (يلتبس) أي: يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا، (إلا على صاحب بصيرة)، فإنه لا يخفى عليه، فإنه يرى في الكلام صورة المتكلم الباطنية وما هي عليه من كلام ونقص، وعلامة الأول أن يجد الفرح والاستبشار عند التعبير واستعظام الأمر واستحسانه لكونه في مبادئه، وقريب عهد بغيره، بخلاف الثاني، فإنه يتكلم فيه كعادته في كلامه بغيره، وربما عبر عن المقام في نقله من كتاب، وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم وحفظه لعباراتهم، وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن وعلامة التي يتبين حاله أن يبحث معه على مقتضي قواعد فنون العلم، فإن صار يتكلف الأجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس والأنفة من العجز فهو مدع كذاب.

الحكمة الواحدة والتسعون بعد المائة

«لا يَنبَغي للسَالِكِ أن يَعبِّرَ عَنْ وَارداتِهِ، فإنَّ ذَلِكَ مما يُقَلِّلُ عَمَلَها في قَلبِهِ، ويَمنَعَهُ وجُودَ الصِّدقِ فيها مع رَبِّهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته) أي: ما يمنحه الله له من العلوم الوهابية والأسرار التوحيدية، فلا ينبغي له أن يعبر عنها اختيارًا منه، بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدًا إلا شيخًا مرشدًا له، (فإن ذلك يقل عملها في قلبه) أي: فلا يحصل له كمال الانتفاع بها، وهو تمكنها في القلب وتأثره بها، (ويمنعه وجود الصدق مع ربه)، إذ لا يخلو التعبير عنها لذة

وانشراحًا، وذلك يقوي صفاتها، وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربه.

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة

«لا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إلى الأخذِ من الخلائقِ إلا أنْ ترى أنَّ الْمُعْطِي فيهم مَوْلاكَ، فإنْ كُنْتَ كذلك فخذْ ما وافقَكَ العلمُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تمدن يدك) أيها المريد المتجرد (إلى الأخذ من الخلائق) مما يعطونه لك من الأرزاق على وجه الرفق إلا بشرطين أشار إلى الأول بقوله: (إلا أن ترى) أي: إلا بعد ملاحظتك (أن المعطي فيهم مولاك)، فلا ترى العطاء الذي يصل إليك إلا منه، وأن الخلق أسباب ووسائط ولا يكفي تلك الرؤية أن تكون علمًا وإيمانًا فقط، بل لا بد أن تكون حالًا وذوقًا، فإن ذلك هو اللائق بحال المتجرد، وإلى الثاني أشار بقوله: (فإن كنت كذلك)أي: ملاحظًا مولاك، (فخذ ما وافقك العلم) على آخذه وحاصله ألا تأخذ إلا ما وافقك العلم على آخذه وأباح لك أخذه والمراد علم الظاهر بأن لا تأخذ إلا من يد مكلف رشيد تقي.

وعلم الباطن بألا تأخذ إلا ما كان على وجه الرفق والمعونة أي: لا تأخذ إلا ما أنت مضطر إليه في الحال لتنفقه في ضرورياتك وحاجاتك من غير إسراف ولا إفطار كما كان عليه الصلاة والسلام في أكله وشربه ولباسه ومسكنه، وغير ذلك فلا تأخذ ما يأتيك قبل وقتك، ولا زائدًا على حاجتك إلا أن يكون في خلقك سخاء، ولا تأخذ ما تعطاه من جهة الاختيار من الله بأن أعطيت شيئًا كنت قد قصدت تركه لله من شهوة كنت مبتلى بها قد ملكتك ومنعتك القيام بحقوق ربك ولا تأخذ من منان ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا ممن يثقل على قلبك قبول عطيته، فقد قيل: "لا تأكل إلا ممن يرى لك الفضل عليه في أكله".

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة

«رُبَّمَا استحيى العارفُ أنْ يرفعَ حاجتَهُ إلى مولاه اكتفاءً بمشيئتِهِ، فكيفَ لا يستحيي أنْ يرفعَهَا إلى خليقَتِهِ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما استحى العارف) المحقق (أن يرفع حاجته إلى مولاه)، فلا يطلب منه شيئًا (لاكتفائه

بمشيئته) أي: بما تعلقت به مشيئته من إعطاء أو منع أو ضر أو نفع.

قال الشاذلي قدس سره لما سئل عن الكيمياء قال: "أخرج الخلق من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك"، (فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته)، فلا يسألون منهم ولا يرفعون إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد فرفع الهمة عن الخلق وعدم التعرض لهم مما يحتاجه سالكو هذه الطرق، فإن من خلع عليه خلعة الملك وحفظها وصانها فحري أن تدام له ولا تسلب عنه، والمدنس لخلع المواهب حري ألا تترك له، فلا تدنس إيمانك بطمعك في المخلوقين، ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين واتبع ملة إبراهيم في رفع إلهة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل وقال له: ألك حاجة؟ قال: "أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى" فقال له: سل الله، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي"، وخرج بالعارف باقي الفقراء وهم أقسام ثلاثة، منهم من صبر، فإذا احتاج سأل الناس وقبل منهم مع كونه لا يرى أن المعطي فيهم إلا مولاه، ومنهم من لا يسأل، وإذا أعطي قبل على الوجه المذكور، ومنهم من لا يسأل وإذا أعطي لا يقبل، قال بعضهم: "وهذا من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه وأن أقسم عليه أبر قسمه".

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

«إذا التبسَ عليك أمرانِ فانظرْ أثقلَهُمَا على النفسِ فاتَّبِعْهُ، فإنَّه لا يَثْقُلُ عليها إلا ما كان حقًّا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا التبس عليك) أيها المريد (أمران) واجبان أو مندوبان فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به كطلب ما لا بد منه من العلم وسعي على العيال، وكطلب علم زائد على ما لا بد منه، واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل والصلاة على النبي ﷺ (فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًّا) أي: أولى لأنها مجبولة على الجهل، فشأنها أبدًا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فإذا وجد المريد من نفسه خفة وميلًا عند بعض الأعمال دون بعض، اتهمها وترك ما خفت عليها ومالت إليه وعمل بما استثقله، فإن عمل بالأخف كان ذلك معدودًا عندهم من نفاق القلب، هذا إن لم تصر نفسه مطمئنة، فإن صارت كذلك عمل بما خف عليها ومالت إليه، ولكن ينظر حينئذ إلى ما هو أكبر فائدة وأعظم مزيدًا في حاله فيقدمه

على غيره وهناك ميزان آخر تميز به الأولى من غيره مما التبس عليك وهو أن تقدر نزول الموت بك فبأي عمل سرك أن تكون مشغولًا به إذ ذاك فهو حق وما عداه باطل، فإن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فإذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال خروج روحك فاشتغل به، فإن كنت تحب أن تخرج روحك وبيدك الكراس لإخلاصك في طلب العلم وقصدك به وجه الله فاشتغل به وإن كنت تكره ذلك وتحب أن تكون في ذلك الوقت مشتغلا بذكر الله فعلًا لا بطلب العلم، فلا تطلب العلم بل اشتغل بغيره لأن ذلك دليل على عدم إخلاصك فيه والكلام في القدر الزائد على ما لا بد منه من العلم.

يقول السياجي يغفر الله له:

المقصود بالعلم الذي لا بد منه هو العلم الضروري لمعرفة الله وفرائضه وحدوده التي أمر بها وشرعها على لسان نبيه ﷺ.

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة

«مِنْ عَلامَات اتِّبَاعِ الهَوى المُسَارَعةُ إلى نَوافِلِ الخَيرَاتِ، والتَّكَاسُلُ عَنِ القِيامِ بالواجباتِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات) أي: العبادات، (والتكاسل عن القيام بالواجبات)، فهذا من الصور الذي يخف فيها الباطل ويثقل فيها الحق، وإنما كانت النوافل قد تخف على النفس دون الفرائض؛ لأن العادة أنه لا مزية في القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها بخلاف النوافل، فإنها تذكر بها ويحصل لها بها قربة وجاه ومنزلة في القلوب، وهذا هو حال أكثر الناس فتجد الواحد منهم إذا اعتقد التوبة أي: صمم عليها لا همة له إلا في نوافل الصيام والقيام وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام وما أشبه هذا من النوافل، ومع ذلك هو غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات، وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضات نفوسهم التي خدمتهم، ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التي أسرتهم وملكتهم.

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة

«قَيَّدَ الطاعاتِ بأعيانِ الأوقاتِ، لئلا يَمْنَعَكَ عنها وجودُ التسويفِ، ووسَّعَ عليك الوقتَ ليبقي لك حِصَّةُ الاختيارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قيد) الله تعالى (الطاعات) الواجبة عليك كالصلوات الخمس (بأعيان الأوقات) أي: بأوقات معينة ولم يطلق وقتها (كي لا يمنعك وجود التسويف)، فإنه تعالى لو أطلقها ولم يعين لها أوقاتًا لحملك التسويف على تركها فإنك تتكاسل وتقول: حتى أفرغ من حاجتي أصلي لاتساع وقتها، فربما مضى يومك أو ليلتك ولم تفعلها بخلاف تقييدها بأوقات معينة، فإن ذلك يلجئك إلى تحلها ويحجزك عن تفويتها (ووسع عليك الوقت) أي: وسع أوقاتها عليك ولم يضيقها (كي تبقى لك حصة الاختيار)، فيمكنك فعلها في أول وقتها أو وسطه أو آخرته ولا تعد من المضيعين لها إذا أتيت بها في آخر وقتها مثلًا ولتتمكن أيضًا من الإتيان بها على الوجه الكامل وهو موطأة القلب للجوارح فإن الوقت إذا كان متسعًا يمكنك التخلي عن الشواغل والقواطع المانعة من استجماع الفكر والحضور مع الله تعالى حال العبادة واستعمال الآداب اللائقة بين يدي الله تعالى حينئذ.

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة

«عَلِمَ قلةَ نهوضِ العبادِ إلى معاملته، فأوجبَ عليهم وجودَ طاعتِهِ، فساقَهم إليه بسلاسلِ الإيجابِ، عَجِبَ ربُّكَ من قومٍ يُسَاقُون إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته) أي: الإقبال عليه بطاعته والقيام بحقوق ربوبيته طوعًا منهم لما هم عليه من وجود الضعف ولما في نفوسهم من وجود الكسل، (فأوجب عليهم وجود طاعته)، ألزمهم بذلك قهرًا عنهم وخوفهم بدخول النار أن لم يفعلوها، (فساقهم إليه) بذلك أي: الإقبال عليه بطاعته، وفي نسخة إليها أي: إلى طاعته (بسلاسل الإيجاب) أي: الإيجاب الشبيه بالسلاسل اللاتي توضع في عنق الأسير يجره بها قهرًا من أسره إلى الموضع الذي يريده، وكذلك الإيجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التي يحصل لهم بها ما يسرهم في المستقبل، وإن كانت شاقة عليهم في الحال، فهو يفعل بهم كما يفعل الولي بالصبي ألا تراه كيف يؤدبه ويضربه

على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزمه أمورًا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه في المستقبل الذي هو جاهل بها الآن فإذا كبر وعرف وعقل عرف ذلك عيانًا، (عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل)، كما يفعل بأسرى الكفار حين يراد منهم الدخول في الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل في رقابهم، وهذا معنى حديث رسول الله ﷺ في أسارى بدر ولفظه: "عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل"، والعجب والتعجب استعظام أمر خفي سببه وهو مستحيل في حقه تعالى، ففيه المذهبان السلف يقولون: إن لله عجبًا ولا نعلم حقيقته، وهو منزه عن معناه المشهود" والخلف يقولون بالتأويل أي: معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه؛ لأنه بديع الشأن وهو أن الجنة شأنها أن يسارع إليها لنفاثتها، وهؤلاء يرغبون عنها ويمتنعون منها حتى يقادون إليها بالسلاسل كما يقاد إلى الأمر المكروه، وقيل المراد بالتعجب لازمة وهو الإحسان المتعجب منه، فإنك إذا قلت: ما أعلم زيدًا، أيلزمك أنك تريد الإحسان إليه وإكرامه فالمعنى أحسن ربك إلى هؤلاء القوم حيث دعاهم إلى الجنة، وساقهم إليها كرمًا وهذا في حق العامة، أما الخاصة فلا يحتاجون إلى الإيجاب والتخويف والتحذير؛ لأن الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب في قلوبهم الإيمان، وحبب إليهم الطاعات، وبغض إليهم العصيان، فلم يحتاجوا إلى شيء من ذلك لتمام حريتهم من الأغيار التي تملك القلوب فهم ملازمون لطاعته طوعًا، بل لو أكرهوا على تركها لم يستطيعوا الصبر عنها، وفائدة تكليفهم حينئذ إظهار محبتهم كما يأمر الملك وزراءه الملازمين لحضرته زيادة في القرب والتشريف.

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

«أوجبَ عليك وجودَ طاعته، وما أوجبَ عليك إلا دخولَ جنته»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أوجب عليك وجود خدمته) في الظاهر، (وما أوجب) في الحقيقة، ونفس الأمر (إلا دخول جنته)، لأنه تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، وإنما أوجب الأعمال عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم وهو دخول الجنة ليحصل له شرف بذلك، وهذا تصريح بما علم مما قبله؛ لأن حاصله أنه تعالى إنما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم إليها

فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، وسوقهم إليها بذلك إنما هو لأمر يرجع إليهم وهو دخول الجنة بدليل الحديث وهو عجب ربك..إلخ. فيئول المعنى إلى أن سوقهم إلى طاعته وهو إيجابها عليهم سوق إلى الجنة فلم يوجب عليهم إلا دخولها.

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة

«مِن استغربَ أن يُنقذَه الله من شهوته، وأن يُخرجَه من وجودِ غفلته، فقد استعجزَ القدرةَ الإلهية، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من استغرب أن ينقذه الله من شهواته) التي استرقته (وأن يخرجه من وجود غفلته) التي استولت عليه أي: من استحكمت فيه الشهوة والغفلة واستغرب أن يخرجه الله من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية أي: منسوبة إلى الله وفي بعض النسخ قدرة الله أي: نسبها إلى العجز (﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً**﴾) أي: مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شيء وإخراجه من ذلك جملة الأشياء فينبغي له أن يقصد باب مولاه بالذلة والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تؤثر عن الصالحين الذين تقدمت لهم في بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله بلطفه وأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم كفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبي عقال بن علوان وغيرهم رضي الله عنهم).

الحكمة المائتان

«رُبَّمَا وردتِ الظُّلَمُ عليك لِيُعَرِّفَكَ قدرَ ما منّ به عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما وردت الظلم) أي: الشهوات والمعاصي والغفلات (عليك ليعرفك) حال ورودها(قدر ما من الله به عليك) أي: ما كان قد من الله به عليك سابقًا من الأنوار والإقبال على مولاك فتحمده عليها، وإذا رجت إلى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر، فقد صارت النقمة نعمة وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك من الإعجاب بطاعتك فيوردها عليك لتعرف قدرك ولا تتعدى طورك فلا تتكبر ولا ترى نفسك على أبناء جنسك،

وهذه نعمة أيضًا، وقد ترد عليك عقوبة وامتحانًا، وعلامة ذلك أنك كلما خرجت من معصية وقعت في أخرى، وهكذا ولا توفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك.

الحكمة الواحدة بعد المائتين

«مَنْ لم يعرفْ قدرَ النعمِ بوجدانها عَرَفَهَا بوجودِ فُقْدَانِهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها)، هذا تعليل لما قبله كأنه قال: إنما كان ورود الظلم معرفًا بقدر النعم؛ لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض فإنما يعرف قدر نعمة البصر مثلًا من ابتلي بالعمى، وقد قيل: إنما يعرف قدر الماء من ابتلي بالعطش بالبادية لا من كان على شاطئ الأنهار والأودية.

الحكمة الثانية بعد المائتين

«لا تُدْهِشْكَ وارداتُ النعمِ عنِ القيامِ بحقوقِ شُكرِك، فإنَّ ذلك مما يَحُطُّ من وجودِ قدرِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تدهشك واردات النعم) أي: النعم الواردة أي: المترادفة عليك (عن القيام بحقوق شكرك) أي: شكر المولى عليها بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر، (فإن ذلكم مما يحط من وجود قدرك) أي: أن الله تعالى قد رفع قدرك وجعل القليل من منك كثيرًا. قال تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام:160]، فلا تبخس نفسك حقها، وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم، وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها لاستقلالها في نظرك، فالحامل على ترك الشكر على النعمة أحد الأمرين وكل منهما مذموم، ومن شكر اللسان ذكر الله ومنه الباقيات الصالحات التي تذكر عقب الصلوات.

يقول السياجي يغفر الله له:

الأمران هما: بخس النفس عن أن تشكر، أو بخس النعمة عن أن تشكر، وكلاهما مذموم. أ.هـ

الحكمة الثالثة بعد المائتين

«تَمَكُّنُ حلاوةِ الهوى من القلبِ هو الدَّاءُ العُضَالُ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(تمكن حلاوة الهوى)، الهوى ميل النفس، والمراد بالهوى الشهوات أي: تمكن حب الشهوات للدنيا (من القلب هو الداء العضال) أي: الذل فلا تنفع فيه الحيل والأسباب والأدوية كالإيمان والمعرفة واليقين.

فإن الداء إذا تمكن من القلب لم يبق للدماء محل، فلذا عضل أمره، وتعذر برؤه، ولا يفيد فيه الوارد الإلهي.

الحكمة الرابعة بعد المائتين

«لا يُخْرِجُ الشهوةَ من القلب إلا خوفٌ مُزْعِجٌ أو شوقٌ مُقْلِقٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج)، يرد على القلب من شهود صفات الجلال ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة وتذكره نزول الموت به ودخوله للقبر وحيدًا وسؤال الملكين مع أهوال الحشر والمعاد الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ويجعل الولدان شيبًا، إلى غير ذلك، (أو شوق مقلق)، يرد على القلوب من شهوة صفات الجمال منشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد لأهل الطاعات، وتذكره ما أعد لأوليائه من النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إلى غير ذلك، والمواظبة على حضور مجالس الذكر والذكر علاج كبير ونفع كثير في حصول ذلك إذ لا يزال يعمل في القلب شيئًا فشيئًا إلى أن يسكنه الخوف أو الشوق، أما إذا لم يكن الأول مزعجًا والثاني مقلقًا فلا يفيدان تركًا ولا توجهًا.

الحكمة الخامسة بعد المائتين

«القلب العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقْبِلُ عليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(القلب العمل المشترك)، وهو الذي فيه محبة غير الله والسكون إليه والاعتماد عليه. ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة في حقه تعالى، أولها على طريقة الخلف بقوله، (العمل المشترك لا يقبله) أي: لا يحب أن يثيب عليه لعدم الإخلاص فيه، فعدم محبته بمعنى عدم الرضا

عن صاحبه وعدم إثابته فمن صحح عمله بالإخلاص وأحواله بالصدق، كان محبوبًا لله أي: مثابًا مرضيًا عنه، وإلا فلا.

أما السلف فيثبتون لله محبة، لكن لا نعلم حقيقتها.

الحكمة السادسة بعد المائتين

«أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصولِ، وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدخولِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول) أي: الأنوار الواردة على اللقب من خزائن الغيوب، وهي معارف وأسرار إلهية تنقسم إلى قسمين؛ أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه وربه ودنياه وآخرته، فتارة يكون مع نفسه وتارة مع ربه وتارة يحب آخرته وتارة يحب دنياه، والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسودائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل، فلذلك لا يحب سواه، ولا يعبد إلا إياه.

قال بعض العارفين: "إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبًا للآخرة والدنيا، وكان مرة مع ربه ومرة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه".

الحكمة السابعة بعد المائتين

«رُبَّما وردتْ عليك الأنوارُ فوجدتَ القلبَ مَحْشُوًّا بصور الآثار، فارتحلتْ من حيثُ جاءتْ، فَرِّغْ قلبَكَ من الأغيارِ تملأْهُ بالمعارفِ والأسرارِ، لا تَسْتَبْطِئِ النَّوالَ، ولكنِ استبطئْ من نفسك وجودَ الإقبالِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ربما وردت عليك الأنوار) أي: العلو مز المعارف الإلهية، (فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار) أي: متعلقًا بصور المكونات من أموال وأولاد وغيرها، (فارتحلت من حيث نزلت) أي: من المكان الذي نزلت فيه وهو القلب لأنها مطهرة مقدسة فلا تحل في القلب المدنس بالأغيار، (فرغ قلبك من الأغيار) أي: التعلق بغير مولاك وامح عنه صور الآثار بألا تتوجه بسرك إلى غير ذلك، فلا يكن لك أنس إلا به ولا اعتماد إلا عليه، (تملأه من المعارف والأسرار)، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[العنكبوت:69] ، وتقدم في كلامه: (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته)، وإذا كان كذلك (فلا تستنبط منه النوال) أي: إعطاء

المعارف والأسرار، (ولكن استنبط من نفسك وجود الإقبال) عليه بمحو صور الأغيار من مرآة قلبك بالمجاهدة والرياضة.

الحكمة الثامنة بعد المائتين

«حقوقٌ في الأوقاتِ يُمْكِنُ قضاؤُها، وحقوقُ الأوقاتِ لا يمكنُ قضاؤُها، إذْ ما من وقتٍ يَرِدُ إلا ولله عليك فيه حقٌّ جديدٌ وأمرٌ أكيدٌ، فكيف تقضي فيه حقَّ غيره وأنتَ لم تقضِ حقَّ الله فيه؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(حقوق) كائنة (في الأوقات) أي: الأزمنة، وتلك الحقوق هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما، (يمكن قضاؤها) أي: أن فاته شيء من ذلك فيوقته المعين له، أمكنه قضاؤه في وقت آخر، (وحقوق الأوقات) أي: ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال، وأوقاته أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، وسمي ما ذكر وقتًا؛ لأنه يرد في وقت مخصوص تسمية للشيء باسم زمنه وحقوقها الواجبة عليك فيها من المعاملات الباطنية التي تقتضيها تلك الأحوال. فحقه في النعمة الحمد والشكر، وحقه في البلية الصب والرضا، وحقه في الطاعة شهود المنة، وحقه في المعصية الاستغفار والتوبة، ولذا يقولون الفقيه ابن وقته أي: يتأدب معه ويعطيه حقه كما يتأدب الولد مع أبيه، وتلك الحقوق (لا يمكن قضاؤها) إذا فاتت، (إذ ما من وقت) أي: حال (يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد)، هو بمعنى ما قبله أي: فلا يسعك إلا أن توفي حقه، فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحق ما فاتك، ولذا قال: (كيف تقضي فيه حق غيره) مما فاتك (وأنت لم تقض حق الله فيه)، وهو الحق المتعلق بذلك الوقت، ولو قال وأنت لم تقض حق ذلك الوقت لكان أوضح وحينئذ فيجب عليك أن تكون مراقبًا لقلبك حتى تقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنك قضاؤها إن فاتت ولا تشغل أوقاتك بشهوات نفسك ورعونات بشريتك حتى تضيع حقوق الله الواجبة عليك التي ليس لها خلف يقوم مقامها، وإذا فاتت لا يمكنك قضاؤها.

الحكمة التاسعة بعد المائتين

«ما فاتَ من عُمْرِكَ لا عِوَضَ له، وما حصلَ لك منه لا قيمةَ له»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما فات من عمرك فلا عوض له) أي: لا عودة ولا رجوع له، فإذا خليته من العمل الصالح الذي هو وظيفة ذلك الوقت فاتك من السعادة بقدره، ولا يمكنك تداركه، (وما حصل لك منه لا قيمة له) أي: لا يمكن أن يقوم بشيء لعظم قدره؛ لأنك تتوصل به إذا اشتغلت لحق الله فيه إلى ملك كبير في الآخرة وشرف عظيم كثير لا يفنى، ولذا عظمت مراعاة السلف الصالح ﷺ لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير، وفي الحديث: "ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة وندامة"، لأن العبد يوم القيامة تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربع وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيمًا ولذة جزاء لما كان أودعه في تلك الخزانة من الأعمال الصالحة والتي لم يعمل فيها شيئًا يراها فارغة فيتحسر ويندم، حيث لا ينفعه الندم ثم يلقى عليه الرضا والسكون.

الحكمة العاشرة بعد المائتين

«ما أحببتَ شيئًا إلا كنتَ له عبدًا، وهو لا يُحِبُّ أن تكونَ لغيره عبدًا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما أحببت شيئًا) من أمور الدنيا (إلا كنت له عبدًا)، لأن محبتك للشيء تقتضي انقيادك له وشدة علاقتك به وألا تبغي به بدلًا كما قيل حبك للشيء يعمي ويصم، وهذا معنى استعباده لك، فإن أحببت غير الله فقد استعبدك ذلك الغير، كائنًا ما كان، (وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا) أي: لا يرضى بذلك. وفي الحديث: "تعس عبد الدنيا وعبد الدرهم والزوجة والخميصة وانتكس"، وقال الجنيد: "إنك لن تكون في الحقيقة له عبدًا وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية، وقال: "المكاتب عبد ما بقي عليه درهم".

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين

«لا تنفعُه طاعتُك، ولا تضرُّه معصيتُك، وإنَّمَا أمرَك بهذا ونَهَاكَ عن هذا لما يعودُ إليك، لا يزيدُ في عِزِّه إقبالُ من أقبلَ عليه، ولا يُنْقِصُ من قدره إدبارُ من أدبرَ عنه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تنفعه طاعتك)، لأنه غني عن العالمين وأعمالهم، (ولا تضره معصيتك)، لتنزهه تعالى عن أن يصل إليه مكروه من خلقه، (وإنما أمرك بهذه) أي: الطاعة، (ونهاك عن هذه) أي: المعصية، (لما يعود عليك) من المنافع والمصالح في الدارين، وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الإيجاب عليه، (لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه)، لأن عزه صفة من صفاته الجامعة كالإلوهية والكبرياء والعظمة. وصفاته تعالى في غاية الكمال والتمام، وهي منزهة عن الزيادة والنقصان.

الحكمة الثانية عشرة بعد المائتين

«وصولُك إليه وصولُك إلى العلمِ به، وإلا فجَلَّ ربُّنَا أن يتَّصلَ به شيءٌ، أو يتَّصلَ هو بشيءٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(وصولك إلى الله) الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة، (هو وصولك إلى العلم به) أي: إلى مشاهدته بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان، ويعبر عن ذلك العلم بالمشاهدة والعلم اليقين، وبالتجلي والفيض الرحماني والتعرف العياني والذوق الوجداني، وأهل الشهود متفاوتون فمنهم من يحصل له تجلي الأفعال وهو أول التجليات عندهم فيفضي فعله وفعل غيره في فعل الله، فلا يرى فاعلًا إلا وهو يخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار، وأول مراتب الوصول، ومنهم من يحصل تجلي الصفات فيقف في مقام الهيبة والأنس بما يشاهده قلبه من الجلال والجمال، وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملًا على باطنية أنوار اليقين والمشاهدة فيغيب في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهو أيضًا رتبة في الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين، ويكون عن ذلك في الدنيا لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهو من أعلى رتب الوصول. قال في عوارف المعارف: "فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه في أوان المنزل فأين الوصول، هيهات منزل طريق الوصول، لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنيوي"، (وإلا) ترد بالوصول ما ذكر وهو العلم الحقيقي بالله تعالى بطريق الذوق والوجدان بأن أردنا به الوصول المتعارف وهو وصول الذوات والأجسام، فلا يصح، (فجل) أي: لأنه تعالى (ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء)، لا

حسًا وهو ظاهر، ولا معنى، إذ كيف يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، وشرط الاتصال المداناة في الوصف، ولا نسبة بين كامل على الإطلاق وناقص على الإطلاق.

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائتين

«قربُك منه أن تكونَ مُشاهِدًا لقربه، وإلا فمن أين أنتَ ووجودُ قُرْبِهِ؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قربك منه)، الذي تشير إليه أهل هذه الطريقة هو (أن تكون مشاهدًا لقربه منك)، قُربًا معنويًا فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة في التأدب بآداب الحضرة، (وإلا) نقل ذلك بل أردنا القرب الذي هو من صفات الأجسام، (فمن أين أنت ووجود قربه) قربًا حسيًا، فهذا لا يصح.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائتين

«الحقائقُ تَرِدُ في حال التَّجَلِّي مجملةً، وبعد الوعيِّ يكونُ البيانُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الحقائق) أي: العلوم اللدنية التي يقذفها الله تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحريرهم من رق الأغيار وتعرضهم بسرهم إلى نفحات الحق، (ترد في حال التجلي) أي: تجلي الله على قلوبهم، (مجملة)، لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلي على قلوبهم، (وبعد الوعي) بزوال ذلك التجلي، (يكون البيان) أي: تتصرف فيه أذهانهم بالاعتبار والتأمل فيتبين لهم معناها ويظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية حتى أنه ربما يجري على لسان بعضهم كلام كثير لا يلقي له بالًا فإذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحًا مثال ذلك ما وقع من الحلاج من قوله: ما في الجبة إلا الله، فإن هذا قاله لعظم التجلي عليه، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحًا؛ لأن معناه ألا قائم بالأشياء إلا هو سبحانه، وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة، وكذا قول بعضهم: أنا اللوح، أنا القلم، فإن ذلك لعظم التجلي عليه وغيبه عن حسه يرى أن نفسه عين تلك الأشياء، فإذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحًا أي: أن المتجلي عليّ وهو الله سار سره في اللوح والقلم وغيرهما وأشار بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة حيث قالوا: حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا

حقيقة عاطلة، ثم استدل على ذلك، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: أقرأناه لك على لسان جبريل ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع لقراءته ثم اقرأه بعد ذلك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بيان معانيه لك، فقد جعل بيان المعنى بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي.

يقول السياجي يغفر الله له:

التنبيه الوارد هنا بالقرآن مقصود إلا من وجه أن القرآن علمه النبي ﷺ قرآنًا مجملًا بمعانيه في قلبه إثر الوحي ثم يأتي بيان أحكامه وكشف أسراره من الله بعد ذلك.

والتعبير بكلمة بعد قراءته المقارنة للتجلي الإلهي أي المقترنة بالتجلي الإلهي.

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائتين

«متى وردت الواردات الإلهية إليك هُدمت العوائدُ عليك: ﴿إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى وردت الواردات)، وهي التجليات (الإلهية)، ويعبر عنها بالأحوال أيضًا، وقوله (إليك) متعلق بوردت أي: وردت على قلبك من قبل الحق فأحدثت فيه أحوالًا سيئة، (هدمت)أي: أزالت (العوائد) أي: الأمور التي كنت معتادًا لها وهي رعونات نفسك؛ لأن لها سلطنة عظيمة، فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك وأثبتت عوضًا منه أحوالًا عليه وأوصافا مرضية، "أن" أي: لأن، "الملوك" أي: جنودهم "إذا دخلوا قرية أفسدوها" أي: أزالوا ما تلبس بأهلها من النعيم وكذلك الواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك إذا حلت قلبًا قهرت ما فيه وأزالته وهذا جواب عما يقال بأن العوائد مما جبلت عليه الطبائع، فكيف تزيلها الواردات. وحاصل الجواب أن الوارد له القهر كجند الملك.

الحكمة السادسة عشرة بعد المائتين

«الوارد يأتي من حضرة قهَّارٍ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الوارد ليأتي من حضرة قهار) أي: أن له القهر والغلبة لوروده من حضرة اسمه القهار، والقهار هو الغالب الذي لا يغلب، (لأجل ذلك لا يصادمه شيء) من رعونات البشرية (إلا

دفعه) أي: أزاله، ومعناه في الأصل أصاب دماغه بالضرب ويلزم منه إتلافه وإذهابه وهو حق ورد على باطل، والباطل لا ثبات له مع الحق، قال تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[الأنبياء:18].

الحكمة السابعة عشرة بعد المائتين

«كيف يحتجبُ الحق بشيءٍ، والذي يحتجبُ به هو فيه ظاهرٌ وموجود حاضر؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(كيف يحتجب الحق) أي: الله (بشيء) من الموجودات العلوية والسفلية، (والذي) أي: والحال أن الذي (يحتجب الله تعالى (به هو) أي: الله (فيه ظاهرًا) أي: ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر، (وموجود حاضر)، مدرك لهم، فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجابًا له حتى يستدل عليه به، هل ذلك إلا من عمى البصائر وعدم رؤيته في كل شيء؟

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائتين

«لا تيأسْ من قَبول عملٍ لا تجدُ فيه وجود الحضور، فرُبَّما قَبِلَ من العمل ما لم تُدركْ ثمرته عاجلاً، لا تُزَكِّيَنَّ واردًا لا تعلمُ ثمرته، فليس المرادُ من السحابة الأمطارَ، وإنما المرادُ منها وجودُ الإثمار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور) بقلبك مع الله حال فعله بأن تكون ملاحظًا أنك حاضر بين يديه فير غائب عنه كأنك تراه كما في الحديث، فإن ذلك دليل على قبوله ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول ولذا قال: (فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته)أي: ثمرة قبوله أي: علامته (عاجلًا) أي: حال فعله ومن علامة قبوله أيضًا وجدان حلاوته استلذاذ قلبه به حال فعله كما مر وقوله، (لا تزكين واردًا) أي: تفرح به وتمدحه في سرك، (لا تعلم ثمرته) فإذا ورد عليك واردٌ إلهي أي: تجلي إلهي ملك قلبك ويعبر عنه بالحال لكن لم يتأثر قلبك به بحيث تحب الإقبال على المولى وتنهض لطاعته وتقوم بحقوق الربوبية فلا تفرح بذلك الوارد؛ لأن ثمرته إنما هي تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر، فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به فإن في ذلك نوعًا من الاغترار، (فليس المراد من السحابة الإمطار وإنما المراد منها وجود الإثمار) أي: أنها مرادة لوجود الأثمار الذي اقتضاه وجود أمطارها لا لمجرد وجود

أمطارها وكذلك الوارد مراد لثمرته لا لوجود حظ نفسك فيه، فإن كثيرًا ممن يحصل عندهم تلك الأحوال القلبية يغترون بها وربما تركوا الأعمال الظاهرة مع وجود عقلهم.

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائتين

«لا تطلبنَّ بقاءَ الواردات بعد أن بُسِطَتْ أنوارها، وأُودِعَتْ أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء، وليس يُغنيك عنه شيء، تَطَلُّعُكَ إلى بقاء غيره دليلٌ على عدمِ وِجْدَانِكَ له، واسْتِيحَاشُكَ بفُقْدَانِ ما سِواه دليلٌ على عدمِ وَصْلَتِكَ به»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا تطلبن بقاء الواردات) أي: التجليات والأحوال القلبية (بعد أن بسطت أنوارها) عليك وأنوارها هي تكيف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية، (وأودعت) فيك (أسرارها)، وهي ما لاح في قلبك من عظمة الربوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه حال وجودها، ولا تحزن على فقده إذا فقدته، (فلك في الله غنى عن كل شيء)، وليس يغنيك عنه شيء كما قيل:

لكل شيء إذا فارقته عوض وليس لله أن فارقت من عوض

فالله تعالى إنما أدخلك في الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك، لأنها جاءت حاملة هدية التعريف من الله إليك، فإذا وصلت إليك ما كان فيها فلا تطلب بقاءها إذ لا يطلب بقاء الرسول بعد أن يبلغ رسالته ولا أمين بعد أن يؤدي أمانته فإن طلبت بقاءها كنت عبد الحامل لا عبد المحمول، ثم قام دليلًا على ذلك بقوله: (تطلعك إلى بقاء غيره)، من الواردات المذكورة وغيرها كالأنوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة، (دليل على عدم وجدانك له)، إذ لو وجدته في قلبك وانجمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره (استيحاشك) فقدان ما سواه كالواردات المذكورة (دليل على عدم صلتك به) أي: وصولك إليه إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب ولم تستوحش عن فقده شيء سواه فالسالك إذا وردت على قلبه واردات إلهية وبسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بأنه من الواصلين، فإن كان يتطلع ويتشوف إلى شيء من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف.

قال الجنيد قدس سره: إنك لن تكون على الحقيقة عبدًا، وشيء مما سواه لك مسترق، وأنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية.

الحكمة العشرون بعد المائتين

«النعيمُ وإنْ تنوعتْ مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذابُ وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسببُ العذاب وجودُ الحجاب، وإتمامُ النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(النعيم) أي: نعيم الدنيا والآخرة أي: التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور والولدان والقصور، (وإن تنوعت مظاهره) أي: مواضع ظهوره وهي الأمور المذكورة التي يتنعم بها ظاهرًا، (فإنما هو) أي: النعيم بمعنى التنعم والتلذذ (بشهوده) تعالى (واقترابه) أي: إنما يكون نعيمًا حقيقيًا إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء مشاهدًا له وحاضرًا معه، فإن لم تكن بتلك الحالة فليس ذلك بنعيم حقيقة، بل هو عذاب، (والعذاب) أي: التألّم (وإن تنوعت مظاهره) من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها (إنما هو) أي: العذاب بمعنى التألم (بوجود حجابه) تعالى أي: إنما يكون تألمًا حقيقة إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء محجوبًا عنه وكان غائبًا عنك فإن كنت مشاهدًا له فليس ما أنت فيه عذابًا حقيقة بل هو نعيم (فسبب العذاب) أي: التألم، (وجود الحجاب وإتمام النعيم) أي: النعيم التام أي: التلذذ والتنعم (بالنظر إلى وجهه الكريم) أي: مشاهدته بعين البصيرة في الدنيا وبالبصر في الآخرة وحاصله أن النعيم محصور في شهود الرب والتألم في الحجاب عنه وأما ما يتنعم به ظاهرًا أو يعذب به ظاهرًا فليس بنعيم ولا عذاب بالنظر إلى ذاته.

الحكمة الواحدة والعشرون بعد المائتين

«ما تَجِدُهُ القلوبُ من الهمومِ والأحزانِ فلأجلِ ما منعَتْهُ من وُجُودِ العِيَانِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(ما تجده القلوب من الهموم والأحزان) الدنيوية، (فلأجل ما منعت من وجود العيان) أي: معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة، والألم يحصل عندها هم ولا حزن على فوات شيء من الدنيا فوجد أنهما من نتائج رويته النفس واعتباره وبقاء حظها، فلو غاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده لكان دائم الفرح والسرور كما قال تعالى: ﴿ **لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[التوبة:40] ، فمن استنار قلبه بنور المعرفة لا يكون عنده غم أبدًا، لكن في وجود الهموم

والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذا لم يقدر على دفعها عنه فوائد جلية؛ لأنها توجب خمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا والهم ما يتعلق بما يكون في المستقبل والحزن لما يتعلق بما يكون في الماضي، ويصح أن يكون هذا شاملًا للأمور الأخروية أيضًا، فأهل النار لا يحصل للواحد منهم هم ولا حزن إلا إذا شاهد مولاه فإن شاهده لم يحصل عنده ذلك بل يكون العذاب في حقه عذوبة.

يقول السياجي يغفر الله له:

هذا القول قول فرضي أي: على توهم أن أهل النار يشاهدون ربهم؛ لأن الشريعة بنيت على ذكر أهل النار أنهم ﴿**عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾[المطففين:15].

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائتين

«من تمامِ النعمةِ عليك أن يرزقَك ما يكفيك، ويمنعَكَ ما يُطْغِيكَ، ليقلَّ ما تفرحُ به يَقِلُّ ما تحزن عليه، و إنْ أردتَ ألا تُعْزَلَ فلا تتولَّ ولايةً لا تدومُ لك، إنْ رَغَّبَتْكَ البداياتُ، زَهَّدَتْكَ النهاياتُ، إن دعاك إليها ظاهرٌ نهاك عنها باطنٌ، إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدنًا لوجود الأكدار، تزهيدًا لك فيها، عَلِمَ أنك لا تقبل النُّصح لمجرد القول، فذوقك من ذوقها ما سهَّل عليك فراقَهَا»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك) من غير زيادة ولا نقصان، (ويمنعك ما يطغيك) أي: يوقعك في الطغيان وهو كثرة المال قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[العلق:6،7]، وفي الحديث: "ما قل وكفى خير مما كثر وألهى"، أما أن نقص عن الكفاية فقد يكون معه اشتغال عن طاعة الرب فليس ذلك من تمام النعمة، ولما كان ذلك هو المناسب لحال المريد الصادق، لم يقل ويمنعك ما يطغيك أو يقلل رزقك عن كفايتك (ليقل ما تفرح به) من المال وغيره، (فيقل ما تحزن عليه)، فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضي بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه؛ لأنه دفع عنها مفسدة وجود الحزن يتركه ولم ينظر إلى حصول مصلحة الفرح بوجود الذي يزول عن قريب، ودرء المفاسد مقدم عند العقلاء على جلب المصالح، فالمفروح به هو المحزون عليه، إن قليلاً فقليل، وإن كثيرًا فكثير، (وإن أردت ألا تعزل، فلا تتول ولاية لا تدوم لك)، هذه من إفراد

ما قبلها؛ لأن الولاية مآلها إلى الحزن لسبب وقوع العزل عنها بموت أو غيره ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا تقع في العزل عنها فيحصل عندك غاية الهم والحزن، (إن رغبتك) في الولاية (البدايات) أي: بداياتها من كونها رائقة الحسن مليحة الظاهر، وإن كل من تلبس بها حسن حاله ومنظره بين الناس وتيسر معاشه (زهدتك) فيها (النهايات)، فإن نهايتها مفارقتها بعزل أو موت فيحصل لك مزيد الضرر دنيا وأخرى؛ لأن الولايات قل من يسلم فيها بدينه، وذلك مما يحمل العاقل على الزهد فيها والهرب منها، (إن دعاك إليها ظاهر) أي: ظاهر حالها من تيسر الملابس والمآكل عند التلبس بها، (نهاك عنها باطن) أي: باطن حالها من كونها شاغلة عن الله ومن حصول الضرر لكل من تلبس بها وهذا في المعنى يرجع لما قبله فالظاهر يرجع للبدايات والباطن للنهايات، (إنما جعلها) أي: الدنيا (محلًا للأغيار)، كالأمراض والمحن والبلايا، وقوله: (ومعدنًا للأكدار)، بمعنى ما قبله، (ليزهدك فيها)، لأن الموجب لرغبتك فيها إنما هو ما تتوهم من حول أغراضك ومطلوباتك فيها من غير تكدير ولا تنغيص، وهو لا يكون أبدًا حتى لو فرض ذلك لكان اللائق لك الزهد فيها والرغبة عنها، لأنها مآل أمرها إلى الفناء والزوال ولشغلها إياك غالبًا عن الله تعالى، لا يقال الزهد فيها يحصل بنصح الواعظ وتذكيره لأنا نقول: (علم) الله (أنك لا تقبل النصح المجرد)، لا يقبله إلا من استحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية، أما من كان كذلك فلا بد من قصد هدايته من زيادة على النصح والوعظ، (فذوقك من ذواقها) أي: مما شأنه أن يذاق فيها وهو تلك الأمراض والبلايا والمحن، (ما يسهل عليك فراقها)، فإن العبد إذا نزل به شيء من ذلك يتمنى الموت ومفارقة الدنيا، فهو نعمة من الله عليه وإن لم يعرف ذلك لغلبة طبعه عليه وقد تقدم مثل هذا عند قوله، من لم يقبل على الله بملاحظات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين

«العلمُ النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعُه، وينكشفُ به عن القلب قناعُه، خيرُ علمٍ ما كانت الخشيةُ معه، العلمُ إن قارنته الخشيةُ فلك، وإلا فعليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله..

(العلم النافع)، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفيته التعبد له والتأدب

بين يديه، فهذا هو العلم (الذي ينبسط في الصدر شعاعه)، فيتسع وينشرح للإسلام، (وينكشف به القلب عن قناعة)أي: غطاؤه وغشاوته فتزول عنه الشكوك والأوهام.

قال مالك بن أنس ﷺ: "ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذفه الله في القلوب، وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وإرادته"، وقال المهدوي قدس سره: "العلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد في الدنيا وما يقرب من الجنة ويبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء دون علم اللسان والمعقول والمنقول"، وجمع ذلك الجنيد قدس سره في قوله: "العلم أن تعرف ربك ولا تعد قدرك" أي: هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه ثم ذكر ﷺ عنه عبارة أخرى في بيان العلم النافع وتعريفه ملازمه فقال: (خير العلم ما كانت الخشية معه)، والخشية الخوف مع الإجلال، وقيل: هي الإجلال مع التعظيم، وقيل: الخوف مع العمل أي: خير العلوم ما تلزمه خشية لله تعالى وتصاحبه وهو العلم المتقدم؛ لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:28]، فكل علم لا خشية معه لا خير فيه، ولا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة، ويلزم من مصاحبة الخشية له الوقوف على حدود الله وملازمة طاعته والوثوق به والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها، والتقليل منها ومجانية أبواب أربابها، والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم والتواضع ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى بخلاف العلم الذي لا تصاحبه الخشية، فإنه يكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والإدخال والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله بقدر ذلك، ثم ذكر عبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال: (فالعلم إن قارنته الخشية فلك) منفعته في الدنيا والآخرة، (وإلا فعليك) مضرته فيما قال سفيان الثوري: "إنما يتعلم العلم ليتقى به الله وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يتقي الله فيه فإن اختل هذا القصد وفسدت نية طالبه بأن استشعر به التوصل إلى منال دنيوي من مال أو جاه، فقد بطل أجره وحبط وخسر خسرانًا مبينا. قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**...﴾ [الشورى:20].

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين

«متى آلمكَ عدمُ إقبال الناس عليك، أو توجهُهُم بالذم إليك فارجعْ إلى علمِ الله فيك، فإن كان لا يقنعُك علمُه فيك فمصيبتُكَ بعدم قناعتك بعلمه أشدُّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم، إنَّمَا أجرى الأذى عليهم كَيْ لا تكونَ ساكنًا إليهم، أراد أن يُزعجَك عن كُلِّ شيءٍ حتَّى لا يُشْغِلُكَ عنه شيءٌ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(متى آلمك) أي: وجد عندك الألم والغم، (عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله) أي: اقنع بعلمه فيك واكتف به عن علمه بحالك المقتضي لإقبالهم عليك وعدم ذمهم لك فإن كنت عبدًا لله مخلصًا في أعمالك مقبولًا فأي شيء يضرك مع كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا إليك بالذم والأذى، وإن كنت حقيرًا ممقوتًا لعدم إخلاصك فأي شيء ينفعك من إقبالهم عليك ورضاهم عنك وثناؤهم عليك، (فإن كان لا يقنعك علمه)، بأن أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على إخلاصك وأعمالك فيعظمك ويقبل عليك، (فمصيبتك) الحاصلة، (بوجود الأذى منهم)، بذلك والإعراض عنك؛ لأن عدم القناعة بعلمه تعالى يردك إليهم، فهو مصيبة ولا بد، وإذا هم بردك إليه فهو فائدة في الواقع ونعمة، وإن كان مصيبة في الظاهر فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا بإعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين في إقبال أو إعراض ولا مدح ولا ذم، فإنهم لا يغنون عنه من الله شيئًا، فمن أهمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، ويكتفي بعلمه بحاله ولا يجب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه.

قال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: "ما يقول الناس في"؟ قال: يقولون إنك مرائي، فقال: "الآن طاب العمل"، وقال بشر الحافي: "سكون القلب إلى قبول المدح له أشد عليه من المعاصي".

(فإنما أجري على أيديهم) إليك أيها المريد (كي لا تكون ساكنًا إليهم) أي: معتمد عليهم في تحصيل نفع أو دفع ضر تاركًا لجناب مولاك وقوله: (أراد أن يزعجك عن كل شيء) بتوجه الخلق إليك بالأذى (حتى لا يشغلك عنه شيء)، هو بمعنى ما قبله، قال في لطائف المنن: "اعلم أن أولياء الله حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتكتمل فيهم

المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليه باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجد امتنانه". ثم قال: "وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ ظهورهم ستر الله في أحبابه أصفيائه"، وقال الشاذلي قدس سره: "آواني إنسان مرة فضقت ذرعًا بذلك فنمت فرأيت يقال لي "من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم".

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين

«إذا عَلِمْتَ أنَّ الشيطانَ لا يغفلُ عَنْكَ فلا تغفلْ أنتَ عَمَّن نَاصِيَتُكَ بيدِهِ، جعله لك عدوًّا لِيَحُوشَكَ به إليه، وحَرَّكَ عليك النفسَ لِيُديمَ إقبالَك عليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(إذا علمت) أيها المريد (أن الشيطان لا يغفل عنك) أي: عن إضلالك وإغوائك ومحاربتك لقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ..**﴾[الأعراف:17]، وقد ورد أن لكل أحد من الناس شيطانًا واضعًا خرطومه على قلبه، فإذا غفل عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر خنس أي: تأخر واستتر، (فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده)، وهو الله تعالى أي: الاعتصام والاحتماء به سبحانه، فإنه يكفيك همه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[الحجر:42]، وقوله:﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:99]، فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الإيمان بالله والعبودية له والتوكل عليه والالتجاء والافتقار إليه والاستعاذة به كيف لا ينصره على عدوه.

قال ذو النون المصري: "إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى فاستعن بالله عليه".

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال إبليس لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم: فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني"، (جعله) الله (لك عدوًا)، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ**...﴾ [فاطر:6]، (ليحوشك به إليه)، لأنك إذا عرفت أنه لا طاقة لك على مقابلته بنفسك لما أنت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت لا محالة على الاستعانة عليه بمولاك القوي المتين، ووجد منك الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه في دفعه عنك، فعداوة الشيطان هي

التي ردك الحق بها إليه وجمعك بها عليه، وهذا هو غاية المقصود وهذا في حق غير المحبوبين الذين صرفوا همتهم إلى جانب الحق أما هم فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم؛ لأن تعلقهم به كالطبيعي فيهم، فلا يلتفتون إلى إبليس، ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه (وحرك عليك النفس) بطلب متابعة الهوى والشهوة، (ليدوم إقبالك عليه)، لأنك لا تقدر أيضًا على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه والعكوف بالهم عليه لا سيما وهي أعدى أعدائك إذ بواسطتها يتوصلون إليك، ولأنها عدو من داخل البيت، وعداوة العدو الذي من داخل البيت ولذا سمى ﷺ جهادها بالجهاد الأكبر.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين

«مَنْ أثبتَ لنفسه تواضعًا فهو الْمُتَكَبِّرُ حقًّا، إذ ليس التَّوَاضُعُ إلا عن رِفْعَةٍ، فمتى أثبتَ لنفسِكَ تواضعًا فأنتَ الْمُتَكَبِّرُ، ليس المتواضعُ الذي إذا تواضعَ رأى أنه فوقَ ما صنعَ، ولكنَّ المتواضعَ الذي إذا تواضعَ رأى أنه دون ما صنع، التواضعُ الحقيقيُّ هو ما كان ناشِئًا عن شهودِ عظمته وتجلِّي صفتِهِ، لا يُخْرِجُكَ عن الوصفِ إلا شهودُ الوصفِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(من أثبت لنفسه تواضعًا) بأن خطر بباله أنه متواضع، (فهو المتكبر حقًّا)، (إذ ليس التواضع) أي: ليس إثباته ناشئًا (إلا عن) شهود (رفعة)، كان يستحقها وأنه تنازل عنها إلى ما دونها، (فمتى أثبت لنفسك رفعة)، في ضمن إثبات التواضع، (فأنت المتكبر حقًّا)، ولا ينتفي عنك التكبر إلا بوجود الصفة حقيقة بألا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة، ثم قال: (ليس المتواضع الذي إذا تواضع) أي: فعل أفعال المتواضعين بأن يجلس في أسفل المجالس مثلًا، ولكن المتواضع حقيقة هو الذي لا يثبت التواضع لنفسه؛ لأنه يشاهده من صفة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته مما يمنعه من ذلك، ومن كان متصفًا بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعًا؛ لأنه يرى نفسه فوق ما صنع لغلبة الشهود عليه، فإن أثبت لنفسه ورأى نفسه فوق ما صنع مما يقتضي وجود صفة التواضع له بزعمه، فهو متكبر حقيقة، ولذا قال الشبلي: "من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب"، وقال: "ذلي عطل اليهود"، ومن

علامة التحقق بهذا الخلق أنه لا يغضب إذا عوتب أو انتقص ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر ولا يحرص أن يكون له عندهم قدر ولا جاه ولا يرى لنفسه موضعًا في قلوب الناس، (التواضع الحقيقي هو ما) أي: انكسار وانهضام (كان ناشئًا من شهود عظمته وتجلي صفته)، يعني أن شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفاته على العبد هو الذي يوجب له وجود التواضع الحقيقي؛ لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذهبها ويبطل أمانيها، فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له فلا ينقطع من القلب شجرة الكبر وحب الرياسة إلا به، وخرج من التواضع الحقيقي المتقدم وهو الذي ينشأ من النظر لنقص النفس وعيوبها، فإنه ليس حقيقيًا لأنه قد يكون مشوبًا بشيء من الكبر والعجب، ولذا قال الجنيد قدس سره: "التواضع عند أهل التوحيد تكبر"، قال الغزالي: "ولعل المراد أن المتواضع يثبت لنفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت لنفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها، فهو غائب عن نفسه وحسه بما يشاهده من عظمة ربه".

قال في عوارف المعارف: "لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه فعند ذلك تذوب نفسه وعند ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب". ثم علل ما تقدم بقوله: (لا يخرجك عن الوصف) أي: عن أوصاف نفسك كالكبر والعجب، (إلا شهود الوصف) أي: شهود صفات ربك كعظمته، فالوصف المذكر أولًا هو وصف العبد والمذكور ثانيًا هو وصف الرب، وهذه قاعدة كلية شاملة لما تقدم ولغيره، فلا خروج للعبد عن صفات نفسه إلا بشهوده لصفات ربه، فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر، ومن شهد غناه لم يبق له غنى، ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة، فيبقى بربه لا بنفسه، فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خير عن نفسه.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين

«المؤمنُ يشغلُهُ الثناءُ على الله عن أنْ يكونَ لنفسه شاكرًا، وتشغلُهُ حقوقُ الله عن أن يكونَ لحظوظه ذاكرًا، ليس المحبُّ الذي يرجُو من محبوبه عِوَضًا ويطلبُ منه غرضًا؛ فإنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لكَ، ليس الْمُحِبُّ مَنْ تَبْذُلُ له »

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(المؤمن) الكامل (يشغله الثناء على الله) أي: وصفه بالأوصاف الجميلة، ونسبة الأوصاف

الحميدة إليه، (عن أن يكون لنفسه شاكرًا) أي: معظمًا لها بنسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، فإذا قال: أنا صليت أو صمت ونسب الأفعال الجميلة إليه، لم يكن مؤمنًا كاملًا؛ لأن ذلك فعل الله تعالى، والعبد مظهر لذلك فقط، ظهر فيه الفعل فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطي المنان، فالمؤمن الكامل لا ينسب الأفعال الحسنة والأحوال السيئة إلى نفسه، ولا يلتفت إليها، فيكون لها شاكرًا أي: معظمًا، بل يغيب عن ذلك بنسبتها إلى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى، (وتشغله حقوق الله) أي: الحرص على توفية حقوقه تعالى، (عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا) أي: ملتفتًا لها بأن يعبد الله تعالى لذاته لا يطمع في جنته أو هرب من ناره، فإنه، (ليس المحب) الحقيقي (الذي يرجو من محبوبه عوضًا) على عمل يعمله، فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار، (أو يطلب منه غرضًا)، من الأغراض الدنيوية والأخروية، (فإن المحب) أي: الحقيقي، (من يبذل لك) أي: يعطيك، (ليس المحب) الحقيقي (من يبذل له)، لأن المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب بمحبة القلب فلا يصير عند المحب التفاتٌ لغير محبوبه، فمن عبده تعالى لجنَّته فليس مُحِبًا له، بل للجنّة.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين

«لولا ميادينُ النفوسِ ما تَحَقَّقَ سيرُ السائرين، لا مسافةَ بَينكَ وبَينهُ حَتَّى تَطوِيَهَا رحلتُك، ولا قطعةٌ بَينَكَ وبَيَنهُ حَتَّى تَمحُوَهَا وصلَتُكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لولا ميادين النفوس) أي: شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين أي: المواضع مرتكض الخيل بجامع الجولان في كل أرجائها، فكما أن الخيول تجول في الميادين كذلك النفوس تجول في مشتهياتها، والمعنى لولا هذه الشهوات التي تخوض فيها النفوس وتتعشقها، (ما تحقق سير السائرين) أي: ما تصور سير ولا سلوك إلى حضرة ملك الملوك؛ لأنه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه، قال تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[ق:16] ، فالبعد الذي يوجب السير إلى المحبوب، وسلوك الطريق إليه قائم بك أيها العبد، وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج إلى سير ولا سلوك؛ لأن البعد الذي يحتاج إلى ذلك منفي عنه سبحانه وتعالى حسِّيًا كان أو معنويًّا، كما أشار إلى ذلك بقوله: (لا مسافة) حسِّية (بينك وبينه حتى تطويها رحلتك) أي:

ارتحالك لأن المسافة الحسِّيَةَ لا تكون إلاّ بين متماثلين يصل أحدهما إلا صاحبه، (ولا قُطعة) بضم القاف أي: انقطاعًا وعداوة (بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)، لأن الانقطاع والعداوة لا يكونان إلا بين متضادين متعاديين فيحتاج أحدهما إلى الوصلة والمودة وأين أنت من الله حتى تعاديه، والحاصل أنك عن انتفاء الشهوات منك لا تحتاج إلى سير؛ لأن السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثار دواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل إلى سعادة لقائه، ولولا معاناة هذه الأشياء، لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق أقرب إليك من نفسك، فالبعد الحسي وهي المسافة التي تطويها رحلتك والبعد المعنوي وهي القطعة التي تمحوها وصلتك محالان في حقه تعالى لنفي المثلية في الأول وعدم الضدية في الثاني، فنفسك هي الحجاب الأعظم عن الله وبمجاهدتها وقمعها وموتها تصل إلى الله، وقال أبو مدين: "من لم يمت نفسه لم ير الحق"، وقال الأستاذ أبو العباس: "لا يدخل على الله إلا من بابين، باب الفناء الأكبر وهو الموت الطيفي، وباب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة. وعن حاتم الأصم "من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر وهو مخالفة النفس، وموت أسود وهو احتمال الأذى، وموت أبيض وهو الجوع، وموت أخضر وهو طرح الرِّقاع بعضها على بعض"، ولا بد للمريد في هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه ويلزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد، فقد قالوا: "من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه".

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين

«جَعلَكَ في العَالم المتوسِّطِ بَينَ مُلكِهِ ومَلكُوتِهِ، ليُعَلِّمَك جَلالةَ قَدَرِكَ بَينَ مَخلُوقَاتِهِ، وأنَّكَ جَوهَرَةٌ تُطوَى عَلَيْهَا أَصدَافُ مُكوناتِهِ، وَسِعَكَ الكونُ من حيثُ جُثْمَانِيَّتِكَ، ولم يَسَعْكَ من حيثُ ثُبُوتِ رَوْحَانِيَّتِكَ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(جعلك) أيها الإنسان (في) زائدة (العلم المتوسط بين ملكه وملكوته) أي: جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت، وهو عالم الغيب، فالإنسان ليس من

عالم الملك محضًا ولا من عالم الملكوت محضًا، بل هو متوسط بينهما حِسًّا ومعنى.

أما حسًّا فلأن الله تعالى خلقه بين السماء والأرض وغيره من الحيوانات وغيرها مخلوق لأجل انتفاعه به، وأما معنى، فلأن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم، وجعله متضمنًا لأسرار جميع الموجودات، علويها وسفليها، لطيفها وكثيفها، فصار بذلك روحانيًا جسمانيًا سماويًّا أرضيًّا، ولذا يقال له: العالم الأصغر، ويقال إنه نسخة من العوالم، ففيه من صفات الملائكة؛ العقل والمعرفة والعبادة، ومن صفات الشياطين؛ الإغواء والتمرد والطغيان، ومن صفات الحيوان؛ أنه في حالة الغضب يكون أسدًا وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيرًا لا يبالي أن يلقي نفسه، وفي حالة الحرص على الدنيا والشره؛ يكون كلبًا، وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئبًا. ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غضًا طريًا مترعرعًا، وفي آخره يابسًا، أسود. ومن صفات السماء أنه محل للأسرار والأنوار ومجمع الملائكة. ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن، ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي، واللوح أنه خزانة العلوم، والقلم أنه ضابط لها والجنة إذا حسنت أخلاقه تنعم جليسه به والنار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه وإنما جعلك كذلك (ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته)، وأنها كلها مسخرة إليه ومخلوقة لأجل انتفاعك بها، فينبغي لك أن ترفع همتك عنها وتشتغل بمولاك.

قال أبو العباس المرسي: "الأكوان كلها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة"، فهذا يتعلق بالتوسط الحسي على ما مر وأشار إلى ما يتعلق بالتوسط المعنوي بقوله: (وأنك جوهرة تنطوي عليها أصداف مكوناته) أي: أصداف هي مكوناته أو مكنوناته الشبيهة بالأصداف، جمع صدفه، وهي ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث إن صفاته جميعها فيه على ما مر ولم يخلق على هذه الصفة إلا الإنسان، فلذا خلقه الله على صفاته وجعله خليفة في تنفيذ أمره ونهيه وجعل له وجهتين، وجهة إلى الحق ووجهة إلى الخلق، وأما الملائكة ومن في معناهم من الروحانيين، فليس لهم إلا الوجهة الأولى، وهذا في جملة كل إنسان، لك لا يظهر له إلا بعد الرياضة والمجاهدة، ويسمى حينئذ الإنسان الكامل، وهذه أسرار لا تدرك إلا بالذوق، ولا تفشى لغير أربابها.

ثم أشار إلى خاصية أخرى لذلك الإنسان بقوله: (وسعك الكون) أي: العالم السفلي،

وهو الأرض (من حيث جسمانيتك) بضم الجيم أي: جسمك؛ لأن جسمك بعض الكون ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه، (ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) أي: روحك؛ لأنها ليست من هذا العالم ولا مناسبة بينها وبينه، فلا تصلح أن تتعلق بشيء منه، بل لا تصلح أن تتعلق إلا بالمولى سبحانه، والحاصل أن الإنسان مجموع شيئين، جسم وروح، وبين الجسم والكون مناسبة ومجانسة، فهو متوقف على الكون، فإذا تعاطى منه ما يقوم به بقي في هذا العالم وإلا هلك حسبما جرت به العادة الإلهية، وليس بين الكون والروح مجانسة ولا مناسبة، فلا تصلح أن تكون متعلقة به، بل المكون، وهو المولى جلت قدرته، وحينئذ ينبغي السعي في تكميلها بالأذكار والرياضيات حتى تزول عنها الكدورات البشرية وتصلح لتعلقها بحضرة الرب الذي هو شأنها الأعظم، وأما الجسمي، فلا ينبغي الاهتمام بما يصلحه، فإن الله متكفل به ولا بد، ولذا قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته وتطلب الربح فيما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

الحكمة الثلاثون بعد المائتين

«الكائنُ في الكونِ ولم تُفْتَحْ له ميادينُ الغُيُوبِ مُسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ مَحْصُورٌ في هَيْكَلِ ذَاتِهِ، أنتَ مع الأكوانِ ما لم تشهدِ الْمُكَوِّنَ، فإذا شَهِدْتَهُ كانتِ الأكوانُ معك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الكائن في الكون) أي: الموجود في الدنيا، (ولم تفتح له ميادين الغيوب) أي: لم يفتح قلبه للعلوم والمعارف الشبيهة بالميادين، (مسجون بمحيطاته) أي: بشهواته ولذاته، فهو مرادف لما قبله، (أنت مع الأكوان) أي: واقف معها ومستند إليها، وهي مستبعدة لك، (ما لم تشهد المكون)، فيها (فإذا شهدته) فيها (كانت الأكوان معك) أي: كنت مستغنيا عنها ومالكها وهي محتاجة إليك وخادمة لك، فإذا طلبت منها شيئا حصل، وإذا قلت للشيء كن كان بإذن الله تعالى، ولذا كان بعض الأولياء يقول للسماء أمطري فتمطر، وللريح هبي فتهب، وسب ذلك غيبته عنها بشهود مكونها، ومعلوم أن حالة الشهود يغيب فيها الولي عن حسه وبشريته ولا يلزم من ذلك فناؤها.

الحكمة الواحدة والثلاثون بعد المائة

«لا يلزمُ من ثبوتِ الخُصُوصِيَّةِ عدمُ وصفِ البشريَّةِ، إنَّما مثلُ الخصوصِيَّةِ كإشراقِ شمسِ النَّهَارِ ظهرتْ في الأُفُقِ، وليستْ منه، تارةً تُشْرِقُ شموسُ أوصافِهِ على ليلِ وُجُودِكَ، وتارةً يقبضُ ذلك عنك فَيَرُدُّكَ إلى حُدُودِكَ، فالنَّهارُ ليس منك إليك ولكنَّه واردٌ عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يلزم من ثبوت الخصوصية) أي: ما يخصك الله به من القوة والقدرة على التصريف في المكونات والكشف عن أحوالها وغير ذلك، (عدم وصف البشرية)، كفقر وضعف وعجز وذلك وجهل؛ لأن الوصف البشري أمر ذاتي لازم للعبد، والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها، ثم ضرب لذلك مثالًا لأمر محسوس بقوله: (إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار) أي: كشمس النهار المشرقة (ظهرت في الأفق) أي: نواحي السماء (وليست منه) أي: ليست من ذاتياته، وكما أن شمس النهار إذا ظهرت على الآفاق المظلمة استنارت، وإذا غربت رجعت إلى حالها من الظلمة؛ لأن النور ليس ذاتيًا لها، بل هو عرض، والأمور العرضية لا تزيل الذاتيات، كما مر، كذا الأوصاف البشرية القائمة بذاتك، كالفقر والعجز والضعف شبهة بالليل، فإذا ظهر عليها شمس التجلي كأن يتجلى الله عليك بصفة الغنى والقدرة استنارت ذاتك أي: حصل لها نور بالغنى والقدرة، وإذا قبض عنها ذلك رجعت إلى حالها، وإلى هذا أشار بقوله: (تارة تشرق شموس أوصافه) تعالى، الشبيهة بالشموس (على ليل وجودك) أي: على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل فتظهر خصوصيتك فتكون قادرًا بالله، قويًا بالله، عالما بالله، وهكذا فإذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوة غطت عجزك، أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك، وهكذا، (وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك)، من العجز والضعف والجهل، وغير ذلك، فلا تظهر خصوصيتك، ولذا كان عليه الصلاة والسلام تارة يظهر عليه وصف القوة والقدرة فيطعم ألفًا من صاع، وتارة يظهر عليه وصف العجز، فيشد الحجر على بطنه من الجوع، وكذا ورثته من الأولياء، (فالنهار)، وهو تلك الخصوصيات التي ظهرت عليك، (ليس منك إليك) أي: ليس من أوصافك الذاتية، (ولكنه وارد عليك) من حضرة الحق سبحانه، فإن شاء أبقاه وأن شاء أزاله، ولذا نرى بعض الأولياء في بعض الأحيان عندهم قوة بطش، وفي بعضها يكونون عاجزين، ومع

هذا شموس أنوار قلوبهم وهي المعارف والأسرار لا تغيب ولا تغرب كما مر، وإنما الذي يغيب هو الخصوصيات التي تظهر على ظواهرهم وهي الشموس المرادة هنا، فلا تعارض.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين

«دلَّ بوجودِ آثارِهِ على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثُبُوتِ أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ محالٌ أن يقومَ الوصفُ بنفسه، فأرباب الجذبِ يُكْشَفُ لهم عن كمالِ ذاته، ثُمَّ يَرُدُّهُم إلى شهود صفاته، ثم يردهم إلى التَّعَلُّقِ بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا؛ فنهايةُ السالكين بدايةُ المجذوبين، لكن لا بمعنًى واحدٍ، فرُبَّمَا التقيَا في الطريق، هذا في تَرَقِّيهِ، وهذا في تَدَلِّيهِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(دل بوجود آثاره) أي: مكوناته ومصنوعاته المتقنة المحكمة (على وجود أسمائه)، إذ لا يصدر ذلك إلا من قادر مريد عالم، (وبوجود أسمائه على ثوابت أوصافه)، من القدرة والإرادة والعلم، (أو بثبوت أوصافه على وجود ذاته)، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه)، وهذا حال السالكين، فإن أول ما يظهر لهم الآثار وهي الأفعال فيستدلون بها على الأسماء وبالأسماء على الصفات وبالصفات على وجود الذات، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله بعده، وأما المجذوبون فبالعكس، كما أشار إلى ذلك بقوله: (فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته) أي: عن ذاته الكاملة فيدركون عيانًا إدراك ذوق، (ثم يردهم إلى شهود صفاته)، بأن يشاهدوا ارتباطها بالذات، (ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه)، بأن يشاهدوا تعلقها بالآثار، (ثم يردهم إلى شهود آثاره) أي: صدورها عن الأسماء، فأول ما ظهر لهم حقيقة الذات المقدسة، ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء، ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، وهم الذين يقولون: ما رأينا شيئًا إلا رأينا الله قبله، (والسالكون على عكس هذا) كما مر، ف(نهاية السالكين) وهي شهود الذات المقدسة والكشف عن كمالها (بداية المجذوبين وبداية السالكين)، وهي التعلق بالآثار وشهود استنادها إلى الله (نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد) أي: ليس متحدين من كل وجه، فإن نهاية السالكين وأن كان فيها جذب لكنه مصحوب بالتمكن وعلم أحوال الطريق ومعرفة عقبات النفوس، فإنهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد عناء وتعب ومشقة، بخلاف بداية المجذوبين فإنها ليست معها تمكن، فلذا يحصل لهم الغيبة وتصدر منهم أفعال لا

يدرون ما هي ويتركون الفرائض ويفعلون أفعالًا منكرة في الشرع ولا يعاقبون على ذلك لتغطية عقولهم التي عليها مدار التكليف بالأنوار، وبداية السالكين ليس معها شهود لكمال الذات والأسماء والصفات بخلاف نهاية المجذوبين، فإنهم لم يحصل لهم حالة الصحو إلا بعد مشاهدة ذلك فالسالكون عاملون في ترقيهم على طريق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم في تدليهم طريق البقاء والصحو، فإذا كان كذلك، (فربما التقيا في الطريق هذا) أي: السالك (في ترقيه) من الخلق إلى الحق، فربما اجتمعا في تجلى الأسماء أو الصفات بأن يكون كل منهما مشاهدًا لأسمائه تعالى مثلاً لكن المجذوب إذا انتقل من ذلك ينتقل إلى الآثار والسالك إلى الصفات، والسالك أفضل من المجذوب للانتفاع به بخلاف المجذوب، فإذا أراد الله تكميل حاله أصحاه، وكل من علم السالك والمجذوب وهبي ذوقي، وإن كان مبدأ علم الأول استدلاليًّا كما يؤخذ من قوله: (دلك بوجوه آثاره)، فالمجذوب ما دام في جذبه لا يصلح للمشيخة لعدم مروره على المقامات ومعرفته بغوائل النفوس ولاشتغاله بحاله عن حال غيره، كما أن السالك إذا لم يصل إلى درجة المشاهدة والتجلي لا يصلح للمشيخة لنقص، وإنما يصلح لها من جمع بينهما سواء تقدم سلوكه على جذبه أو بالعكس، وقد يمر المجذوب على المقامات بسرعة ويعرف غوائل النفوس كذلك فيصلح للمشيخة مع جذبه، لكن هذا في بعض المجاذيب.

يقول السياجي يغفر الله له:

ذكر الشارح مثالًا لمن اجتمع فيه أمر السلوك والجذب وسماه ولكن منعًا للخلاف ودرءًا للتنصيص على شخص بعينه آثرت حذف الاسم مع ترك الصفة على إطلاقها، وذلك لعموم النفع، وليتقبل الله من الجميع، وليغفر الله لجميع أموات المسلمين، ويدخلهم في رحمته.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

«لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنوارِ القلوبِ والأسرارِ إلا في غيبِ الملكوت، كما لا تظهرُ أنوارُ السماء إلا في شهادة الملك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار) أي: السرائر أي: الأنوار المشرقة عليها، وهي العلوم والمعارف الدينية، وما هو مودع فيها من أنوار الحق، (إلا في غيب الملكوت) أي: الملكوت

الغائب عنا وهو عالم الآخرة، فمن آمن بالغيب وسعى في تهذيب نفسه حتى حصلت عنده تلك الأنوار شاهد الحظ الأوفر هناك، وإن كان مهانًا في الدنيا غير معتنى به فيها، (كما لا تظهر أنوار السماء)، وهي أنوار الكواكب (إلا في شهادة الملك) أي: الملك المشاهد، وهو عالم الدنيا لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

«وجدانُ ثمراتِ الطاعةِ عاجلاً، وبشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً، كيفَ تطلبُ العِوَضَ على عملٍ وهو مُتَصَدِّقٌ به عليك؟ أمْ كيفَ تطلبُ الجزاءَ على صدقٍ هو مُهْدِيهُ إليك؟»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(وجدان ثمرات الطاعات)، وهي الأنوار التي تحصل في قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها في حال فعلها (عاجلاً) أي: في الدنيا، (بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً) أي: بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة وأنها مقبولة عند الله، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: "من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول"، ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء، وأنه ممدوح، دفع ذلك بقوله: (كيف تطلب العوض) أي: الجزاء (على عمل متصدق به عليك) أي: أن هذا غير لائق منك؛ لأن الإنسان لا يطلب الجزاء من الغير إلا إذا فعل معه فعلًا يعود نفعه على ذلك الغير، وذلك مفقود هنا؛ لأن نفع تلك الأعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه، لأنه غني عنك وعن أعمالك، وكما أن الجزاء يكون على العمل يكون أيضًا على الصدق أي: الإخلاص فيه، وهو غير لائق أيضًا، ولذا قال: (أم كيف تطلب الجزاء على صدق) أي: إخلاص في العمل، (هو مُهدِيه إليك)، وعبر بالتصدق والإهداء تنبيهًا على ما ذُكر وهو أن ذلك العمل والإخلاص فيه لم يكن إلا لمنفعتك، فطلب العوض والجزاء إذا على ذلك في غاية القبح، ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبي تقبيحًا لذلك الوصف، واستعمل لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة والهدية في الصدقة الذي هو من الأعمال الباطنة، وعليه مدار قبول الأعمال الظاهرة إشعارًا بتباينهما في الشرف كتباين الصدقة والهدية، فإن الأولى يقصد بها الفقراء والثانية الأغنياء، فتدل على شرف المهدى إليه.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

«قومٌ تَسْبِقُ أنوارُهم أذكارَهم، وقومٌ تَسْبِقُ أذكارُهم أنوارَهم، وقوم لا أذكار ولا أنوار، ذَاكِرٌ ذَكَرَ ليستنيرَ قلبُه فكان ذاكرًا، وذَاكِرٌ استنارَ قلبُه فكانَ ذاكرًا، والذي استوت أذكاره وأنواره، فبذكره يهتدى، وبنوره يقتدى، ماكانَ ظاهرُ ذِكْرٍ إلا عن باطنِ شهودٍ أو فِكْرٍ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم)، وهم المجذوبون المرادون فلما واجهتهما الأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمد بل بسهولة وخفة (وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم)، وهم المريدون والسالكون، وذلك شأنهم المجاهدة والمكابدة، فيأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمد ليحصل بها الأنوار.

فالأولون وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:105]، والآخرون وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[العنكبوت:69] ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله: (ذاكر ذكر ليستنير قلبه)، وهو السالك، (وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا)، وهو المجذوب، فالذكر له كالنفس الطبيعي، بل أسهل بخلاف الأول وتقدم أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن الأول عرف طريقا توصل بها إلى الله وناله فيها غاية التعب والمشقة، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وهو كذلك بالنسبة لأغلب المجاذيب، وإلا فبعضهم له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعًا إلى الله عاجلا كما مر فلم تفته الطريق وإنما فاته متاعبها وطول أمدها ثم أشار إلى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعا بقوله: (ما كان ظاهر ذكر) أي: ذكر ظاهر (إلا عن باطن شهود وفكر) أي: إلا عن شهود للمولى باطنا وفكر فيه، فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهرًا إلا بعد مشاهدة الرب باطنًا، وفكر فيه وإن كان المجذوب يدرك ذلك والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته فلم يفقد النور السابق بالكلية وإلا لما أمكن منه الذكر وقد تقدم قوله: (لولا الوارد ما كان ورد)، فلولا التجلي لم يمكن التحلي والمراد بالذكر هنا سائر الأعمال الظاهرية وعبر به عنها لأنه روحها ولاشتمالها عليه. فكل من الشهود والفكر يرجع للمجذوب والسالك، ويحتمل رجوع الأول للأول والثاني للثاني.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائتين

«أُشْهِدُكَ من قبل أن يسْتَشْهِدَكَ، فنطقتْ بأُلُوهِيَّتِهِ الظواهرُ، وتحققتْ بأُحَدِيَّتِهِ القلوبُ والسَّرَائِرُ، أَكْرَمَكَ بكراماتٍ ثلاث: جعلك ذاكرًا له، ولولا فضلُه لم تكنْ أهلاً لجَريانِ ذِكْرِهِ عليك، وجعلك مذكورًا به إذ حقَّقَ نسبتَه لديك، وجعلك مذكورًا عنده فتمَّمَ نعمتَه عليك»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أشهدك) أي: تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك، (من قبل أن يستشهدك) أي: يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، فإن الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود واعتراف بوحدانيته، (فنطقت بإلوهيته) أي: بما يدل على ألوهيته (الظواهرُ) أي: الجوارح الظاهرة، وهذا راجع للثاني وهو الاستشهاد وقوله: (وتحققت بأحدية القلوب والسرائر)، راجع للأول وهو الإشهاد ويحتمل أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للأرواح في عالم الغيب عن ألوهية وأحدية ذاته وإحاطة قيوميته، ثم لما أظهرها في عالم الشهادة بأن ركبها في الأجسام طلب منها على لسان الأنبياء الشهادة له بالألوهية فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت به تبعًا لشهودها لما شهدت فقوله: (أشهدك) أي: في عالم الأرواح وقوله: (من قبل أن يستشهدك) أي: يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها في الأجسام، (فنطقت بألوهيته الظواهر) أي: الجوارح الظاهرة نطقًا حقيقيًّا في اللسان وحاليًّا في غيره، وقوله: (فنطقت) مفرغ على محذوف أي: فلما طلب الشهادة منها على لسان الأنبياء وتحققت بأحديته أي: جزمت بكونه واحدا لا شريك له (القلوب) والسرائر)، جمع سريرة كما مر (أكرمك) أيها العبد الذي أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعباداتك ووحدته بقلبك وسرك، (أكرمك بكرامات ثلاث)، جمع لك بها كل المفاخر والمحامد الأولى أنه (جعلك ذاكرًا له)، بلسانك وعباداتك الظاهرية والباطنية، (ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك)، لأنك مجبول على النقص والكسل والفتور فحصول ذلك منه منة وفضل عليك، ومن أنت حتى تكون محلاً لذكره وموضعًا لطاعته والتعلق به؟! (و) الثانية أنه (جعلك مذكورًا به)، بأن يقال لك: هذا ولي الله وصفيه ومختاره وذاكره، (إذ حقق) أي: أثبت (نسبته) أي: خصوصيته (لديك)، وهي ما أظهره عليك من أنوار الذكر التي استنار بها ظاهرك وباطنك فتحقيق الخصوصية لديك سبب في ذكرك

به أي انتسابك له، ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها ويحفظها ويفرح بها ويجد في نفسه انبساطًا عند تذكرها، فكيف بهذه النسبة العظيمة التي صرت تذكر بها في الملأ الأعلى وعند المؤمنين إلى آخر الدهر، فإن من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكره لله تعالى يبقى الثناء عليه ولا ينقطع ذكره والدعاء له، ومن مات من غيرهم مات ذكره معه ويحتمل أن قوله إذا حقق في قوة التفريغ على ما قبله والمعنى جعلك مذكورًا به فحقق نسبة لديك أي: انتسابك له فيكون ذكرك به تحقيقًا لنسبتك له (و) الثالثة أنه (جعلك مذكورًا عنده) لحديث: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملائه" (فتمم نعمته عليك) ذكرك عنده، قال تعالى: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾[العنكبوت:45] ، قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين

«رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُه وقلّت أمدادُه، ورُبَّ عُمْرٍ قليلةٌ آمادُه كثيرةٌ أمدادُه، مَنْ بُورِكَ له في عمره أدركَ في يسيرٍ من الزمان من مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخلُ تحت دوائرِ العبارة، ولا تلحقُه الإشارةُ، الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(رب عمر اتسعت آماده) أي: غاياته وأزمنته، (وقلت أمداده)، بفتح الهمزة أي: فوائده وذلك كأعمار الغافلين عن الله المشتغلين بشهوات نفوسهم، فإنها وإن كانت طويلة في الحس فهي قصيرة في المعنى لقلة أمدادها، (ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)، وذلك كأعمار الذاكرين، فإنها وإن كانت قصيرة حسًّا فهي طويلة معنى لكثرة أمدادها، وذلك هو معنى البركة في العمر، ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده أي: أزمنته، وبحسبها بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه بأضعاف مضاعفة، (من بورك له) أي: من أراد الله أن ينزل البركة (في عمره) رزقه الإقبال على مولاه، ف(أدرك في يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة) أي: تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الإحاطة بما يحويه، (ولا تلحقه الإشارة) أي: لا تصل إليه والمعنى إذا أراد الله تعالى أن يبارك في عمر ولي من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، فيبادر إلى الأعمال

الصالحة في جميع ساعاته، فيدرك في يسير الزمان ما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة أي: ما لا تحيط به لكثرته وشرفه فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة أي: لا تصل إليه لرقته وغاية صفائه، فيرتفع له في شهر مثلاً ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر. "كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر"، وكان أبو العباس المرسي قدس سره يقول: "أوقاتنا كلها ليلة قدر"، قيل: وهذا معنى ما روي: "البر يزيد في العمر"، (الخذلان)، هو عدم التوفيق والمعونة (كل الخذلان)أي: الخذلان التام (أن تتفرغ من الشواغل) الدنيوية بأن يكون عندك ما يكفيك من الدنيا، (ثم لا تتوجه إليه)، بالاشتغال بما يقرب من حضرته العلية، (وتقل عواتقك)، التي تمنعك من الاشتغال بما يقرب من مولاك بأن يكون عندك ما يكفيك من القوت ولو مع الضيق، (ثم لا ترحل إليه) بالاشتغال بما يقرب منه فهو فهو بمعنى ما قبله، ومنتهاه أن من لم يكن عنده ما يكفيه من الدنيا، وكان يحتاج إلى التكسب فاشتغل به ولم يتوجه إلى الله ولم يرحل إليه فليس عنده كل الخذلان، بل بعض وهو كذلك؛ لأن التوجه إلى الله والرحلة إليه مطلوب من كافة الخلق ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:56] ، فالواجب على كل أحد أن يرمي بالعوائق والشواغل خلف ظهره ويقبل على مولاه، وقد قيل: "سيروا إلى الله عرجًا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة"، وقال تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً**﴾[التوبة:41].

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

«الفِكْرَةُ: سَيْرُ القلبِ في ميادينِ الأغيارِ، الفكرةُ سِرَاجُ القلبِ، فإذا ذهبتْ فلا إضاءةَ له، الفكرةُ فكرتان: فكرة تصديقٍ وإيمانٍ، وفكرة شُهُودٍ وعِيان، فالأُولَى لأربابِ الاعتبارِ، والثَّانِيَةُ لأربابِ الشُّهُودِ والاسْتِبْصَارِ»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(الفكرة: سير القلب في ميادين الأغيار) أي: في الأغيار وهي مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والأرض الشبيهة بالميادين وفي نسخة (ميادين الاعتبار) أي: جولان القلب في صفوف المخلوقات، وأنواع المكونات لاستخراج ما فيها من العلوم وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة إلى العلم بالله تعالى، وما له من صفات الكمال، ونعوت الجمال وغير ذلك، فإن من تفكر في وجود المخلوقات هداه ذلك التفكير إلى وجود موجدهم، وهذا تفكر

العامة وإذا تفكر في الحسنات، وما يترتب عليها من الثواب والقرب من المولى فعلها وازداد رغبة فيها أو في السيئات وما يترتب عليها من أنواع العذاب تركها ولم يقربها، وهذا تفكر العابدين ومن تفكر في فناء الدنيا وقلة وفاتها لطلابها ازداد زهدا فيها وهذا تفكر الزاهدين وإذا تفكر في الآلاء والنعم ازداد محبة في المنعم بها جل جلاله، وهذا تفكر العارفين وخرج التفكر في مصنوعات الله التفكر في ذاته فإنه منهي عنه قال ﷺ: "تفكروا في خلقه ولا تتفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره"، (الفكرة سراج القلب) أي: كالسراج الحسي أي: المصباح الذي يضيء فيه فيستنير به، وبالنور تتجلى حقائق الأمور فيظهر به الحق حقًا والباطل باطلاً فيعرف به عظمته تعالى وجلاله ويطلع على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل في التحرز عنها إلى غير ذلك، (فإذا ذهبت فلا إضاءة له)، فالقلب الخالي عن الفكر خال من النور كالبيت المظلم ولا يكون في القلب المظلم إلا الجهل والعمى والغرور (الفكرة) وهي السير في ميادين الأغيار (فكرتان، فكرة تصديق وإيمان) أي: فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذي هو الإيمان بأن يكون التفكر عنده ذلك وقصده بالفكرة الترقي وزيادة اليقين، ولذا تسمى فكرة الترقي وتكون للسالكين، (وفكرة شهود وعيان) أي: فكرة ناشئة عن ذلك وتسمى فكرة التدلي، وتكون للمجذوبين، (فالأولى لأرباب الاعتبار) أي: المستدلين بالآثار على المؤثر وهم السالكون في حال ترقيهم، فإن فكرتهم ناشئة عن التصديق والإيمان، (والثانية لأرباب الشهود والاستبصار) أي: المستدلين بالمؤثر على الآثار وهم المجذوبون في حال تدليهم، فإن فكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان، وهذا لمن أراد الله تكميل حاله منهم، كما مر، وإلا فبعضهم يدوم جذبه وعدم صحوه، بل هو الأغلب فيهم، وقد تقدم هذا عند ذكر المجذوب والسالك والنوعان المذكوران بالنسبة للمشتغلين بالله، أما غيرهم وهم العامة، ففكرتهم لتحصيل التصديق والإيمان.

"جامعة الحكم"

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

كتب رضي الله عنه لبعض إخوانه:

أمَّا بعدُ، فإنَّ البداياتِ مَجْلاةُ النّهَاياتِ، ومَنْ كانتْ بالله بدايَتُهُ كانتْ إليه نِهَايَتُهُ، والمُشْتَغِلُ به هو الذي أحببتَه وسارعتَ إليه، والمُشْتَغِلُ عنه هو الْمُؤْثَرُ عليه، ومَنْ أيقنَ أنَّ الله يطلبُهُ صدَّقَ الطلبَ إليه، ومن

عَلِمَ أنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيده انجمعَ بالتَّوَكُّلِ عليه، وإنَّه لابُدَّ لبناء هذا الوجود أنْ تَنْهَدِمَ دعائمُهُ، وأن تُسْلَبَ كرائمُه، فالعاقلُ من كانَ بما هو أبقى أفرحَ منه لما هو يَفْنَى، قد أشرقَ نورُه وظهرتْ تباشيرُه، فَصَدَفَ عن هذه الدارِ مُغْضِيًا، وأعرضَ عنها مُوَلِّيًا، فلم يَتَّخِذْهَا وطنًا، ولا جَعَلَهَا سكنًا، بل أنهضَ الهمَّة فيها إلى الله، وصارَ فيها مستعينًا به في القُدومِ عليه، فما زالتْ مَطِيَّةَ عزمِهِ لا يقرُّ قرارَها دائمًا تسيارُها إلى أنْ أناختْ بحضرةِ القُدْسِ وبِسَاطِ الأُنْسِ في محلِّ الْمُفَاتَحَةِ، والمواجهةِ، والمجالسة، والمحادثة، والمشاهدة، والمطالعةِ، فصارتِ الحضرةُ مَعْشَشَ قلوبِهِم، إليها يأوون، وفيها يَسكنون، فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذنِ والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوءِ الأدبِ والغفلةِ، ولا إلى الحظوظِ بالشهوةِ والمتعةِ بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[الإسراء:30] ليكون نظري إلى حولك وقوتك، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني، واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرا ينصرني وينصر بي ولا ينصر علي وينصرني على شهود نفسي، ويغنيني عن دائرة حسي.

قال الشرقاوي يرحمه الله:

حاصل هذا الكتاب أنه يتضمن حال السالك في أول ابتداء سفره إلى النهاية وحصوله في مستقره وذكر آداب السلوك والوصول (أما بعد فإن البدايات) أي: بدايات الأمور (مجلات النهايات) أي: يظهر فيها حال النهايات والمِجَلاّت، بفتح الميم والجيم وتشديد اللام، جمع مَجَلّة، كذلك أي محل التجلي والظهور كالمرآة والمجالي المظاهر التي يتجلى فيها الأمور، والمراد أن بداية المريد تعرف منها نهايته،فإذا كان عنده في بدايته قوة توجه واجتهاد في العبادات والرياضات كان دليلاً على أنه ينتهي إلى فتح عظيم، وأنه يصل إلى مقصوده في أقرب مدة، ومن كان عنده ضعف في ذلك كان فتحه ووصوله على حسب حاله (وأن من كانت بالله بدايته)، بأن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضاته مصحوبة بالاستعاذة بالله تعالى والاعتماد عليه (كانت إليه نهايته) أي: كانت نهايته إلى الوصول إلى الله تعالى بأن ينكشف له إنفراد الله بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله، وقد تقدم هذا المعنى في قوله من (علامات النجح في النهايات الرجوع إلى

الله في البدايات)، (والمشتغل به) أي: الذي ينبغي الاشتغال به (هو الذي أحببته) أيها المريد الصادق (وسارعت إليه) وهو الأعمال الصالحة التي تقربك من مولاك وتوصلك إلى معرفته أي: فلا تحتقر ذلك الشغل، بل كن قرير العين به فإنه لا ينبغي الاشتغال إلا به (والمشتغل عنه) أي: الذي ينبغي الاشتغال عنه وعدم التوجه إليه (هو المؤثر عليه) أي: هو حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة التي تركتها وآثرت عليها غيرها، وهو إقبالك على مولاك واشتغالك بخدمته، فينبغي لك أن تطيب نفسك عنه ولا تندم على مفارقته؛ لأنه لا ينبغي الاشتغال به، فهذا الكلام القصد منه تهييج السالك وإنهاض همته بمدح ما أقبل عليه وذم ما أعرض عنه (ومن أيقن أن الله يطلبه) للقيام بخدمته والإقبال على وظائف عبوديته (صدق الطلب) أي: صدق في الطلب(إليه) أي: توجه إليه بصدق واجتهد في الإقبال على ما يرضيه أتم الاجتهاد؛ لأن ثمرة ذلك الطلب عائدة عليه لا على المولى سبحانه، فلم لا يصدق في طلبه واجتهاده ويترك حظوظ نفسه ومراداته أن كان من أهل العقل والمعرفة، (ومن علم أن الأمور بيد الله)، ومنها ما يحاوله من القيام بخدمة المولى، (انجمع قلبه بالتوكل عليه) أي: توكل عليه في تيسير أمره وتسهيل ما يقربه إلى حضرته، فإن ذلك لا يكون إلا منه سبحانه؛ لأن الأمور كلها بيده، وليس للعبد مدخل فيها.

فالقسم الأول وهو قوله (صدق الطلب إليه)، قيام بمقتضى الشريعة والثاني وهو كون الأمور بيد الله وأنه ينبغي التوكل عليه قيام بحق الحقيقة، فقوله (عليه) تنازع فيه كل من الفعل والمصدر، (وإنه) بكسر الهمزة عطفًا على (أن البدايات) وفتحها عطفًا على (أن الأمور)، (لا بد لبناء هذا الوجود) أي: لمبنى وهو هذا الوجود (أن تنهدم دعائمه) أي: أركانه، فشبه الوجود بقصر له أركان وهي تخييل (وأن تسلب كرائمه) أي: نفائسه وما يعز منه والقصد بهذا تسليته عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته؛ لأنه إذا علم أن الدنيا لا تدوم لأحد بل لا بد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين، وكل ما هو آت قريب لم يغتبط بما يكون من مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه (فالعاقل من كان بما هو أبقى)، وهو الدار الآخرة، (أفرح منه) أي: أشد فرحا من نفسه (بما هو يفنى)، وهو الدنيا، فإذا كانت الدنيا فانية والآخرة هي الدائمة الباقية، فلا ينبغي الفرح بالأولى لفنائها، ومن فرح بالفاني فنى فرحه ولا عبرة بفرح يفنى

ويزول، ومن فرح بالباقي دام فرحه وذلك هو الفرح المعتبر وحاصله أن العاقل هو الزاهد، وأما الراغب في الدنيا فليس بعاقل، بل هو جاهل وفي قوله (أفرح) إشعار المطلوب كون الفرح بهذا أشد لا أن الفرح بالآخرة ينتفي بالكلية، لأنه أمر طبيعي ثم أشار إلى ثمرة التحقق في مقام الزهد بقوله (قد أشرق نوره) أي: أشرق نور زهد ذلك العاقل في قلبه (وظهرت تباشيره) على وجهه، فإن النور إذا أشرق في القلب ظهر على الجوارح، وكان ذلك مبشرًا له بالقبول (فصرف) أي: فبسبب ذلك النور الذي أشرق في قلبه وتبين له به ما هو حق صرف أي أعرض (عن هذه الدار مُغضيا) أي: غير ملتفت إليها بقلبه، وأتى بذلك لأن الإعراض قد يكون معه التفات وقوله (وأعرض عنها موليا) تفسير لما قبله (فلم يتخذها وطنًا) أي: لم يستوطنها بظاهره على جهة التمتع والتلذذ (ولا جعلها سكنا) أي: لم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها، ويحتمل أن يجعل الوطن والسكون بمعنى واحد، (بل أنهض الهمة فيها إلى الله) أي: أسرع وحرك الهمة إلى الوصول إليه (وسارع فيها) أي: في الدنيا (مستعينا به) أي: بالله لا بأعماله المدخولة (في القدوم عليه) أي: الإقبال عليه والوصول إلى حضرته.

قال بعضهم: "من توهم أن عملاً من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضل عن طريقه؛ لأن النبي ﷺ قال: "لن ينج أحدًا منكم عمله" فما لا ينجي من الخوف كيف يوصل إلى المأمول، ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذي يرجى له الوصول"، (فما زالت مطية عزمه) أي: عزمه الشبيه بالمطية (لا يقر قرارها) لعدم ما يعوقها، وهو التعلق بغير الله سبحانه من الدنيا وكل ما يعوق السالك عن الوصول من الكرامات والمكاشفات والأحوال والمقامات، فإن ذلك يوقف المطية عن السلوك والقرار في موضع الاستقرار، ومعنى كون قرارها لا يقر، أنها نزلت في موضع ترتحل عنه ولا تجعله وطنًا فلا يسكن قلبه إلى شيء من ذلك كما هو مقتضى الحال في مقام الزهد، وقوله (دائما تسايرها) أي: سيرها كالتفسير لما قبله، (إلى أن أناخت) أي: حصلت واستقرت (بحضرة القدس) أي: التنزيه، وهي حضرة الرب سبحانه، (وبساط الأنس) أي: البساط الذي كل من جلس عليه حصل له الأنس وهو تلك الحضرة فشبهها بحضرة ملك عظيم يستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه، ثم بين صفات تلك الحضرة بقوله (محل المفاتحة) أي: الفتح عن القلوب (والمواجهة) أي: الإقبال من الله سبحانه (والمجالسة)، بأن يصير

الله سبحانه حاضرا معه، (والمحادثه)، بأن يكلمه في سره بالمعارف والأسرار (والمشاهدة) بأن يشاهده بباطنه بقدر غيبته عن حسه (والمطالعة) أي: يتمكن من المشاهدة ويطلع على علوم الغيب، فإن الشخص إذا دخل إلى حضرة ملك عظيم من ملوك الدنيا يحصل له أولاً المفاتحة بأن يفاتح ذلك الملك بالسلام ويفاتحه بالرد ثم المواجهة بأن يقبل عليه بوجهه، فقد يكون حال السلام معرضا عنه ثم المجالسة بأن يجلسه بين يديه، ثم المحادثة أي: التكلم معه؛ لأن ذلك ثمرة المجالسة ثم المشاهدة، وذلك أن الملك قد يكون صاحب جلال فلا يلوم من الجلوس بين يديه والمحادثة معه مشاهدته، بل يطرق جليسه رأسه من هيبته، ثم المطالعة التي هي تمكن المشاهدة أو يراد بالمشاهدة مشاهدة الأحوال الظاهرة والمطالعة مشاهدة الأحوال الباطنة فإنه لا يعرف حال الملك باطنا إلا بعد شدة التأمل، فهذا حال من وصل إلى حضرة ملك من ملوك الدنيا وكذلك السالك إذا وصل إلى حضرة المولى سبحانه، فإنه يقابله بأنواع من الفتوحات والكرامات والتحف السنية والعلوم والمعارف الربانية التي لا يعرف تفاصيلها إلا من وصل هناك وذاق مذاق أهل القرب والتمكين جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه آمين، (فصارت الحضرة) أي: حضرة الرب (معشش قلوبهم) أي: الموضع الذي تسكن فيه قلوبهم كعش الطير (إليها يأوون) وقوله (وفيها يسكنون)، كالتفسير لما قبله أي: فصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم في ذهابهم وإيابهم وها هنا حصل لهم التخلق بمقام الفناء والمحو وهذا مقام الجمع هذا هو انتهاء سفرهم وصعودهم ثم بعد ذلك يتحققون بمقام البقاء وهو مقام الفرق ويؤمرون بمخاطبة الخلق وهو المراد بقوله (فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق) أي: الحقوق الواجبة عليهم عند مخالطة الخلق الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء إلى كل عوارض الحظوظ أي: حظوظ أنفسهم التي تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض بجامع سهولة الاستقرار على كل (فبالإذن والتمكين) أي: لا بشهواتهم ومرادهم وإلا فلو خيروا بين مقامهم في تلك الحضرة والخروج منها إلى مخالطة الخلق لم يختاروا إلا بقاءهم فيها.

يقول السياجي يغفر الله له:

ذكر الشارح واقعة لا يُعرفُ حالها إلا بوحي، وهذا محال بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– فأردت حذفها لسلامة الاعتقاد.

قال الشرقاوي شارحا يرحمه الله..

ثم قال ﷺ: فبالإذن والتمكين إذ لا يلزم من مجرد الإذن والتمكين أي التمكن في مقام البقاء بأن يحصل لهم القوة على مخالطة الخلق وتحمل أذاهم (والرسوخ في اليقين) أي: وبعد رسوخهم في اليقين بالله ومعرفتهم به معرفة ذوقية (فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة) أي: فلم يخالطوا الخلق إلا مع التأدب التام لأنهم يرون الله فيهم، ومع اليقظة وعدم الغفلة عن موجدهم فإذا آذاهم شخص تحملوه لله الذي أوجده ورأوا أن الذي سلطه عليهم هو مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بمقامهم وإذا أكرمهم شخص شكروه مع رؤيتهم أن الذي حرك قلبه للإكرام هو مولاهم، فهذه وشبهها هي الحقوق الواجبة عليهم عند النزول ومخالطة الحق (ولا إلى) أي: ولم ينزلوا إلى (الحظوظ) ويتعاطوها (بالشهوة والمتعة) بضم الميم أي على سبيل شهوة نفوسهم لها وتمتعهم بها (بل دخلوا في ذلك كله)، من الحقوق والحظوظ (بالله) أي: مستعينين به (ولله) أي: لا لحظ أنفسهم (ومن الله) أي: من عنده لا من عند أنفسهم (وإلى الله) أي: متوسلين إليه في نيل مرادهم ثم السفر الأول وهو السير إلى حضرة المولى يقال له سفر الترقي والثاني النزول منها إلى مخالطة الحق يقال له سفر التدلي، وإلى ذلك أشار بقوله ﷺ بقوله: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق)، المدخل والمخرج في الأصل بمعنى الإدخال والإخراج، وقد عبر بهما هنا عن السفرين المذكورين، فالمدخل هو سفر الترقي لأنه دخول على الله عز وجل في حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هو سفر التدلي؛ لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه وتحققه في هذين المقامين، أعني مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، فالمدخل الصادق أن يشاهد حول الله وقوته في سفر الترقي فتنتفي عنه بذلك نسبة الأعمال إلى نفسه، والمخرج الصدق أن يستسلم لربه وينقاد إليه في سفر التدلي فيرى بما نقله إليه ولا تتشوف نفسه إلى البقاء مع ما نقل عنه، ولذا قال: (ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذ أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذ أخرجتني)أي: ليحصل ذهابي عن رؤية نفسي في النسبة والوقوف مع الحظ نفى المدخل أشهاد حولك وقوتك، فتنتفي عني بذلك النسبة إلى نفسي وفي المخرج أستسلم إليك فينتفي عني بذلك مراعاة حظي، (واجعل لي من لدنك) أي: من عندك بلا واسطة ولا علة من نفسي (سلطانا) أي: حجة قاهرة (نصيرا) أي: مقويا ومعينا وهو مدد إلهي

يأتي من حضرة الحق سبحانه فلا يصادمه شيء إلا دفعه وذهب به(ينصرني) على نفسي (وينصر بي) أحبابي ومن تعلق بأذيالي من الإخوان والرفقاء، (ولا ينصر علي) نفسي ولا أحدا من أعدائي الباطنة والظاهرة. ثم فسر النصرة المطلوبة في حق نفسه بقوله (ينصرني على شهود نفسي) بألا أشاهد لها فعلا ولا حركة ولا سكونا بل أشاهد أن المحرك الساكن هو أنت (ويفنيني عن دائرة حسي) أي عما يدور به حسي ويدركه وهو الممكنات فلا أتعلق بها ولا أشاهد منها نفعا ولا ضرًا، بل أشاهد أن النافع الضار هو أنت وهؤلاء الذين نصرهم الله تعالى ونصر بهم ولم ينصر عليهم هم الضنائن الذين إذا ظهر الواحد منهم في عصر حصل النفع التام لأهله وأمدهم الله بسببه وهم لا يشعرون".

"أول تتمة الجامعة"

الحكمة الأربعون بعد المائتين

مما كتب به ﷺ إلى بعض الإخوان أيضًا:

«إن كانتْ عينُ القلب تنظرُ أن الله واحدٌ في منته فالشريعةُ تقتضي أن لابُدَّ من شكرِ خليقته، وإنَّ النَّاسَ في ذلك على أقسام ثلاثة: غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ في غفلته، قَوِيَتْ دائرةُ حِسِّهِ، وانطمستْ حضرةُ قُدْسِهِ، فنظرَ الإحسانَ من المخلوقين، ولم يَشْهَدْهُ من ربِّ العالمينَ، إما اعتقادًا فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ، وإما استنادًا فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ، وصاحبُ حقيقةٍ غابَ عن الخلقِ بشُهُودِ الْمَلِكِ الحقِّ، وفَنَيَ عن الأسباب بشهود مُسَبِّبِ الأسبابِ،فهذا عبدٌ مُواجَهٌ بالحقيقة، ظاهرٌ عليه سَنَاهَا، سالكٌ للطريقة، قد استولى على مَدَاهَا، غيرَ أنَّه غريقُ الأنوارِ مُطْمُوسُ الآثارِ قد غلبَ سكرُه على صَحْوِه، جَمْعُهُ على فَرْقِهِ،فناؤُه على بقائِه،غيبتُهُ على حُضُورِهِ، وأكملُ منه عبدٌ شَرِبَ فازداد صحوًا، وغابَ فازدادَ حضورًا، فلا جمعُه يَحْجِبُهُ عن فرقِهِ، ولا فرقُه يحجبه عن جمعِه، ولا فناؤه يَصُدُّهُ عن بقائِه، ولا بقاؤُه يصده عن فنائه، يُعطِي كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ، ويُوفِّي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وقال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفْكِ على لسان رسول الله: اشْكُرِي رسولَ الله، فقالت: والله لا أشكرُ إلا الله، دَلَّهَا أبو بكرٍ على الْمَقَامِ الأكملِ: مقامِ البقاءِ المقتضي لإثباتِ الآثارِ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:14] وقال صلوات

الله وسلامه عليه: «لا يشكر اللهَ منْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ» [1]، وكانتْ في ذلك الوقتِ مُصْطَلِمَةُ عن شاهدها غائبةٌ عن الآثار، فلم تشهدْ إلا الواحد القهَّار»

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(أن كانت عين القلب)، وهي البيرة المشابهة للعين الباصرة (تنظر إلى أن الله واحد في منته)أي: نعمته أي هو المعطي لها وحده (فالطبيعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته)، فإذا أوصل الحق إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية كالعلوم والمعارف الظاهرية أو دنيوية فعليك في ذلك مراعاة الحقيقة بأن ترى أن تلك النعمة من الله وحده وأن من أجراها على يديه مقهور مجبور على إيصالها إليك فتحمد الله سبحانه على ذلك ومراعاة الشريعة بأن تشكر من وصلت إليك على يده فتدعو له وتثني عليه امتثالاً لأمر الله وعملاً بما جاءت به الشريعة. ففي الحديث: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"، ولأن الله اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله له (وأن) أي: وأخبرك أن (الناس في ذلك) أي: في حال ورود النعمة عليهم على يد أحد (على ثلاثة أقسام غافل) عن الله (منهمك في غفلته) أي: متناه فيها (قويت دائرة حسه)، يعني أن ملحظه ومنظره المكونات فقط مع الغفلة عن الرب (وانطمست حضرة قدسه) أي: حضرة التنزيه والمراد بها بصيرته التي هي منبع تنزيه الله تعالى عن كل ما يليق به (فنظر الإحسان) صادرًا (من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقادا) بأن يعتقد أن المؤثر والمعطي هو العبد حقيقة (فشركه جلي) يخرجه من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر (وإما استنادًا) بأن يعتقد أن المعطي هو الله تعالى ولكنه أسند ذلك إلى المخلوقات على جهة كونها أسبابًا غير مؤثرة ولولاهم لم يحصل الإعطاء، فإذا قيل له من الذي أعطاك فعلاً، قال الله ولولا فلان الذي جاء من قبله لم يحصل إعطاء إذ لولا الأسباب ما كانت المسببات (فشركه خفي) لأنه أشرك مع الله غيره وهو المخلوق ولم يغب عن الله تعالى فهو مؤمن لكن يخشى عليه الكفر والعياذ بالله تعالى (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق) فلم يشعرهم ولم يلتفت إليهم (وفني عن الأسباب) وهم المخلوقات فلم يرهم فعلاً (بشهود مسبب الأسباب) وهو الله (فهذا عبد مواجه بالحقيقة) وهي حضرة الرب سبحانه لشهوده لها(ظاهر عليه سناها) أي: نورها وضياؤها (سالك للطريقة) أي:

---

(1) رواه الترمذي (339/4)، وأحمد في المسند (258/2)، وهو حديث صحيح.

طريقة القوم وسلوكه بها باعتبار الأصل وإلا فمواجهته بالحقيقة لا يكون إلا بعد سلوكه لها، ولذا قال: (قد استولى عليه مداها) أي: غايتها ونهايتها ثم هذا المستغرق في الحقيقة على الوجه المذكور وإن كان كاملاً لأهل الغفلة فهو ناقص بالنسبة لأكمل منه من أهل المعرفة ولذا قال: (غير أنه غريق الأنوار) أي: غريق في بحار التوحيد (مطموس الآثار) أي مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد أي: غائب عن رؤية ذلك والشعور به (وقد غلب سكره) وهو عدم إحساسه بالآثار (على صحوه) وهو وجود إحساسه بها (وجمعه) وهو رؤية الحق وحده (على فرقه) وهو رؤية الخلق مع الحق فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق (وفناؤه) وهو استهلاكه في وجود الحق (على بقائه) وهو شعوره بالخلق فهو في مقام الفناء الذي هو مقام الجمع لا مقام البقاء الذي هو مقام الفرق وقوله: (وغيبت على حضوره) كالتفسير لما قبله (وأكمل منه عبد) جمع بين الأمرين كالنبي ﷺ وكمل ورثته وسبب ذلك أنه (شرب) من المدد الإلهي ومن كئوس التوحيد (فازداد صحوا) بعد سكره (وغاب عن رؤية الأغيار) فازداد (حضورًا فلا جمعه) وهو رؤية الحق (يحجبه عن فرقه) وهو رؤية الخلق (ولا فرق يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصبره عن بقائه ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه يعطي كل ذي قسط قسطه) فيشكر الحق والخلق ولا يغيب عن الرب في حال مخالطة الخلق وقوله: (ويوفي كل ذي حق حقه) بمعنى ما قبله وهؤلاء هم خاصة الخلق الذين حازوا رتبة الأكملية وتمكنوا في المقامات وملكوا أحوالها ومنهم أبو بكر الصديق ﷺ ولذا قال ﷺ: (وقد قال أبو بكر لعائشة -رضي الله عنها- لما نزلت براءتها من الإفك) أي الكذب (على لسان رسول الله ﷺ) أي: في القرآن العظيم (يا عائشة، اشكري رسول الله ﷺ) لأن براءتك سببها رسول الله ﷺ ولم تحصل إلا ببركته فيستحق الشكر منك (فقالت: والله لا أشكر إلا لله) لأنها في ذلك الوقت غائبة عن إحساسها منغمة في الأنوار لم تر غير الله (دلها أبو بكر ﷺ على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار) أي: النظر للخلق ومن جملتهم رسول الله ﷺ ومقتضى النظر إليهم شكرهم ثم استدل على أنه ينبغي شكره بقوله: (وقد قال تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[لقمان:14] وقال ﷺ: "لا يشكر الله") بالنصب وفاعل الشكر هو العبد والرفع أي: لا يثيب الله (من لا يشكر الناس) ولا يرضى له ذلك فينبغي شكر الله لأنه الذي حرك قلب العبد وشكر العبد لأنه واسطة والضار هو الوقوف معه والغيبة عن الرب (وكانت

هي) أي عائشة في ذلك الوقت (مصطلمة عن مشاهدها) أي: مأخوذة عن إحساسها غائبة عن حكم بشريتها. والاصطلام حالة تعتري العبد من تجلي الله عليه بصفة القهر فتغيبه عن إحساسه (غائبة عن الآثار) وهم المخلوقات (فلم تشهد إلا الواحد القهار) وفي قوله (وكانت) في ذلك الوقت إشارة إلى أن ذلك ليس حالاً لازمًا لها في جميع أوقاتها، بل ترقت عنه إلى مقام الفرق وهو رؤية الخلق مع الحق.

"ثاني تتمة الجامعة"

الحكمة الواحدة والأربعون بعد المائتين

«قال رضي الله عنه **لما سُئل عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» هل ذلك خاص بالنبي ﷺ أم لغيره منه شرب ونصيب؟**

قال رضي الله عنه: قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، فالرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته، فليس قرة عين كقرته، وإنما قلنا: إن قرة عينه في صلاته بشهوده جلال مشهوده؛ لأنه أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة، إذ هو ﷺ لا تقر عينه بغير ربه، وكيف وهو يدل على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»، ومحال أن يراه ويشهد معه سواه، فإن قال قائل: قد تكون قرة العين بالصلاة؛ لأنها فضل من الله، وبارزة من عين منة الله، فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قرة العين بها، وقد قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فاعلم أن الآية قد أومأت أي: أشارت لمن تدبر سر الخطاب، إذ قال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وما قال: فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضيل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾».

قال الشرقاوي يرحمه الله:

(وقال رضي الله عنه لما سئل عن قوله ﷺ: "وجعلت قرت عيني في الصلاة") قرة العين كناية عن غاية الفرح والسرور واللذة، فكأنه يقول وجعلت غاية فرحي وسروري ولذتي في الصلاة لمشاهدة الرب فيها (هل ذاك خاص به أم بغيره) من أمته (منة شِرب) بكسر لشين (ونصيب) تفسير له (فأجاب أن) (قرة العين) أي: غاية الفرح والسرور (بالشهود) أي: شهود جلال الحق سبحانه

وجماله (على قدر المعرفة بالمشهود) وهو الحق سبحانه (فرسول الله ليس معلافة) أحد هناك (كمعرفته فليس قرة عين كقرته)، وحاصل الجواب أن قرة العين ليست خاصة به ﷺ بل كما تكون له تكون لغيره لكن قرة عينه أعظم من قرة عين غيره ومعلوم أن قرة العين لا تحصل إلا لمن ذهبت عنه الوساوس النفسانية والشيطانية، أما من كان مغمورا فيها فقليل أن تحصل له قرة عين أو حضور قلب بين يدي الحق سبحانه (وإنما قلنا أن قرة عينه) ﷺ في صلاته (بشهود جلال مشهوده) وهو الحق (لأنه أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة) ولم يقل بالصلاة (إذ هو ﷺ لا تقر عينه بغير ربه) ومن الغير الصلاة (وكيف) تقر عينه بغير ربه (وهو) أي والحال أنه (يدل على هذا المقام) وهي المرتبة الأولى من مراتب الإحسان (ويأمر من سواه بقوله ﷺ اعبد الله كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه) ومن السوي صلاته فيغيب عن نفسه وحسه وعن أفعاله ولا يراها صادرة منه بل يرى الفاعل لها هو الله تعالى (فإن قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة فإنها فضل من الله تعالى وبارزة من منة الله تعالى) أي: لا لعلة وجعلها بارزة من نفس المنة مبالغة وإلا فهي بارزة من الله بمنته لا لعلة (فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى: "قل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا"، ففي ذلك إشارة إلى أنه لا مانع أن يفرح الإنسان بالصلاة ويكون قرة عينه بها فالمانع من كون فرحه ﷺ بها (فاعلم) مرتب على ما تقدم وهو قوله فإن قال قائل وفي بعض النسخ حذف قوله فإن قال قائل فيحتاج إلى تقديرها، وترتب الجواب عليها كأنه قال: إن قيل ذلك فاعلم (أن الآية قد أومت) أي: أشارت إشارة خفية (لمن تدبر سر الخطاب) وهو المعنى الذي يخفى على كثير من الناس (إذ قال) الله تعالى (فبذلك فليفرحوا) أي: الأمة (وما قال فبذلك فافرح يامحمد قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل) وهو الله تعالى (كما قال تعالى في الآية الأخرى: "قل الله" معناه المطابقي قل الله أنزله أي: القرآن ومعناه الإرشادي المراد هنا قل الله أي افرح به لا بغيره "ثم ذرهم في خوضهم يلعبون"، وهو فرحهم بغير الله سبحانه ويؤخذ من ذلك أن قرة العين قد تكون بنفس الصلاة للعلة السابقة لكن ذلك لغيره ﷺ لا له، فإن قرة عينه إنما تكون بمشاهدة محبوبه وغيره يشاركه في ذلك على حسب مقامه كما مر.

"ثالث تتمة الجامعة"

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين

كتب ﷺ لبعض إخوانه:

«**الناس في ورود المنن عليهم على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾[الأنعام:44]، وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:58]، وفرح بالله، ما شغله من المتن ظاهر متعتها ولا باطن منتها، بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه، فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:91]، وقد أوحى الله تعالى إلى داود** عليه السلام: «**يا داود قل للصديقين، بي فليفرحوا، وبذكرى فليتنعموا»، والله يجعل فرحنا وإياك به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وألا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه**».

قال الشرقاوي يرحمه الله..

(الناس في) حال (ورود المنن) أي: النعم عليهم من الله تعالى (على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشيها) وهو الله (ولكن) فرحه (بوجود متعة فيها) أي: بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها (فهذا من الغافلين) شبهه بالبهائم التي تأكل وتشرب غافلة عن مولاها (يصدق عليه قوله تعالى: "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة"، يعني أنه ربما كان توارد النعم عليهم استدراجًا من الله تعالى كلما أعطى نعمة ازداد غفلة ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر (وفرح بالمنن) أي النعم (من حيث أنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها) وهو الله سبحانه وتعالى فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث أنه ملتفت إلى النعم وعنده فرح بها وإن كان ذلك من حيث بروزها عن الحق (يصدق عليه قوله تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"، وفرح بالله عز وجل ما شغله) عنه (من المنن ظاهر متعتها) أي: التمتع بها (ولا باطن منتها) أي: لم يلتفتوا إلى ظاهر النعم من أجل أن فيها لذتهم ولا إلى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية

الله تعالى بهم حيث من بها عليهم كما هو حال القسمين الأولين فإن القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم وغابوا عن المنعم بها والقسم الثاني التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله عز وجل وإن حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم (بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه) أي جمعية قلبه عليه (فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: "قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون". وقد أوحي إلى داود عليه السلام: "ياداود قل للصديقين) أي: كثير من الصدق في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم (بي فليفرحوا) أي: فليفرحوا بي لا بغيري حيث كنت ربًّا وكانوا لي عبيدًا خالصين من حكم بشريتهم، ولذا قيل: إن عتبة الغلام دخل يومًا على رابعة العدوية وعليه قميص جديد وقد تبختر في مشيه على خلاف عادته فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل هذا اليوم؟ فقال: يا رابعة، ومن أولى بهذا التيه مني وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدًا (وبذكري فليتنعموا) أي: لا يتنعموا إلا بذكري لا بلذات الدنيا وشهواتها، فإن المشتغل بذكر الله يحصل عنده من اللذة والأنس بالله ما لا يوازيه لذة من لذات الدنيا (والله يجعل فرحنا وإياكم) أيها الأحباب الناظرين في هذا الكتاب (به) تعالى (وبالرضا منه) أي: الإنعام بدوام المشاهدة (وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه) وهم الذين يفهمون عن الله مراده منهم وهو إقبالهم عليه واشتغالهم بخدمته ويفهمون عنه أنه حاضر معهم فيراقبون في حركاتهم وسكناتهم ويفهمون عنه أنه قائم بالأشياء وأنها عدم محض فلا يلتفتون إليها في جلب نفع ولا دفع ضرر ويفهمون عنه أنه معهم بذاته لا بعلمه كما يفهمه المحجوبون أهل الدليل والبرهان إلى غير ذلك مما هو مقرر عند أهل الشهود والعيان (وأن لا يجعلنا من الغافلين) الذين اشتغلوا بالأكوان عن المكون ولم يفهموا مراد الله منهم فلم يقبلوا على طاعته وإن أقبلوا عليها فبظاهرهم دون قلوبهم (وأن يسلك بنا مسلك المتقين) الذين يتقون ما سواه سبحانه فلا يلتفتون إلى غيره في جلب ولا دفع ولا يغيبون عنه طرفة عين وهذه أعلى مراتب التقوى، ودون ذلك اتقاء معاصي الجوارح وشهوات النفوس ودون ذلك اتقاء الشرك (عنه وكرمه) أي: لا بعلة تحمله على ذلك كأعمالنا المدخولة.

المناجاة:

- **إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟.**

- إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جاهلاً جهولاً في جهلي؟.
- إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء.
- إلهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.
- إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟.
- إلهي إن أظهرت المحاسن مني، فبفضلك ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوئ مني فبعد لك ولك الحجة علي.
- إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت عليك، وكيف أضام وأنت الناصر لي أم كيف أخيب وأنت الحفي بي.
- ها أنا أتوسل بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم إليك بمقالي وهو منك برز إليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.
- إلهي ما ألطفك مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي.
- إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك.
- إلهي ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك.
- إلهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إليَّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء.
- إلهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستني أوصافي أطعمتني مننك.
- إلهي من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟
- إلهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة، لم يتركا الذي حال حالاً

ولا لذي مقال مقالاً.

- إلهي كم من طاعة بنيتها، وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك.
- إلهي إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزمًا، فقد دامت محبة وعزمًا.
- إلهي كيف أعزم وأنت القاهر؟ أم كيف لا أعزم وأنت الآمر؟
- إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.
- إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أي:كون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟
- إلهي خسرت صفقة عبد لم يجعل من حبك نصيبًا.
- إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة من الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير.
- إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفي عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك لا بغيرك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.
- إلهي علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون.
- إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.
- إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري؛ وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

- إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي.
- إلهي بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكلُ فلا تكلني إلى نفسي أو إلى أحد غيرك، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغبُ فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.
- إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني، أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنيًّا عني.
- إلهي إن القضاء والقدر قد غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت الناصر لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي.
- أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك، وأنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، فما وجد من فقدك، وما فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك حولاً.
- إلهي كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، يا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.
- إلهي إن رجائي لاينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

- **إلهي قد دفعتني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.**
- **إلهي كيف أخيبُ وأنت أملي، أم كيف أُهان وعليك مُتّكلِي.**
- **إلهي كيف أستعزُّ وفي الذلة أركزتَنِي، أم كيف لا أستعزُّ وإليك نسبتني، أم كيف لا أفتقرُ وأنتَ في الفقر أقمتَنِي، أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذي بجودك أغنيتني.**
- **إلهي أنت الذي لا إله غيرك تعرفت لكل شيء فما جَهِلَكَ شيءٌ، وأنت الذي تعرَّفتَ إليَّ في كل شيء؛ فرأيتك ظاهرًا في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.**
- **إلهي يا من استوي برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا في عرشه، مَحَقْتَ الآثارَ بالآثار، ومَحَوْتَ الأغيارَ بمحيطات أفلاكِ الأنوار، يا من احتجبَ في سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عن أن تُدركَه الأبصارُ، يا من تجلَّى بكمال بهائه؛ فتحققتْ بعظمته الأسرار، كيف تخفى وأنتَ الظَّاهِرُ! أم كيف تغيبُ وأنتَ الرقيبُ الحاضرُ؟!**

شرح المناجاة

قال الشرقاوي يرحمه الله

وقال ﵁: وفي بعض النسخ ومن مناجاته (إلهي أنا الفقير) حال (غنائي فكيف لا أكون فقيرا في) حال (فقري) يعني أن صفتي الذاتية هي الفقر والاحتياج والغنى أمر عارض والعارض بصدد الزوال (إلهي أنا الجاهل في) حال (علمي) لأن ما عندي من العلم قليل فهو في حكم العدم وأيضًا هو العارض عليها والعارض بصدد الزوال كما مرّ (فكيف لا أكون جهولا) أي: كثير الجهل (في) حال (جهلي) وإني بصيغة المبالغة لما في ذلك من ضم جهل إلى جهل وحاصله أن العبد صفته الذاتية هي النقص، والكمال عارض له والعارض نقصان في التحقيق وتقديمه هذا التصريح والافتقار بين يدي دعائه ليكون ذلك أرجى للإجابة (إلهي إن اختلاف تدبيرك) فقد يكون العبد فقيرًا فيدبر الله له الغنى وبالعكس ويكون مريضًا فيدبر الله له الصحة وبالعكس، فالمراد بالتدبير المدبر أي: القدر ولذا عطف عليه للتفسير (وسرعة حلول مقاديرك) أي: المقدرة

على العبد (منعا عبادك العارفين بك عن السكون منك إلى عطاء) أي: عن سكونهم إلى عطاء يصدر منك فإذا أفيضت عليهم العطايا الدنيوية كالأموال أو الدينية كالمعارف والأسرار والمكاشفات لا يلتفتون إليها؛ لأنه بصدد الزوال يمكن زوالها وإتيان ضدها كما وقع لكثير في غابر الزمان، بل لا يلتفتون إلا إلى المولى ولا يغيبون عنه ويكون بقاء ذلك وزواله على حد سواء (واليأس منك في بلاء) فإذا قام بهم بلية بدنية كمرض أو فقر، أو دينية كمعصية لا ييأسون من زوالها بإتيان ضدها كما وقع لغيرهم، (إلهي مني) أي: يصدر مني (ما يليق بلؤمي) أي: الذي ركبت عليه وهو مبارزتي إياك بالمعاصي التي تليق بي فإن شأن الإنسان عدم الوفاء (بحقوق الرب منك) أي: ويصدر منك (ما يليق بكرمك)، وهو التجاوز والعفو عني وقبول أعذاري والتفضل والإحسان ودفع الآلام (إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة) أي: شدة الرحمة (بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما) أي: من قيام أثرهما بي وحصوله لدي (بعد وجود ضعفي) فاللطف والرأفة صفتان لله عز وجل اتصف بهما في الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود أثرهما فيما لا يزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهو إسباغ نعمه عليه وإيصال أفضاله إليه، فكيف يتصور إذ ذاك منعه إياهما واللطف يرجع للعلم والرأفة للإرادة (إلهي إن ظهرت المحاسن مني) وهي أنواع الطاعات والصفات المحمودة (فبفضلك) لا بحولي وقوتي (ولك المنة) أي: الامتنان (عليّ) لعدم استحقاقي ذلك والامتنان مذموم إلا من الله أو الرسول أو الوالد أو الشيخ (وأن ظهرت المساوئ مني)، وهي ضروب المعاصي والصفات المذمومة (فبعدلك) لا بطريق الظلم؛ لأن المالك يفعل في ملكه ما يشاء (ولك الحجة عليّ) بأن تقول لي: لم فعلت ذلك يا عبدي؟ وليس لي حجة أقيمها عليك، كأن أقول لك: إن ذلك بتقديرك وحكمك؛ لأن ذلك شأن الجاهل بك، أما العالم بك فيقول المالك يفعل في ملكه ما يشاء ولا يسأل عما يفعل (إلهي كيف تكلني) إلى غيرك (وقد توكلت لي) ومن كنت وكيله لا تحوجه إلى غيرك (وكيف أضام) أي: يحصل إلي ضيم وذلك (وأنت الناصر لي أم كيف أخيب) بعدم الظفر بآمالي (وأنت الحفيّ بي) أي: اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفايات مآربه وإيصال ذلك إليه برفق فالوكيل والناصر والحفي من أسماء الله تعالى وهي مقتضية لوجود آثارها من الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم

في اللطف والرأفة، (ها أنا أتوسل بفقري إليك) أي: أجعل فقري إليك وسيلة أتشفع بها عندك في القبول لا بأعمالي المدخولة وأحوالي المعلومة، ولذا سئل أبو حفص: بما يقدم الفقير على ربه؟ فقال: ما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره، وقال أبو يزيد: نوديت في سري "وخزائني مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار"، ثم رجع عن جعل الفقر وسيلة يتشفع بها إلى المولى فقال: (وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك)، وهو الفقر المذكور فكأنه يقول: إن كان الفقر يتوسل به إليك فأنا أتوسل به إليك لكنه لا يتوسل به إليك لأن المتوسل به يكون بينه وبين المتوسل إليه علاقة ومناسبة كالوزير والسلطان، ولا مناسبة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر وأيضًا توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له واعتماده عليه فيكون حينئذ من الأحوال المعلولة وهي لا تصل إلى الله بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها ولذا قيل: إن أبا الحسن الشاذلي قدس سره لما دخل على شيخه عبد السلام فقال له: يا أبا الحسن بماذا تلقى الله؟ قال: بفقري، فقال: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقيته بالصنم الأعظم ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنيًا بفقرك"، وحينئذ فلا وسيلة إلى الله سواه (أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك) وشكوى الحال لا تصح إلا لمن لا يعلمه والله تعالى لا يخفى عليه شيء، ولذا قال الخليل عليه السلام: "حسبي من سؤالي علمه بحالي"، وقولهم: "لا شكوى إلا لله" شأن الغافلين المحجوبين (أم كيف أترجم لك بمقالي) أي: أعبر عما في ضميري بأن أقول أعطني كذا والترجمة في الأصل التعبير باللسان عما في الضمير لتفهيم المخاطب (وهو منك برز إليك) أي: أنت الذي أنطقت اللسان وأطلقته بذلك فالترجمة برزت منك وترجع إليك لأنك المسئول والعبد لا مدخل له في ذلك، فكيف تنسب إليه الترجمة وأيضًا فهو تعالى عالم بأحوال العبد والترجمة لا تكون إلا لمن لا يفهم حال المترجم والمراد بالترجمة هنا مطلق السؤال (أم كيف تخيب آمالي) أي: ما أؤمله وأرجوه (وهي قد وفدت إليك) أي: توجهت بالسير إليك كما يتوجه الوادون بالسير إلى الكرام وفي بعض النسخ عليك ولا شك أنه تعالى كريم جواد متفضل لا يخيب من قصده، فليكن العبد على يقين بحصول مطلوبه وإن لم يسأل ولم يطلب، ولما كانت هذه التضحيات تقتضي نسبة النقص إلى نفسه وذلك غير لائق بالعارفين المحققين لما فيه من رؤية النفس وملاحظة حالها والبقاء معها والمحقق لا يرى غير الله والأحوال كلها حسنة من حيث

نسبتها إليه أتى بقوله، (أم كيف لا تحسن أحوالي) الباطنية والظاهرية وهي الأعمال الصالحة (وبك قامت وإليك) أي: صدرت منك ورجعت إليك لأنك المقصود بها فمن تحقق في مقام المعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه (إلهي ما ألطفك) أي: أكثر لطفك أي: رفقك (بي مع عظيم جهلي) بعواقب الأمور فقد يكون في نزول الأمراض والبلايا في أنواع اللطف وأنا جاهل بعاقبة ذلك فلذا أطلب الصحة والعافية (وما أرحمك بي) أي: أكثر إحسانك لي (مع قبيح فعلي) أي: مع أفعالي القبيحة المقتضية عدم الإحسان فهذا أمر يتعجب منه (إلهي ما أقربك مني) بذاتك كما يقول أهل المعرفة والشهود أو بعلمك كما يقول غيرهم من أهل الجحود (وما أبعدني عنك) بصفاتي التي اقتضت عدم شهودي إياك وهذا تواضع منه قدس سره، ثم ترقى فقال: (إلهي ما أرأفك) أي: أشد رأفتك أي: رحمتك (بي فما الذي يحجبني عنك) فإن من شاهد رأفة ربه وغاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها فلذلك لم يظهر له سبب وجود حجابة عنه (إلهي قد علمت باختلاف الآثار) وقوله (وتنقلات الأطوار) مرادف لما قبله أي: قد علمت باختلاف الآثار علي وهي تنقلات أصواري من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والبسط والقبض والوجد والفقر وغير ذلك من شئونك التي تنزلها بي (أن مرادك) مني بذلك (أن تتعرف إلي) أي: أن أعرفك (في كل شيء) معرفة خاصة (حتى لا أجهلك في شيء) ولو كان الأمر على خلاف هذا والتزمتني حالة واحدة أرتضيها لنفسي وأختارها لكان معرفتي ناقصة ومشاهدتي قاصرة.

وبيان ذلك أن الله تعالى إذا أنزل بي مرضًا أو فاقة عرفت في ذلك الوقت أنه لا يقدر على دفعه إلا هو وأنه الذي أمرضني وأفقرني فأصبر على ذلك وإذا نزل بي صحة أو غنى عرفت أنه المنعم علي والمعطي لي فأشكره، وهكذا ولو فرض انه أدام لي حالة واحدة كالصحة والغنى لم أعرف المولى في حالة المرض أو الفقر أي لم أعرف بطريق الذوق أنه لا يقدر على كشف الكربة إلا هو فتكون معرفتي ناقصة فينبغي للعبد ألا يغفل عن مولاه في عطاء ولا منع ولا عز ولا ذل ولا غنى ولا فقر ولا قبض ولا بسط ولا فقر ولا وجد إلى غير ذلك (إلهي كلما أخرسني لؤمي) أي: مخالفتي وعصياني فإن ذلك يقتضي عدم انطلاق لساني بالطلب منك؛ لأن الطلب لا يكون إلا بعد التودد، والتودد إلى المولى بطاعته وذلك مفقود عندي لكن كلما خرست (أنطقني كرمك)

فإني لاحظت أنك كريم والكريم لا يتوقف إعطاؤه على التودد إليه انطلق لساني بالطلب منك (وكما آيستني) أي: أوقعتني في اليأس عن الاستقامة (أوصافي) الذميمة التي اقتضتها الطبيعة والجبلة، فإنها تقتضي اليأس من الاستقامة على طريق الحق ومن القيام بحقوق الربوبية (أطمعتني) أي: جعلتني طامعًا في ذلك (منتك) أي: امتنانك وإحسانك الذي شمل البار والفاجر (إلهي من كانت محاسنه) أي: أعماله الصالحة (مساوئ) لعدم خلوها من ذائق العجب والرياء فهي محاسن في الظاهر وعند الناس ومساوئ في الواقع وعند الله (فكيف لا يكون مساوئه) أي عيوبه وأعماله السيئة (مساوئ) أي: عيوبًا تامة عظيمة فقد اختلف الخبر والمبتدأ بهذا الاعتبار ويحتمل أن المعنى فكيف لا تكون مساوئه في الواقع ونفس الأمر مساوي عنده فهو لا يعتقد الكمال من نفسه ولا ينظر إلى عيوبه بعين الاحتقار فلا يعدها عيوبًا كما هو حال الغافلين (ومن كانت حقائقه) أي: علومه ومعارفه التي يعرفها الناس مني (دعاوي) عندي وفي اعتقادي (فكيف لا تكون دعاويه دعاوي) فيه ما تقدم وكأنه يقول: أنا في جميع الأحوال معتقد للتقصير من نفسي ومترج للعفو من الله، وليس لي حالة أعتقد بها الكمال.

وهذا مثلما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد تقصان على التحقيق فما ظنك بنقصانه (إلهي حكمك) أي: قضاؤك (النافذ) وقوله: (ومشيئتك القاهرة) تفسير لما قبله ووصف المشيئة بذلك لأنها إن تعلقت بحصول نقمة وبلية كانت قاهرة أو بحصول نعمة وعطية كانت غير قاهرة (لم يتركا لذي مقال مقالاً) فإذا كان ذا قول سديد بأن كان ينطق بالحقائق ويتكلم في العلوم العرفانية لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره (ولا لذي حال) فإذا كان ذا حال حميدة بأن كان يحصل له كشف عن أمور تحصل في الكون أو تطيعه بعض الجمادات والعناصر لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كما هو مشاهد كثيرا، فهذا المعنى يوجب للعبد التحقيق في مقام الخوف وعدم الاغترار بشيء من أقواله وأحواله لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته (إلهي كم من طاعة) ظاهرية (بنيتها) أي: أقمتها على الوجه المأمور به في الظاهر بأن وفيت بجميع شروطها وأركانها وآدابها (وحال شيدتها) أي: زينتها وصنتها عما يكدر صفاءها بأن أخلصت فيها إخلاصًا تامًّا والحالة هي الطاعة فعطفها عليها من عطف المرادف أي: ولما فعلت هذين الأمرين من البناء والتشييد رأيت أني تحصن بحصن

حصين وآويت إلى ركن متين لكن (هدم اعتمادي عليها) في النجاة من العذاب ودخول الجنة دار الثواب (عدلك) أي: النظر إلى عدلك فإن مقتضاه أنك تفعل ما تشاء ولا تبالي بأعمال العاملين فمن الجائز أنك تعاقبني على تلك الطاعة (بل أقالني منها) أي: من الاعتماد عليها والتعلق بها (فضلك) أي: النظر إلى فضلك وكرمك وإحسانك فصرت معتمدًا عليه ومتعلقًا به لا بطاعتي فصار التعلق والاعتماد على الإحسان والفضل لا على الطاعة ونعم البدل والعوض (إلهي أنت تعلم وأن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزمًا) أي: إن عدم دوامها فعلاً مجزومًا به لعجزي عن ذلك ومقتضى العبودية أن أداوم عليها فأنا مقصر (فقد دامت محبة وعزمًا) أي: أنا مداوم عليها من حيث محبتي لها وعزمي عليها، وأنت تعلم ذلك فلا تؤاخذني بتقصيري بل مداومتي على هذا الوجه فضل عظيم وإلا فكم من شخص محروم ليس عنده فعل ولا محبة ولا عزم فالواو الداخلة على أداة الشرط زائدة ولتعلق العلم جواب الشرط كما تردد في وقوع العزم منه بقوله (إلهي كيف أعزم) أي: يقع مني عزم على فعل الطاعات وترك المنهيات (وأنت الظاهر) فيمكن أن يقع مني عزم على ذلك ثم يصدني عن قهرك فيكون العزم لا فائدة فيه ولا يعتد به (وكيف لا أعزم وأنت الآمر) لي بالعزم على ذلك ومقتضى الأمر المبادرة إلى العزم فأنا متحير وعاجز عن تدبير أمري ولا يسعني إلا التسليم إليك والاعتماد عليك، ولذا كان العارفون لا يجزمون بشيء من الأشياء بل يفوضون الأمر إلى الله تعالى، فقد قالوا: العارف لا قلب له (إلهي ترددي في الآثار) أي: المكونات على سبيل التعلق بها والاستناد إليها أو على سبيل الاستدلال بها على الله تعالى (يوجب بعد المزار) أي: الوصول إليك ومشاهدتك (فاجمعني عليك) أي: أوقفني بين يديك (بخدمة) أي: طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات (توصلني بك وتقطع التعلق بالآثار عن قلبي فلا أتعلق بمكاشفات ولا أحوال ومقامات كما تقدم في قوله: " لا ترحل من كون إلى كون"، ولا أستدل بها على موجدها كما قال: (إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده) أي: ثبوته وتحققه خارجًا (مفتقرًا إليك) وهو المكونات فإنها في ذاتها عدم محض كما مر (أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك)، فإن الدليل يكون أظهر من المدلول حتى يستدل به عليه فأصحاب النظر والاستدلال حالهم قبيح بالنسبة إلى أصحاب الشهود والعيان ويقال لهم عوام بالنسبة لهم كما تقدم عند قوله: "شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه"،

ثم ترقى في نفس الاستدلال بقوله (متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار) أي: المكونات (هي التي توصل إليك) أي: إلى معرفتك ولذا قال المريد لشيخه: "يا أستاذ أين الله؟" فقال: "ويحك وهل يطلب مع العين أين"! (إلهي قد عميت عين) المراد بها عين البصيرة وهذا يحتمل أن يكون إخبارا وأن يكون دعاءًا بدوام العمى لأن أصله حاصل (لا تراك عليها رقيبًا) أي: حفيظا مراقبا لها فمن رأى الله رقيبًا عليه يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شيء استحى منه ومن لم يكن على هذا الوصف عميت عين بصيرته فبارز مولاه بأنواع القبائح من غير اكتراث ولا مبالاة ولذا ورد في الحديث: "أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان" (وخسرت صفقة) أي: تجارة (عبد لم يجعل لك من حبك نصيبًا) أي: حبك له أو حبه لك والأول الأصل في الثاني قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُۥ﴾، وحب الله لعبده إحسانه إليه وثناؤه عليه، وحب العبد لله طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته وانجذابه بقلبه إليه فمن أعطاه الله من ذلك الحب نصيبًا فقد فاز ومن حرمه منه وشغله بالدنيا فقد خسرت تجارته وهيت لك الأمور الدنيوية التي يتقلب فيها أي خسر في تجارته، وكانت تجارته خاسرة لا عبرة بها (إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار) أي: المكونات من الأموال والعيال وغيرهم أي: ملابستها ومخالطتها بعد غيبتي عنها بالوصول إليك ومشاهدتك فإن المريد إذا وصل إلى المولى غاب عن الأكوان ثم إذا خالطها بمقتضى الأمر بها شغلته عن مولاه واحتجب بها عنه فلذا قال: (فأرجعني إليها مكسوًا بكسوة الأنوار) أي: بكسوة هي الأنوار الإلهية التي تمنع من تعلقي بها واحتجابي بها عنك (وهداية الاستبصار) أي: هداية ناشئة عن الاستبصار أي: الشهود بعين البصيرة (حتى أرجع إليك منها) أي: أشاهدك فيها وفي بعض النسخ فيها وهي بمعنى ما قبلها (كما دخلت إليك منها) بالاستدلال بها عليك والاعتبار بها فإن المريد حينئذ محجوب عن مولاه فيشتغل في الآثار حتى يصل إليه، والضمير في الموضعين للآثار لا بالمعنى المتقدم بل بمعنى الموجودات من السماء والأرض وما بينهما ولو حذف ذلك هنا لكان أولى (مصان السر عن النظر إليها) أي: التعلق بها في اعتقاد نفع أو دفع ضرر وقوله: (ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها) بمعنى ما قبله أن صون السر عن النظر إليها هو عدم استحسان شيء منها في نظره ورفع الهمة في الاعتماد عليها هو عدم التعلق بها فيما ذكر والحاصل أنه سأل المولى أنه إذا أرجعه إلى الأكوان والتلبس بها

يرجعه إليها على حال شريفة مضادة للحال التي كان عليها قبل السلوك، وهو كونه مكسوًا بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار فإنه إذا رجع إليها على هذه الحالة لم تؤثر فيه ولم تحجبه عن مولاه وهذا المعنى غير ما تقدم في قوله "فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق"، كما هو ظاهر مما قررناه سابقًا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِ شَيءٍ قَدِيرٍ﴾، ومنه تحصيل تلك المطالب السيئة (إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك) وهو في الحقيقة عين العز والفخر قال ذو النون المصري: "ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه"، وقوله (وهذا حالي لا يخفى عليك)، بمعنى ما قبله والقصد بذلك طلب حصول مطالبه من مولاه (منك أطلب الوصول إليك) أي: أطلب منك لا من غيرك الوصول إليك لا غيره من المطالب الدنيوية والأخروية وهذا مطلب العارفين كما مر (وبك أستدل عليك) أي: أستدل عليك وأعرفك بك لا بغيرك من الدليل والبرهان.

قيل لبعض العارفين: "بم عرفت ربك"؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي"، وقال بعضهم: لا دليل على الله سواه، وإنما العلم يطلب لأداء الخدمة (فاهدني بنورك) أي: بنور تقذفه في قلبي أهتدي به (إليك) أي: إلى معرفتك معرفة خاصة (وأقمني بصدق العبودية بين يديك) أي: أقمني بين يديك بأن تجعلني حاضر القلب معك حال كوني مصاحبًا لصدق العبودية أي للعبودية الصادقة بألا يظهر عليّ شيء من أوصاف الربوبية بل أكون متصفًا بغاية العجز والذل والضعف والفقر ولا يظهر عليّ شيء من قوة أو عز أو قدرة أو غنى (إلهي علمني من علمك المخزون)، إضافة ذلك العلم إليه إضافة تشريف والعلم المخزون هو العلم اللدني الذي اختزنه عنده فلم يؤته إلا المخصوصين من أوليائه. قال تعالى في شأن الخضر عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل العزة بالله" وقال بعضهم: "هو أسرار يبديها الله إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة" (وصني) أي: احفظني عن رؤية الأغيار أو عن إباحتي بتلك العلوم والأسرار (بسرِّ اسمك المصون) أي: أسمائك المصونة أي المحفوظة عن الابتذال والإهانة فإنه لا يجوز أن يدخل بها بيت الخلاء مثلاً أو عن يسمي بها غيره سبحانه، وسرها أنوار وتجليات تحصل لمن يذكرها (إلهي حققني بحقائق أهل القرب) أي: أعطني

مقامات أهل القرب منك الذين تحققوا في مقام الفناء فبطل في حقهم رؤية الأسباب وزال عنهم كل حجاب، فلم يروا غيرك واكتفوا بتدبيرك عن تدبير أنفسهم وبعلمك عن الشكوى لغيرك (واسلك بي مسالك أهل الجذب) وهم المحبوبون المرادون، فكأنه يقول اجذبني إليك حتى يسهل عليّ سلوك الطريق وأصلُ إليك في أقرب ندة وأجد ذلة وحلاوة في الأعمال كما هو حال أهل الجذب الذين أخرجتهم عن حكم أنفسهم وتوليتهم بحفظك ورعايتك من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة (اغنني بتدبيرك) لي (عن تدبيري وباختيارك) لي (عن اختياري) فإن في تدبيري أحوال نفسي واختياري شيئا من الأشياء بمقتضى شهوتي وميلي منازعة لك في ربوبيتك لأنك المنفرد بالتدبير والاختيار (وأوقفني على مراكز اضطراري) المراكز جمع مركز وهو موضوع الاستقرار والثبوت أي مواضع اضطراري بالذل والعجز والفقر شبهت بالمواضع التي يستقر فيها فهي مواضع اعتبارية ينبغي للعبد ألا يفارقها بل يلازمها كما يلازم الشخص مكانه الذي يستقر فيه ومعنى وقوفه عليها ملاحظتها وعدم غيبته عنها أي: اجعلني ملاحظًا لفقري وعجزي وذلي التي هي مواضع اضطراري أو ملازمتها وتحققه بها أي: اجعلني ملازمًا لها ومتحفظًا بها وإضافتها لاضطراري باعتبار كونها يحصل عندها اضطرار العبد للمولى واحتياجه له (إلهي أخرجني من ذل نفسي) من إضافة المصدر للمفعول أي: من كوني أذل نفسي لغيرك بالطمع والحرص أو للفاعل أي من كون نفسي تذلني وتوقعني فيما لا يليق (وطهرني من شكي وشركي) الشك ضيق الصدر عند إحساسه بأمر مكروه، فإذا ضاق أظلم القلب وأصابه الهم والحزن وطهارته منه بوجود ضده وهو اليقين إذ به يتسع الصدر وينشرح فيستنير القلب ويجد الروح والفرح بالله تعالى وبقدر ما يصيبه من نور اليقين يكون انشراحه واتساعه والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له، ومبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيفزع حينئذ إلى الأسباب التي يتوصل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذي يقذفه الحق في قلبه فتطمئن بذلك نفسه، ويسكن عن الشره والطيش الذي أصابها وكلما قوي نور التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر (قبل حلول رمسي) أي: قبري إذ ليس بعده تطهير إلا بالنار (بك استنصر) أي: أطلب النصرة على نفسي وشيطاني وهواي (فانصرني) عليها (وعليك أتوكل) في تحصي مطالبي (فلا تكلني) إلى غيرك وإن كنت غير صادق

في توكلي (وإياك أسأل فلا تخيبني)، وإن كنت أهلاً للخيبة (وفي فضلك أرغب فلا تحرمني) وإن كنت أهلاً للحرمان أي: أرغب في فضلك لا في فضل غيرك، وقولنا (وإن كنت) جواب عما يقال: إن من توكل على الله وحده كفاه فلا حاجة لقوله فلا تكلني ومن سأله وحده لم يخيبه ومن رغب في فضله وحده لم يحرمه فلا حاجة لقوله فلا تخيبني ولا تحرمني (ولجنابك) أي: ذاتك والإضافة للبيان (انتسب) لا لغيرك (فلا تبعدني) عن بابك (وببابك أقف) للسؤال وفيه تشبيه المولى بملك عظيم يقف الطالبون ببابه (فلا تطردني) عنه (إلهي تقدس) أي: تنزه (رضاك) وهو الإحسان أو إرادته (عن أن تكون له علة مني) كأعمالي وأحوالي فرضي المولى لا يتوقف على سبب ولا علة بل رضاه وسيخطه هما سبب لأعمال العاملين حسنها وسيئها، رضي عن قوم واستعملهم لخدمته وسخط على قوم فشغلهم بما يبعد عن حضرته (أنت الغني لذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عني) هذا كالتعليل لما قبله والمقصود بها الاسترضاء والاستعطاف وطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة (إلهي أن القضاء) وهو إرادة الله تعالى مع التعلق (والقدر) وهو إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر معلوم ومقدار معين (غلباني) فكلما أعزم على طاعة أو ترك معصية لا يتيسر لي ذلك (وأن الهوى) أي ميل النفس إلى مرادها ومشتهياتها (بوثائق الشهوة) أي: بالشهوة الشبيهة بالوثائق أي: القيود (أسرني) أي: قيدني (فكن النصير لي حتى تنصرني) على أعدائي أي: النفس وجنودها (وتنصرني) أي: تنصر أحبابي وأصحابي على أعدائهم بسببي.

قال الشاذلي قدس سره: "واجعلني سببًا للغنى لأوليائك وبرزخًا بينهم وبين أعدائك" (وأغنني بفضلك) أي: شهودك (حتى استغني بك) أي: بشهودك (عن طلبي منك) لأن من كان مشهدًا للحق حاضرًا معه يستحي أن يطلب منه شيئا لرؤيته أنه مطلع على حاله لا يخفى عليه شيء منها ومن كان كذلك لا معنى للطلب منه.

قال الشاذلي: "السعيد حقا من أغنيته عن الطلب منك" (أنت الذي أشرقت الأنوار) أي: المعارف والأسرار (في قلوب أوليائك) حتى عرفوك ووحدوك (وأنت الذي أزلت الأغيار) أي: المكونات والتعلق بها (عن قلوب أحبابك) وهم أولياؤك، وهذا من عطف السبب على المسبب؛ لأن زوال الأغيار سبب في شروق الأنوار (أنت المؤنس لهم) أي: المدخل للسرور على

قلوبهم بتجليك (حيث أوحشتهم العوالم) التي كانوا يألفونها وتتعلق قلوبهم بها من أصحاب وأولاد وأموال وغير ذلك، فإن من حصل له أدنى شك من شهود الحق وتودده لم يستوحش الشيء من ذلك بل يغيب عنه ولم يستأنس بشيء منه بل ينفر عنه بقلبه (وأنت الذي هديتهم) بنور منك (حتى استبانت) أي: ظهرت (لهم المعالم) أي: طرق الحق التي سلكوها فإن ظهور ذلك لا يكون إلا بهداية منك (ماذا وجد من فقدك) أي: فقد شهودك ولم يشهد إلا ذوات المكونات وهذا كناية عن كونه لم يجد إلا شيئًا حقيرًا (وما الذي فقد من وجدك) أي: لم يفقد شيئا بل حصل على غاية المقصود حيث كنت سمعه مبصره وجميع قواه (لقد خاب من رضي دونك بدلاً) كالشهوات واللذات الدنيوية والأخروية.

فقد رؤي الشبلي في المنام بعد وفاته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: "لم يطالبني بالبراهين على الدعاوي إلا على شيء واحد، قلت يومًا لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار، فقال: "وأي خسارة أعظم من خسران لقائي" (ولقد خسر من بغى عنك متحولاً) أي: طلب التحول عن حضرتك إلى التعلق بغيرك كالكرامات والمكاشفات، فقد تقدم أن هذا شبيه بمن طلب منه الملك أن يكو ن جليسه فلم يرض إلا بسياسة الدواب (إلهي كيف يرجى سواك) أي: يتعلق القلب بالطلب منه (وأنت ما قطعت الإحسان) بل إحسانك دائم مستمر (وكيف يطلب من غيرك) أن يتوجه إليه بالطلب (وأنت ما بدلت عادة الامتنان) أي: عادة هي الامتنان أي: الإحسان (يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته) المؤانسة هي سرور القلب بشهود جمال المحبوب شبهه بشيء له حلاوة وهي تخييل والأذواق ترشيح (فقاموا بين يديه متملقين) التملق هو التلطف في التودد كأن يقول الإنسان حفظك الله، سترك الله وهو هنا كناية عن الطلب من المولى بذلة وانكسار لترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين يديه (ويا من ألبس أولياؤه ملابس هيبته) أي: ملابس هي هيبته أو هيبته الشبيهة بالملابس الحسية والمراد بالهيبة الجلالة والعظة التي كساها الله لأوليائه، فكل من رآهم حصل له رعب منهم كأنهم أسود (فقاموا بعزته مستعزين) أي: قاموا بين يديه مستعزين بعزته بأن رفعوا هممهم عن تعلقها بالأغيار تيهًا وتكبرًا عليها أو ثقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس الهيبة حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه (أنت الذاكر من قبل الذاكرين) أي: أنت الذي ذكرتهم بالإحسان إليهم في الأزل بأن تعلقت إرادتك

بوجودهم فينا لا يزال فهذا ذكره قبل ذكرهم له ويحتمل أن يراد بذكره لهم توفيقه لهم لذكره، إذ لولاه ما ذكروه وقوله (وأنت الجواد) أي: المحسن (بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب) أي: كثير الهبة أي: الإعطاء للعطايا كالأعمال الصالحة والأحوال الحسنة (ثم أنت لما وهبتنا) أي: للشيء الذي وهبته لنا (من المستقرضين) كأنك قلت: أقرضوني هنا أعطيكم بدله في الدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، واستقراضه تعالى من عبده ما وهب له غاية في تلطفه به وإعلائه لقدره وفيه إشارة إلى أن إحسانه تعالى وإعطائه ليس مشوبًا بالعمل (إلهي اطلبني) إلى القرب منك (برحمتك) أي: إحسانك (حتى أصل إليك) فإن لا سبيل إلى الوصول إليك إلا برحمتك لا بأعمالي المدخولة والطلب وإن كان من الأعلى كالسلطان لم يحصل في الوصول مشقة بخلاف ما إذا كان من الأدنى (واجذبني بمنتك) أي: إحسانك فلا يصير لي قدرة على الامتناع (حتى أقبل عليك) وهو بمعنى ما قبله (إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك) لمعرفتي أنك المبتدئ بالإحسان ومن هو كذلك يرجى خيره ولو مع المعصية (كما أن خوفي لا يزاولني) أي: لا يفارقني (وإن أطعتك) لعلمي بأنك الفعال لما تريد، فالطاعة لا تقتضي رفع سخطك وزوال عقابك خصوصًا وهي مدخولة معلولة ومنشأ اعتدال الخوف والرجاء عند العارفين شهود الصفات المخوفة والمرجية فكما أن صفاته تعالى لا تفاوت فيها كذلك شهودها لا تفاوت فيه، فإن وقع فيه تفاوت كان شهودًا ناقصًا فلذا يتصور عندهم كمال الخوف مع العمل بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكاب المعصية كما وصف نفسه ﷺ (فقد دفعتني العوالم إليك) وذلك أني توجهت إلى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول: لا معطي إلا الله ولا ناصر إلا هو، ويحتمل أن يراد بالعوالم جميع ما عدا الله، فإذا ظهرت لي كرامة أو كشف لي عن شيء من الكون وأردت أن أقف عنده تقول لي حقيقته لا تتعلق بي بل تعلق بمولاك، وكذا أن خاطبتني الجمادات وأردت أن أقف عنده تقول لي حقيقتها لا تتعلق بي بل بمولاك (فكل شيء يدفعني عليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك) أي: على بابك فالحامل على وقوفي ببابك علمي بكرمك والكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين (إلهي كيف أخيب) أي: يحصل لي خيبة وعدم الظفر بالمطلوب (وأنت أملي) أي: الذي أملت العطاء منه؛ لأن عادتك الإحسان

(أم كيف أهان) أي: يحصل لي هوان وذل (وعليك متكلي) أي: اتكالي واعتمادي (إلهي كيف أستعز) أي: يحصل لي عز في نفسي (وفي الذلة أركزتني) أي: أقمتني في الذلة وجعلتها مركزًا ومكانًا لي لا أفارقها (أم كيف لا أستعز) أي: يحصل لي عزٌّ بِكَ (وإليك نسبتني) أي: وقد نسبتني إليك نسبة خاصة بإفاضة الأنوار على ظاهري وباطني حتى صار كل من رآني يقول هذا ولي الله فأنا ذليل من وجه عزيز من وجه آخر (أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني)، فهو صفة لازمة لي (أم كيف أفتقر وأنت الذي بوجودك) أي: بشهودك وفي بعض النسخ (بجودك) أي: إحسانك إليّ بالشهود (أغنيتني) حتى حصل لي عزٌّ بك فالافتقار يرجع للذلة والاستغناء للعزة وتلونه في هذه الأوصاف المتضادة بحسب الظاهر عليه من مشاهدة ما يوجبها والذلة المثبتة هنا هي ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التي أشار إليها هي سر الخصوصية كما تقرر (أنت الذي لا إله غيرك) يعبد أو يستند إليه في كل شيء (تعرفت لكل شيء) أي: جعلت نفسك معروفًا لكل شيء بما أودعته فيه من النور الذي عرفك به (فما جهلك شيء) بل صار كل شيء يعرفك (وأنت الذي تعرفت إليّ في كل شيء) بأن أودعت في نورًا (فرأيتك ظاهرا في كل شيء) بسبب ذلك النور (فأنت الظاهر لكل شيء) مفرغ على ما قبله (يا من استوى) أي: استولى (برحمانيته) أي: برحمته (على عرشه) فصار العرش تحت حكمه وقهره كاستيلاء السلطان بجنوده على أهل بلدة فشبه المولى سلطان الرحمة بالجنود وعرشه بأهل البلدة (فصار العرش غيبًا) أي: غائبًا ليس له وجود (في رحمانيته) أي: بالنسبة لرحمته (كما صارت العوالم) أي: السماوات والأرضون وما فيهما (بالآثار) وهو العرش لأنه أثر الرحمة والعوالم بالنسبة له كلاشيء (ومحوت الأغيار) وهو العرش (بمحيطات أفلاك الأنوار) أي: بالأنوار الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش وهي تلك الرحمة، والحاصل أن رحمته تعالى أي إحسانه هو الذي اقتضى وجود العوالم كلها من عرشها إلى فرشها، ولولا إحسانه هو الذي اقتضى وجود العالم كلها من فرشها إلى عرشها ولولا إحسانه لها بالوجود ما وجدت. فالمراد بالرحمة الرحمة العامة التي وسعت كل شيء (يا من احتجب) أي: امتنع (في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار) أي: في عزه الشبيه بالسرادقات جمع سرادق بمعنى الخيمة التي تنصب على صحن الدار فالسرادقات الخيام وهو من إضافة المشبه به للمشبه فكما أن الخيمة تمنع من رؤية ما بعدها كذلك عز الله أي: قوته العظيمة تمنع عن

رؤيته بالأبصار ثم إن أريد رؤية الإحاطة فهي ممتنعة في الدنيا والآخرة، وإن أريد مطلقها فهي ممتنعة في الدنيا واقعة في الآخرة للمؤمنين فعزه تعالى اقتضى حجب ما سواه عن رؤيته، فإن العزيز معناه المنيع الذي لا يوصل إليه، يقال حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه، وقيل العزيز الذي لا يرتقى إليه، وقيل العزيز الذي ضلت العقول في عظمته وحارت الألباب عن إدراك نعته وكلَّت الألسن عن استيفاء مدحته (يا من تجلى) على قلوب العارفين (بكمال بهائه) أي: بمحاسن صفاته أي: بصفة جلاله وجماله (فتحققت عظمته) أي: كونه عظيما لا نهاية له (الأسرار) أي: بواطن القلوب (كيف تخفى وأنت الظاهر) بذاتك في جميع الأشياء كما يقول أهل الشهود أو بظهور أفعالك وتصرفاتك في العالم كما يقول غيرهم (أم كيف تغيب وأنت الرقيب) أي: المراقب لنا في حركاتنا وسكناتنا (الحاضر) الذي ليس بغائب وأتى به لأنه لا يلزم من المراقبة الحضور إذ قد تحصل الإحاطة بأفعال الغير وأحواله بالمكاتبة والمراسلة.

وهذا آخر ما تيسر رقمه على هذا الكتاب المبارك على وجه لطيف جعله الله خالصًا لوجهه الكريم بمنه وكرمه.. آمين.

تم ذلك الشرح يوم السبت المبارك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال من شهور سنة أربع بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر العباد عبد الله الشرقاوي الخلوتي، وصلِّ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يقول سعد الدين السياجي يغفر الله له: ولقد تم بحمد الله ومنته إعداد هذه الشروح والتعقيب على بعضها وذلك على حكم العارف بالله سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709 هـ والتي حررها شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوي المتوفى سنة 1227 عن النسخة المطبوعة في مصر المحروسة في شهر ذي القعدة سنة 1282 على ذمة ملتزمه المهاب حضرة السيد محمد أمين ابن حضرة السيد قاسم المكي رحمه الله أجمعين وذلك في غرة القعدة سنة 1424 من هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.